الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية الآداب و العلوم الإنسانية

قسنطينة — قسم اللغة العربية

رقم التسجيل...

الرقم التسلسلي...

الإعجاز البياني في سورة القصص
-دراسة وصفية تحليلية -

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الدراسات البلاغية

إعداد الطالب:

عادل قيطوني

إشراف الأستاذ الدكتور:

رابح دوب

لجنة المناقشة

لجنة المناقشـــــة	الرتبـــــة		الجامعة الأصليـــــة
د ذياب قديد	أستاذ محاضر	رئيسا	جامعة منتوري
أد رابح دوب	أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا	جامعة الأمير عبد القادر
د ذهبية بورويس	أستاذ محاضر	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر
د عبد الوهاب بوشليحة	أستاذ محاضر	عضوا	جامعة الأمير عبد القادر

السنة الجامعية

1427هـ-1428هـ-2006م-2007م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــداء

إلى من أرضعتني حب الطاعة والعلم...

إلى من وضعت الجنة تحت أقدامها...

إلى من سهرت وتحملت أعبائي...

إلى ينبوع الرحمة والحب والأمل..

إلى رمز الحنان وأميرة الصبر....

إلى أمـــــــي

إلى الرجل المكابر الصامد في وجه الصعاب...

إلى من علّمني ورّباني فأحسن تربيتي....

إلى رمز العطاء والصبر والتسامح...

إلى أبـــــــي

أهدي هذا العمل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمـــــــــة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب و لم يجعل له عـ جا، الرحمن علّم القرآن خلق الإنسان علّمه البيان، ثم الصلاة والسلام على خير الأنام محمد بن عبد الله المؤيَّد بمعجزة القرآن وعلى الأهل والأصحاب ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين أما بعد...

إننا ونحن نقرأ القرآن نجد أنفسنا مدفوعين وبقوّة للوقوف عـد كلّ آية وعند كلّ كلمة منه، وكلُّنا إعجاب لِمَا لهذه الكلمة من جمال وحسن اختيار، فإذا نظرنا إلى ما قبلها وما بعدها زاد إعجابنا للتناسق البديع والجمال الأخّاذ لآيات القرآن الكريم وظهرت لدينا رغبة ملحَّة ل لبحث عن سرِّ هذا الجمال وحسن هذا التناسق، وكيف أن الآيات يأخذ بعضها برؤوس بعض في تلاؤم عجيب، ولعلّ هذه الرغبة هي التي جعلت المفسّرين والبلاغيين واللغويين منذ بداية القرن الثاني الهجري يسخّروا أعمارهم ويفرغوا مداد دواتهم ويفنوا أقلامهم في البحث في مجال الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

وإيمانا منّي بالجهد الذي قدّمه هؤلاء المفسرون والبلاغيون واللغويون في خدمة القرآن الكريم أحاول في هذا البحث المتواضع والذي جعلته بعنوان:

" الإعجاز البياني في سورة القصص – دراسة وصفية تحليلية– "

أن أضمّ صوتي إلى صوتهم لبيان جمال وروعة الأسلوب القرآني ونظْمه.

أولا: أهميّة الموضوع

إن كلّ الدراسات التي تعالج قضايا الإعجاز في القرآن الكريم وخاصّة الإعجاز البياني تهدف بالدرجة الأولى إلى الكشف عن حقيقة وعظمة هذا الكتاب الخالد، والتدليل على مَصدره الرباني وإقامة الحجة الواضحة على جميع البشر عُرْبهم وعجمهم من أنه لا يُمكن أن يكون هذا القرآن نتاج جهد بشري يعتريه النقص والقصور في معظم أحواله، ولعلّ الوقوف أمام هذه الحقيقة تولّد لدى قارئ القرآن الكريم شعورا وإيمانا عميقا بأنه تنزيل ربّ العالمين نزل به الروح الأمين على قلب خير المرسلين.

وتلك هي أولى خطوات السالكين إلى ربهم يبتغون هداه ويرجون رحمته بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: 54].

كما أن هذا النوع من الدراسات القرآنية– الإعجاز البياني للقرآن الكريم– يتيح للقارئ الوقوف عند بدائع التعبير القرآني ويكشف له عن جمالياته الرائعة ويجلّي له بيانه البديع، وهل أُنزل القرآن الكريم إلا ليُتدبَّر ثم يُعمل به، والعجيب في هذا كلّه أن القرآن الكريم خاطب حاسّة الوجدان الدينية للبشر بلُغة الجمال الفنية، والأعجب من ذلك أنه استعمل الجمال الفني والتعبير البياني كوسيلة لا هدفا في ذاته للوصول إلى الوجدان

الديني، رغم ذلك كلّه نجده قد برع في استعمال هذه الوسيلة وأتقنها بل وبلغ بها درجةً أعجزت الشعراء وأرباب الفصاحة والبيان من العرب.

ومن هذا المنطلق تظهر أهميّة الموضوع الذي اخترته في حقل الدراسات القرآنية والذي سأحاول - رغم قلة زادي- الكشف عن بعض مظاهر الإعجاز البياني في سورة القصص و الوقوف على ما بلغته من مراتب متقدّمة من حسن اختيار الحرف والمفردة والفاصلة وما حازت عليه من قصبات السبق في أسلوب القصة والحوار والالتفات، وتتبع فنون العرض والتصوير وقوّة الأداء والتأثير.

ثانيا:أسباب اختيار الموضوع

ما من شكّ أن كلّ باحث تصدّى للبحث في موضوع ما كان قد دفعته إلى ذلك أسباب وجالت في نفسه خواطر، وأبصر أمامه محفّزات أعانته على ذلك، وقد كانت أهميّة الموضوع في حدّ ذاته أهمّ دافع دفعني إلى خوض غمار البحث والتنقيب، بيد أن هناك أسبابا أخرى بعضها ذاتي وبعضها موضوعي تضافرت جميعا لتجعل من موضوع الإعجاز البياني في سورة القصص يتربّع على عرش قلبي، وتلحُّ عليّ للبحث فيه ويمكن إجمال هذه الأسباب في:

الأسباب الذاتية:

هي الرغبة التي لازمتني منذ الصبا فلطالما سمعت الشيخ عبد الباسط عبد الصمد وهو يرتّل القرآن فيهزُّني تناسقه وشجي نغماته رغم أني لم أكن أفهم الكثير من معاني ما يقرأ، وعِشت في ظلال تلاوات الشيخ سنوات أتطلّع لأحاكيه ولو مرّة في حياتي، ومرّت الأيام وبلغتُ المرحلة الجامعية في دراستي ودفعتني تلك الرغبة الجموح إلى اختار شعبة اللغة والدراسات القرآنية كونها الشعبة التي تُعنى بالقرآن تفسيرا وترتيلا وبحثا، وكان من نعم الله علينا أن أخذنا العلم على يد جملة من الأساتذة مُتمكّنين وعلى رأسهم الأستاذ الدكتور رابح دوب الذي دَرَسْنا على يده مادتي الإعجاز القرآني، والدراسات البيانية، ففتح لي بابا وسلّط الضوء على زوايا مظلمة في بلاغة القرآن ما كنت أراها من قبل، هذه الزاويا دُفنت فيها كنوز لروعة وجمال التعبير القرآني وأسلوبه، فغذّى هذا الفتح المبين شغفي للبحث في هذا المجال الرائع، ثم أتمّ الله تعالى نعمته عليّ وجاءت مرحلة الدراسات العليا التي منحتني فرصة تحقيق هذه الرغبة فاخترت هذا الموضوع.

الأسباب الموضوعية:

1- إن الملاحِظ لمعظم الدراسات القديمة التي تناولت الإعجاز البياني للقرآن بالبحث كثيرا ما تُسهب في عرض وتحليل السوَر الأولى من القرآن الكريم- الفاتحة، البقرة...- ثم يقلُّ هذا العرض والتحليل في باقي السوَر حتى يصبح الأمر عبارة عن إشارات موجزة وعابرة لبعض الصوَر البيانية وبالتالي لم تنل كلّ سوَر القرآن الكريم حظها من البحث والتحليل.

2- غِنى القرآن الكريم وتجدّد عطاءاته جعل المفسّرين واللغويين والبلاغيين يغوصون للبحث عن أسراره فتركوا لنا بذلك الأسفار الضخمة، لكن الصوَر البيانية كانت مبثوثة ومتناثرة في بطون هذه الأسفار على غرار كتابي البيان والتبيين للجاحظ، وكتابي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي...

فالصوَر البيانية المبثوثة هنا وهناك والممزوجة بالمسائل الكلامية والعقدية والفقهية في كتب الأوّلين بحاجة ماسّة إلى من ينقضها من هذا الركام ويخرجها من خبئها.

3- آثرت أن تقتصر دراستي على سورة واحدة من سور القرآن الكريم - وهي سورة القصص- حتى أجمع أمري و أتمكّن من تتبّع مواطن الإعجاز البياني فيها، فسورة القصص كبقيّة سوَر القرآن آيةٌ من آيات الإعجاز البياني للقرآن الكريم لِمَا احتوت عليه من بديع النظم والتعبير، وجمال العرض وقوّة الأداء.

ثالثا: الدراسات السابقة

لقد اهتمّ الكثير من الباحثين قديما وحديثا بدراسة الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وإن كانوا قد سمّوه بأسماء مختلفة، ومن أهم الدراسات التي أبدع فيها الأوائل نجد كتاب إعجاز القرآن للباقلاني، وكتابيْ دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني وتفسير الكشاف للزمخشري وغيرهم.

أما الدراسات الحديثة فنجد تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وفي ظلال القرآن ومشاهد القيامة والتصوير الفني لسيد قطب، النبأ العظيم لعبد الله دراز، كما يعدّ كتاب التفسير البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمان من أبرز الكتب في هذا المجال.

أما فيما يخصّ الرسائل الجامعية فقد تنّسى لي الاطّلاع على البعض منها الذي يدور في فلك الدراسات اللغوية والبيانية للقرآن الكريم كرسالة الماجستير الموسومة بـــ " الصوَر البيانية في سورة النور" أعدّها الطالب عبود حميودة، وقدّمها بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية للموسم الدراسي 2002م- 2003م، ورسالة الماجستير للطالب حاج سراي بعنوان " الإعجاز اللغوي في سورة هود - دراسة وصفية تحليلية-" قدّمها بجامعة الأمير عبد القادر للموسم 2003م- 2004م.

رابعا: أهداف البحث

إن غايتي الأساسية من خوض غمار البحث في مجال الإعجاز البياني للقرآن الكريم لا تكاد تخرج عن الغاية الأولى التي أفنى فيها علماؤنا السابقون أعمارهم، ألا وهي إبراز عظمة وجلال وبلاغة كلام رب العالمين وأنه يعلو ولا يُعلى عليه وأنه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ذلك هو الهدف الأساس الذي قصده علماؤنا الذين يَمّموا وجوههم شطر البحث في إعجاز القرآن، وهو الهدف نفسه الذي أصبوا إليه من خلال بحثي هذا، إلا أن هناك أهدافا أخرى رجوت تحقيقها في دراستي هذه يمكن حصرها في:

1- محاولة بيان أهمية الإعجاز البياني في سورة القصص من خلال الوقوف على جماليات ودقائق التعبير القرآني وكيف أنه خاطب حاسة الوجدان الدينية بلُغة الجمال الفنية.

2- محاولة تأكيد ثبوت المعجزة البيانية، وأنها باقية وخالدة خلود القرآن الكريم.

3- محاولة تدبّر آيات القرآن الكريم وأساليبها وطريقة العرض فيها ولو في سورة واحدة منه وهذا امتثالا لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:82].

4- إضافة دراسية علميّة أكاديمية على تواضعها إلى مكتبة القرآن الكريم، وبحث آخر يُضمّ إلى جهود الباحثين السابقين في هذا الميدان المبارك.

5- محاولة استقصاء مظاهر الإعجاز البياني في سورة كاملة من القرآن الكريم، وهو ما لم أجده فيما تسنّى لي الإطلاع عليه من دراسات وأبحاث حول موضوع الإعجاز البياني للقرآن، حيث كانت أغلب الدراسات تتمّ بطريقة انتقائية تجوب مختلف سوَر القرآن وتختار طرفا من آيْ الذكر الحكيم ابتغاء التحليل والدراسة.

وأظن أن دراسة سورة قرآنية دراسة بيانية كنصٍ متكامل تحقّق فائدة أكبر ويكون أدعى للفهم ولتقصّي مظاهر الإعجاز، كما أن الدراسات التي تناولت سورة كاملة اقتصر أصحابها على وجه واحد من وجوه الإعجاز، كأنْ يكتفي الباحث بدراسة أسلوب القصة، أو الجدل، أو غير ذلك من الأساليب.

خامسا: الإشكالية

إن إجماع البلاغيين قديما وحديثا من أن القرآن الكريم معجز في لغته وبلاغته وبيانه وأنه هيمن على ما سواه من الكلام العادي، وإن شمولية هذا النوع من الإعجاز كلّ سوَر القرآن يثير في النفس تساؤلات عدّة لعل أهمّها ما قيمة الإعجاز البياني في القرآن الكريم ؟ ولماذا خاطب القرآن الكريم حاسّة الدين بجمال البيان رغم أن القرآن الكريم كتاب هداية وليس كتاب فن؟.

وهل معرفة اللغة العربية وعِلم البلاغة والبيان شرط أساس لتدبّر هذا الكتاب ؟.

إن الإشكال المحوري الذي طُرح سابقا يُمكن إسقاطه على كلّ سورة من سور القرآن، وأنا في بحثي هذا اخترت سورة القصص نموذجا، كما يمكن أن يجرّ إلى طرح تساؤلات فرعية أهمها:

1- فيم تتجلّى قيمة الإعجاز البياني في سورة القصص وهل له علاقة فعلا بالجانب الديني ؟.

2- هل تحتوي هذه السورة على مظاهر الإعجاز البياني حقّا؟ وما هي الخصائص التي تميّز بها الأسلوب القرآني حتى بلغ درجة أعجزت أرباب الفصاحة وفرسان البيان؟.

3- هل الإعجاز البياني شامل لكل جزئيّات السورة انطلاقا من الحرف مرورا بالكلمة وانتهاء بالفاصلة أم هو خاص بعموم النص القرآني.

سادسا: أهم الصعوبات

بالرغم من توفّر المادة العلميّة في مجال الإعجاز البياني للقرآن الكريم إلا أنه وكما جرت العادة لكل باحث فقد واجهتني العديد من الصعوبات يمكن حصرها فيما يلي:

1- إن المادة العلمية مبثوثة ومتناثرة في كتب مختلفة ككتب التفسير والبلاغة واللغة مما يَصعُب استخراجها، ففي بعض الأحيان اضطرّ لقراءة مجلّد كامل ولا أظفر إلا ببعض الأسْطر المتناثرة التي تخدم موضوعي.

2- منهج القدامى تميز بشيء من التداخل في المواضيع في تأليفهم، فهم يتحدّثون في مسائل عدّة في موضوع واحد فقد نجد بعض المفسرين وهو يفسّر آية يتطرّق إلى مسائل كلامية وعقدية، ومسائل فقهية ومسائل بيانية ولغوية... الخ

الأمر الذي يؤدّي إلى ازدحام في المعلومات، ويصعب استخراج الصوَر البيانية من كل هذا الركام.

3- كنت أوَدّ أن تكون دراستي حول سورة القصص برواية ورش عن نافع هذه الرواية المقروء بها في الجزائر، لكن وللأسف الشديد كل المصادر التي اطّلعت عليها والتي تناولت السورة بالبحث سواءٌ كتب التفسير أم كتب البلاغة فإنها اعتمدت رواية حفص عن عاصم لذلك اعتمدت هذه الرواية في دراسة هذه سورة.

سابعا: منهج الدراسة وخطة البحث

نظرا للأهداف والمقاصد التي ابتغي تحقيقها في هذا البحث، وباعتبار الإشكالات والتساؤلات التي طرحتها ومحاولة للإجابة عنها رأيت أن وصْف الإعجاز البياني كظاهرة في القرآن الكريم- لا تخلوا منها سورة من سوره- حتميّة توجبها طبيعة البحث لذلك اعتمدت **المنهج الوصفي** في محاولة للتطرق لظاهرة الإعجاز البياني والحديث عن أهم مميزات الأسلوب القرآني في محاولة بيان معاني الأساليب البيانية الموجودة في السورة كالحوار والقصة والالتفات...

كما أن طبيعة هذه الدراسة حتّمت علي أن اتّبع **المنهج التحليلي** في محاولة الاستدلال بالنصوص القرآنية لآيات الإعجاز البياني وتحليلها والوقوف على جانب الجمال فيها.

وقد قسّمت هذا البحث إلى ثلاثة فصول يتقدمها مدخل وتذيّلها خاتمة، وجزّأتُ المدخل إلى قسمين: تحدّثت في الأول عن الدراسات البيانية نشأتها وتطوُّرها، والثاني كان تعريفا عامّا بالسورة.

كما جزّأت كلّ فصل من فصول البحث إلى ثلاثة مباحث، ثم شطَرت كلّ مبحث إلى مطلبين أو أكثر حسب ما تقتضيه كميّة المادة العلمية التي احتواها.

ولقد رأيت وجوب الانطلاق من الجزء إلى الكلّ في عمليّة البحث والتحليل، فتحدّثت في الفصل الأول عن الحروف ثم المفردات وأخيرا الفواصل، ثم في الفصل الثاني حاولت أن أحلّل أهم الأساليب التي جاءت في السورة فدرست أسلوب المحاورة، وعرّجت على القصة، وختمته بالالتفات، أما في الفصل الثالث فقد خصّصته للتعبير القرآني فتحدّثت عن تفرُّده في الأداء وقوّة عرضه مستدلا بما توفرت عليه سورة القصص من ميزات وخصائص.

وأما الخاتمة فقد ضمّنت فيها حوصلة البحث وأهم النتائج التي توصلت إليها.

وأما من الجانب الشكلي المنهجي فقد بذلت جهدي ليكون حسنا- وقد عزّ الكمال- وهذه أهم الطرق المنهجية التي اتبعتها في إخراجه:

1-بالنسبة للاقتباس من المصادر والمراجع: إن كان النقل حرفيّا أثبته بين شولتين، وإن كان النقل بالمعنى أثبته في المتن دون علامة التنصيص وأكتب في الهامش:(انظر...)

أما ثبت المصادر والمراجع في الهامش، فقد ارتضيت الطريقة الآتية والتزمتها:

أبدأ بعنوان الكتاب، فمؤلّفه، فمحقّقه إن وجد، فدار النشر وبلد النشر، فرقم الطبعة وتاريخها إن وجد، ثم الجزء والصفحة، هذا عند ذكر المرجع لأول مرّة، أما إن تكرّر ذِكره فأكتفي بذكر العنوان و المؤلّف أحيانا والجزء والصفحة.

2-بالنسبة للآيات القرآنية: أذكر السورة ورقمها مباشرة في المتن بعد الآية وهذا على رواية حفص عن عاصم.

أما أهمّ المراجع والمصادر التي اعتمدتها في هذا البحث وأمدتني بالمادة العلميّة النفيسة فمنها:

1-كتب الإعجاز: وبخاصة ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني، وإعجاز القرآن للباقلاني، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي.

2- كتب التفسير: وبخاصة التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور، وفي ظلال القرآن لسيد قطب.

3-كتب علوم القرآن: واعتمدت منها على: البرهان في علوم القرآن للزركشي، والإتقان في علوم القرآن للسيوطي.

كما أفدت كثيرا من كتابيْ سيد قطب: التصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن، وكتابيْ فاضل صالح السامرائي: التعبير القرآني، ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل، وكتاب النبأ العظيم لعبد الله درّاز.

ثامنا: شكر وعرفان

أتقدّم أوّلا بين يدي الكريم جلّ شأنه الذي قال: (وَلَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) [إبراهيم: 7] بالحمد والشكر التامَّين الأكملين الذين يليقان بمقامه العظيم على ما أسبغ به عليّ من فضله ونِعمه، والتي منها توفيقي لإتمام هذه الرسالة.

ثم أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الخالص إلى أستاذي المشرف الدكتور رابح دوب الذي أعانني على إخراج هذا البحث إلى الوجود، و لم يبخل علي بنصائحه القيّمة، فأسأل الله أن يجزيه عني خير الجزاء.

كما أشكر كلّ من ساعدني على إتمام هذا البحث، وصبر معي وقاسمني همّه، فاعترف بالفضل لأختيْ سميحة وسارة وأخي مراد معزي على مساعدتهم لي.

شكرَ الله لكلّ من أعان على هذا البحث – من قريب أوبعيد - وجعل ذلك في ميزان حسناته يوم القيامة.

ولله الحمد في الأولى والآخرة.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المدخـــــل

الدراسات البيانية النشأة والتطور

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الدراسات البيانية: النشأة والتطور

لقد أوْجد القرآن الكريم منذ نزوله حركة فكرية شاملة لدى العرب، ودَفَعهم إلى طريق البحث فيما جاءهم به من أساليب في التعبير والبيان سحرتْ الشعراء والبلغاء وأعجزتهم في الوقت نفسه، ولقد أوْجدت هذه الحركة الفكرية علوما وفنونا لم يكن للعرب عهْد بها، ولكن جميع هذه العلوم كانت تهدف إلى خدمة القرآن الكريم، وتحاول تَجْلية أسراره وسرِّ إعجازه، " وإذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب فمن الطبيعي أن يُصبح محورا لأهداف الفكر، وتأليف الأمَّة وينبوعا لكثير من جداول ثقافتها، وحافزا على العناية بكثير من فروع العِلْم التي يُمكن أن تُعين على فَهْم الكتاب وإدراك أسراره، والتاريخ يُحدِّثنا أنَّ هذا كان شأن القرآن من الثقافة العربية الإسلامية، وأنَّ دراسات القرآن كانت العامل الأكبر في العناية بتدوين اللغة، وجمع الشعر، ورواية الفصيح وبحث طرائق اللغة في التعبير، وأساليبها في البيان." (1)

ولعلَّ أشرف عِلْم اهتمَّ به الأوَّلون وتَبعهم فيه الآخِرون هو العِلْم الذي يهتمُّ بالإعجاز البياني للقرآن الكريم في محاولة لإدراك مَكْمن عظمته، وسرِّ إعجازه، وبلاغة أساليبه.

وخلال الأربعة عشر قرنا الماضية استفرغ العلماء من مفسّرين وبلاغيين ومتكلّمين جهدهم، وأَفْنوا أعمارهم في تتبُّع الأساليب وطرائق التعبير التي عَبَّر القرآن الكريم بها عن أغراضـــه، في محاولة منهم للوقوف على سرِّ وبلاغة أسلوبه، والتدليل على مَصدره الربانيِّ، وأنَّه فوق طاقة البشر.

وخلال هذه المدَّة مرَّ الدرس البياني للقرآن الكريم بمراحل عدَّة يمكن إجمالها فيما يلي:

المرحلة الأولى:

تعود الجذور الأولى لنشأة الدراسات البيانية إلى بدايات نزول الوحي، فقد كان الرسول – صلى الله عليه و سلم – يُبيِّن للنَّاس المناحي التشريعية، والبيانية في القرآن الكريم، " لقد نَزَل القرآن على محمد – صلى الله عليه وسلم – وهو أفصح الناطقين، وأبلغ القائلين ليتولَّى تفسيره، وتوضيحه امتثالا لقول ربه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44] فالرسول العربي المبين بفطرته الصافية، وسليقته الهادية يَعرف مكان الحسْن في البيان ومواضع الزلل في القول ... وإذا كان القرآن الكريم أرفع أنماط البلاغة العربية دون استثناء فقد تَعرَّض الرسول الكريم في تفسيره إيَّاه لتوضيح كثير من تشبيهاته، وكناياته، وذلك من البلاغة العِلْميّة في صميم الصميم." (2)

وإذا استعرضنا بعض الأحاديث الواردة في أسباب نزول بعض الآيات القرآنية ندرك هذا المعنى.

---

1) أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى آخر القرن الرابع هجري، زغلول سلام، دار المعارف، ط:3، ص10.

2) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، 1391 هـ- 1971 م، ص 11، 12.

" عن عَدِيٍّ بن حاتم- رضي الله عنه – قال: قلتُ يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود[1] ؟ أَهُما الخيطان؟ قال: إنَّك لعريض القفا إنْ أبصرت الخيْطيْن.ثمَّ قال: لا بلْ سواد الليل وبياض النهار."[2]

وذكر البخاري في صحيحه عن أبي هريرة – رضي الله عنه- أنَّ رسول الله – صلى الله عليه و سلم- قال: إنَّه ليَأتي الرجل العظيم يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة اقرؤوا إن شئتم (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا) [الكهف:105].[3]

ولمَّا نزل قول الله- عزَّ وجلَّ – : (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ) [الأنعام: 82] شَقَّ ذلك على المسلمين فقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يظلم نفسه فقال عليه الصلاة والسلام: ليس ذلك، وإنَّما هو الشرْك، ألمْ تسمعوا ما قال لقمان لابنه: (يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) [لقمان : 13].[4]

وعن البراء بن عازب أنَّ رسول الله – صلى الله عليه و سلم – قال : المسلم إذا سُئل في القبر يَشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدا رسول الله، فذلك قوله تعالى: (يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ) [إبراهيم: 27].[5]

وبعد وفاة الرسول – صلى الله عليه و سلم – تعاطى بعض الصحابة تفسير القليل من القرآن بناءً على ما سمعوه من المصطفى – صلى الله عليه و سلم –، وأشهر هؤلاء الخلفاء الراشدون، وأُبَيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن عباس، هذا الأخير الذي كان أكثر الصحابة تفسيرا للقرآن الكريم حتى لُقِّب بترجمان القرآن، وهو الذي دعا له الرسول – صلى الله عليه و سلم – بقوله: (اللهمَّ فقِّه في الدين و علِّمْه التأويل).[6]

" قد كان ابن عباس واسع المحفوظ من تراث العرب، و لم يَقتصر في الاستشهاد بأشعارهم المفسِّرة لألفاظ القرآن على الشعر الجاهلي... بل تعدَّاه إلى شِعْر المخضرمين، ورجال الصدر الأوّل من الإسلام لأنَّهم فصحاء ينتمون إلى عراقة الجاهلية بأصالتهم الصريحة... وقد كان ابن عباس عالما بالشعر يُخصِّص له يوما خاصًّا من أيام الأسبوع يتدارس أبياته ويُعلِّق على فرائده، ولا ريب أنَّ محفوظه الشعري كان بما يسعفه كل الإسعاف حين يتصدَّر إلى التفسير."[7]

وقد كان جُلُّ عمل هؤلاء الصحابة مقتصرا على بيان مُجْمل، أو تفصيل عامٍّ، أوتوضيح مُبهم.

---

1) يقصد قوله تعالى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ) [البقرة:187].

2) صحيح البخاري، أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم، دار الفكر، 1401هـ - 1981م، 5|156.

3) المصدر نفسه 5|236.

4) المصدر نفسه 5|193.

5) المصدر نفسه 5|210.

6) الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، دار المعرفة بيروت لبنان 2|227.

7) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 16،17.

أمَّا في عصر التابعين فقد اشتهر بالتفسير مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، والحسن البصري، وسعيد بن جبير وغيرهم، وقد سار هؤلاء التابعون على خُطى الصحابة في الاقتصار على ما نُقِل عن النبي– صلى الله عليه وسلم– في تفسير الآيات، وكلُّ ذلك كان خشيةً، وتحرُّجا من القول في كتاب الله بغير عِلْم، فقد سُئِل الإمام مالك بن أنس–رحمه الله– عن قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ) [الأعراف: 54] عن معنى الاستواء فقال: (الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة).[1]

وقال ابن سيرين سألت عُبَيْدة عن شيء من القرآن فقال: (اتَّق الله وعليك بالسداد فقد ذهب الذين يَعلمون فيم أُنزل القرآن).[2]

وهذا كله يدلُّ –إلى جانب تحرُّجهم من القول في كتاب الله بغير عِلْم– على مسِّ السِّحْر، وأمارت المفاجأة بهذا النسق الموجز إلى الحدِّ الذي أدهشهم فاستسلموا فأصبح الواحد منهم إذا سُئِل عن شيء من القرآن لا يَملك إلاَّ أن يقول لا أدري.

المرحلة الثانية:

مع مطلع القرن الثاني الهجري بدأ تفسير القرآن ينمو شيئا فشيئا، وظهر بعض العلماء الذين أفردوا تفسير آيات القرآن بالبحث، وجعلوه عِلْما بذاته وفسَّروه حسب ترتيب المصحف، ولعل أوَّل من اهتمَّ بالتفسير البياني في هذه الفترة أبو عبيدة (ت209هـ) في كتابه (مجاز القرآن) فقد اتَّجه فيه إلى تفسير القرآن معتمدا على أشعار العرب، وعلى طريقة العرب في الكلام " وتلك خطَّة انتهجها ابن عباس– رضي الله عنه– من قبلُ، وسار عليها أبو عبيدة حيث قال في مفتتح كتابه مجاز القرآن (قالوا إنَّما أُنزل القرآن بلسان عربي، ومصداق ذلك في آية من القرآن، وفي آية أخرى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ) فلم يَحْتجْ السلف ولا الذين أدركوا وحْيه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يسألوا عن معانيه، وعمَّا فيه ممَّا في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص، وفي القرآن مثلُ ما في كلام العرب من وجوه الإعراب ومن غريب المعاني). "[3]

لقد نهض أبو عبيدة بهذا العمل الجبَّار وكشف عن وجوه القول في العربية ومطابقتها لِما جاء في القرآن الكريم وضَمَّ ذلك في كتابه مجاز القرآن " والحقُّ أنَّ هذا الكتاب كان أقدم مؤلَّف عربيٍّ حفظه التراث خاصًّا بغريب القرآن، وقد انتفع به جلُّ من تناولوا تفسير القرآن من بعده حتى نابذوه العداء. " [4]

وقد اشتمل كتاب (مجاز القرآن) على عِلْم العربية في عصر أبي عبيدة، فقد ضَمَّ أفانين مختلفةً تدور حول مسائل النحو، والبلاغة، واللغة، وكلمات كالكناية، والتشبيه، والمثل، والاستعارة.

إنَّ أبا عبيدة قد " احتكم إلى لغة العرب في فهم النص، والاستئناس بالشاهد ثم انتفع مع ذلك بما تمخَّضت عنه

---

1) سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مكتبة الصفا، القاهرة، مصر، ط:1، 1424هـ- 2003م، 6 | 53.

2) أعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين بن أبي بكر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ط:1، 1422هـ-2001م، 1 | 35.

3) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 43.

4) المرجع نفسه ص63.

الحركة الثقافية من بحوث علمية مثمرة، فقدَّم مجازه حافلا بأطايب اللغة، والنحو، والبلاغة واستطاع بذلك أن يتقدَّم خطوة تالية في التفسير البياني. " [1]

وإذا اتّجهنا إلى علماء الكلام نجد الجاحظ (ت255 هـ) الذي يُعدُّ مُؤسّس علْم البلاغة حيث أفرد لها لأوّل مرَّة مساحات في كتابيْه (البيان والتبيين)، و(الحيوان) نثر فيهما كثيرا من ملاحظاته وملاحظات معاصريه، كما أنَّ كتابه (نَظْم القرآن) الذي لم يصل إلينا يُعدُّ النواة الأولى في تاريخ الدراسات البيانية للقرآن الكريم كما هو ظاهر من عنوانه.

وبنظرة فاحصة إلى الشواهد القرآنية المبثوثة في كتابيه (البيان والتبيين)، و(الحيوان) ندرك بأنَّه كان ينظر بعمق إلى ما يَشيع في جوِّ النص القرآني من تأمُّلات بعيدة المدى، و إيحاءات عظيمة الخطر في مجال الأسلوب القرآني لِمَا أوتي هذا العالم الأديب من مقدرة باهرة في البيان، وسعة الإطلاع، وغزارة المادة، ورهافة الذوق ونبض الحساسية، وقوَّة الإدراك.

يقول الرافعي في كتابه (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية): " فلمَّا فَشَت مقالة بعض المعتزلة بأنَّ فصاحة القرآن غير معجزة، وخيف أن يَلتبس ذلك على العامَّة بالتقليد والعادة، وعلى الحشوية من أهل الكلام الذين لا رسوخ لهم في اللغة، ولا سليقة لهم في الفصاحة، ولا عُرْفا لهم في البيان مسَّت الحاجة إلى بَسْط القول في فنون من فصاحته ونَظْمه، ووجْهُ تأليف الكلام فيه، فصنَّف أديبنا الجاحظ المتوفى سنة (255 هـ)كتابه (نَظْم القرآن) وهو فيما ارتقى إليه بحثنا أوَّل كتاب أفرد لبعض القول في الإعجاز أو فيما يُهيَّئ القول به." [2]

فالجاحظ –إذن– كان قد وُفِّق إلى حد كبير إلى إدراك بعض خصائص الأسلوب القرآني، وهو ما أسماه بالنَّظْم، فلقد فطِن إلى هذه الفكرة الجوهريَّة في أسلوب القرآن الكريم حيث قال: " وقد يَستْخفُّ الناس ألفاظا ويستعملونها وغيرُها أحقُّ بذلك منها، ألا ترى أنَّ الله تبارك وتعالى لم يَذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب، أو في موضع الفقر المدقع، والعجزِ الظاهرِ، والناس لا يَذكرون السغب ويَذكرون الجوع في حال القدرة و السلامة، وكذلك ذِكْر المطر لأنَّك لا تجد القرآن يَلْفظ به إلا في موضع الانتقام، والعامَّة وأكثر الخاصَّة لا يَفصلون بين ذِكر المطر، وذِكر الغيث، ولفْظُ القرآن الذي عليه نَزَل أنَّه إذا ذَكَر الأبصار لم يقل الأسماع ، وإذا ذَكَر سبع سموات لم يَقُل الأرضين، ألا تراه لا يجمع الأرض أرضين، والسمعَ أسماعا، والجاري على أفواه العامَّة غير ذلك لا يتفقَّدون من الألفاظ ما هو أحقُّ بالذِّكر، والأوْلى بالاستعمال، وقد زعم بعض القرَّاء أنَّه لم يجد ذكرَ لفْظ النكاح في القرآن إلا في موضع التزويج." [3]

فانظر إلى دقَّة الجاحظ وذوقه المتميِّز في التفريق بين معاني الألفاظ التي تبدوا متطابقة " لقد كان للألفاظ في إحساس الجاحظ أرواح تَثقل وتَخفُّ وتعلو وتهبط، وكتاب الله ميزانٌ دقيقٌ لهذه الخفَّة حين تروق في موضع

---

1) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 65.

2) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1421هـ- 2000م، ص54.

3) البيان والتبيين، الجاحظ عمرو بن بحر بن محبوب الكناني، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت لبنان،ط:4، 1|34، 35.

فتُذْكر " [1]

إنّ النظم عند الجاحظ هو عمليَّة فنيَّة ذات أبعاد صوتيَّة، ونفسيّة تتجاذب فيها المعاني والكلمات وتجيء هذه على قدر تلك لا تزيد ولا تنقص.

إنّ للكلمة القرآنية في نظر الجاحظ دلالةٌ مع صاحبتها في التركيب، فهي توحي بمعنى في فقرة غير ما توحي به في فقرة ثانية، فتجيء الآية من خلال هذا الاختيار الدقيق للألفاظ نموذجا هندسيّا يحفل بالفكرة العميقة، والمعنى البعيد، فيجيء اللفظ في الآية أو في الآيات إذا كان الموقف يتطلّبه، ولا يتطلّب غيره، ويفتقر إليه، ولا يفتقر لِمَا هو دونه، بحيث إذا حلّ غيره محلّه كان اللحن والخطأ.

المرحلة الثالثة:

كان كتاب (نَظْم القرآن) فاتحة خير في مجال الدرس البياني للقرآن الكريم، وكان المنتظر أن يكون الجانب البياني للقرآن الكريم هو أوّل ما يُعنى به الباحثون من لغويين وبلاغيين ومفسِّرين بَعْد الجاحظ ويوَّجهوا إليه جهودهم ليُظهروا الوجوه البيانية المختلفة منه، ولكنّ الذي حدث هو أنّ هؤلاء الباحثين جعلوا هذا الوجه المهمّ أحد الوجوه الكثيرة لإعجاز القرآن الكريم وليس هو أبرزها وأهمُّها، ومن ثمّ لم يَنل الدرس البياني للقرآن الكريم حظّه الأوفى من البحث والتمحيص في هذه المرحلة وتشعَّب بذلك البحث في مجال الإعجاز القرآن الكريم وتضخَّم ودخل فيه ما ليس منه، وأصبح مَرتعا ومجالا لمسائل لا تَمُتُّ إليه بِصلة.

يقول سيد قطب: " ثمّ أخذ التفسير ينمو ويتضخَّم ابتداء من أواخر القرن الثاني، ولكنْ بدلاً أن يَبحث عن الجمال الفني في القرآن أَخذ يغرق في مباحث فقهية، وجدلية، ونحوية، وصرفيّة، وخُلُقية، وفلسفية، وتاريخية، وأسطورية، وبذلك ضاعت الفرصة التي كانت مُهيَّأة للمفسرين لرسم صورة واضحة للجمال الفنيّ في القرآن."[2]

على أنَّه يُمكن أن نرصد كتابا، ورسالتين في القرن (4هـ) اهتمّ فيهم أصحابهم بالإعجاز البياني للقرآن الكريم:

1-النكت في إعجاز القرآن لعلي بن عيسى الرماني (ت 386 هـ): حيث بيَّن في هذه الرسالة وجوه الإعجاز المختلفة و جعلها سبعة : (ترك المعارضة مع وجود الدواعي، التحدي للكافّة، الصرفة، البلاغة، الإخبار على المستقبل، نقض العادة، قياسه بكلّ معجزة) ولكنّ الرماني ركّز في رسالته على الوجه الرابع وهو الجانب البلاغي للقرآن الكريم حيث يقول: " فأمَّا البلاغة فهي ثلاث طبقات، منها ما هو في أعلى طبقة، ومنها ما هو في أدنى طبقة، ومنها ما هو في الوسائط بين أعلى طبقة وأدنى طبقة، فما كان في أعلاها طبقة فهو مُعجز، وهو بلاغة القرآن، وما كان منها دون ذلك فهو مُمْكن كبلاغة البلغاء من الناس، وليست البلاغة إفهام المعنى...وإنّما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة اللفظ." [3]

---

1) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 81.

2) التصوير الفني، سيد قطب، دار الشروق، بيروت لبنان، ط:13، 1413هـ- 1993م، ص27.

3) النكت في إعجاز القرآن، علي بن عيسى الرماني، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد سالم زغلول، محمد خلف الله، دار المعارف. القاهرة، ط:4، ص75.

وقَسَّم الرماني البلاغة إلى عشرة أقسام: (الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف والتضمين والمبالغة وحُسْن البيان)، ويذهب الرماني في تفصيل القول في كلٍّ من هذه الأقسام العشرة مقارنا بين ما جاء في كلام العرب وما جاء به القرآن، وينتهي إلى ما بينهما من تفاوت في مستوى التعبير، وجمال التصوير وروعة الأداء.

لقد "جَمَعت هذه الرسالة القصيرة- النكت في إعجاز القرآن- كثيرا من ألوان الجمال في تعبير القرآن، وحُسْن تأليفه، وإحكام نظمه، وكَشفت عن روعة الأداء والتناسق فيما بين لفظه ومعناه، وتعمَّقت في مخاطبة القرآن للغرائز والشعور، وتصويره لخلجات النفس الإنسانية، وبكلمة مُجمَلة كانت دراسة فنيَّة عميقة تتعلّق بإعجاز الأسلوب القرآني، والبلاغة كَفَنَيْ من فنون القول، فقد جَمع فيها روْعة من قبله في نظرهم المنتثرة في تضاعيف كتبهم حول إعجاز النظم، وزاد ممَّا يدلُّ على رقّة ذوقه وحصافة عقله وبُعْد مرماه لِمَا وراء الصوَر البلاغية في القرآن الكريم من إثارة للحسِّ، ورسْمٍ للعواطف، وتشخيص للمعنى الذهني حتَّى ينبض في المرئيات. " (1)

لقد استشهد الرماني في رسالته بالعديد من الشواهد القرآنية وحلَّلها تحليلا رائعا " ولئن فات الرماني أن يفيض بما يشرق من النور، فقد أتاح لخلفائه أن يستريحوا لقوله في مكان مُطْمئن لا يرهقه عُسْر، إذ اعتمد أبو هلال وعبد القاهر وابن سنان وابن الأثير وابن رشيق على كثير من استشهاده، وأوسعوه تحليلا وتدليلا، كلٌّ حسب منحاه، فصار الرماني رأسا بارز بين ذوي البيان." (2)

2- بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان أحمد بن إبراهيم الخطابي (ت 388هـ):

تحدَّث الخطابي في رسالته هذه عن وجوه إعجاز القرآن ثمَّ تناول الوجه البلاغي منها، وأسهب الحديث عنه، كما أنَّه تقدَّم بالدرس البياني خطوة هامَّة عندما كشف عن وجه جديد من وجوه الإعجاز غَفل عنه الأوَّلون وهو صنيع القرآن بالقلوب وتأثيره في النفوس حيث يقول: " قلتُ في إعجاز القرآن وجهٌ آخر ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذُّ من آحادهم، وذلك هو صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس فإنَّك لا تَسمع كلاما غير القرآن، منظوما ولا منثورا إذا قَرَع السمع، خَلُص له القلب من اللذة والحلاوة ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تَستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور حتى إذا أخذَتْ حظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها من الوجيب، والقلق وتغشَّاها الخوف، والفرَق تَقشعرُّ منه الجلود وتزعج له القلوب، يحُول بين النفْس ومُضمراتها وعقائدها الراسخة." (3)

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يرى الخطابي " أنَّ الأسلوب الأدبي يَعتمد على ثلاثة أشياء لفْظٌ حاملٌ، ومعنى به قائم ورباط له ناظمٌ، فإذا تأمَّلت القرآن وجَدْتَ هذه الأمور منه في غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئا

---

1) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر، ص 83، 84.

2) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 129.

3) بيان إعجاز القرآن، أحمد إبراهيم الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز، تحقيق محمد سالم زغلول، محمد خلف الله، دار المعارف القاهرة، ط:4، ص70.

من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه... فَتَفَهَّمْ ألآن واعلم أنَّ القرآن إنَّما صار معجزا لأنَّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مُضمنًا أصحَّ المعاني." [1]

ويشير الخطابي إلى مفهوم النظم فيقول: " أمَّا رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنَّها لجام الألفاظ، وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتئم بعضه فوق بعض فتقوم له صورة في النفس يتشكَّل بها البيان. " [2]

إنَّ هذا الكلام يُحدِّد بعض معالم نظريَّة النظْمِ التي جاء بها عبد القاهر الجرجاني فيما بعد في كتابه (دلائل الإعجاز)، ويَجمع أشتاتا من أقوال الجاحظ المتفرِّقة ومن تلاه حتى ألَّف الخطابي رسالته (بيان إعجاز القرآن).

لقد انتفع الخطابي انتفاعا بارزا بآراء سابقيه، وتصدَّى إلى تحليل نصوصٍ قرآنية تحليلا رائعا في رسالته أفاد بها لاحقيه.

3-إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ):

في كتابه هذا ردَّ الباقلاني على الطاعنين في أسلوب القرآن الكريم القائلين بالصرفة وبَيَّن أن الأجدر بالباحثين " أنْ يبسطوا القول في الإبانة عن وجه معجزته والدلالة على مكانه، فهو أحقُّ بكثير ممَّا صنَّفوا فيه من القول في الجُزْء والطفْرة ودقيق الكلام في الأعراض وكثير من بديع الإعراب، وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمسُّ والاشتغال به واجب. " [3]

لقد أرجع الباقلاني إعجاز القرآن الكريم إلى ثلاثة وجوه هي:

- حديثه عن الأخبار الغيبيَّة، والنبوءة بأحداث تقع في المستقبل.
- حديثه عن الأمم السابقة وتفصيل ذلك.
- بديع نَظْمه وعجيب تأليفه وتناهيه في البلاغة.

حيث يقول في شأن نظم القرآن: " أمَّا شأن نظم القرآن فليس له مثل يُحتذى عليه ولا إمامٌ يُقتدي به ولا يصحُّ وقوع مثله اتفاقا." [4]

كما يقول كذلك: " إنَّه بديع النظم، عجيب التأليف، متناهٍ في البلاغة إلى الحدِّ الذي يُعلم عجز الخلق عنه" [5]

لقد تمكَّن الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن) أن يضيف دلالات، وأفكار جديدة حول قضية نظم القرآن باعتباره عملا فنيًّا واحدا " إنَّه أطنب في ذكر المعاني الثانية التي يستدعيها النظم في النسق القرآني كلِّه، وكرَّرها في أكثر من مناسبة، وكان مولعا بها أمام كل نصٍّ من كتاب الله، فإذا جاء دور التفصيل وذِكر هذه المعاني

---

1) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 132، 133.

2) بيان إعجاز القرآن، أحمد إبراهيم الخطابي، ص 33.

3) إعجاز القرآن، محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، ط:1، 1411هـ - 1991م، ص 5.

4) المرجع نفسه ص 112.

5) المرجع نفسه ص 51.

وراء آية أو لفظٍ أشعرَك أنَّه قادر على ذِكر أشياء عجيبة من خلالها. " [1]

كما أنَّه من المهمِّ أن نقف عند اتجاه الباقلاني الصائب في تحليل بعض السوَر القرآنية -الطويلة نسبيًّا- تحليلا رائعا، كما صنع بسورتيْ غافر، والنمل وأجزاء من سورة فصلت، إذْ أخذ يَعرض آيات السورة الواحدة مُتنقِّلا بين معانيها محاولا الربط بين أجزائها، وهو اتجاه شامل يتعدَّى الكلمة في الآية، والآية في الآيات إلى بناء السورة جميعها، حيث يُمْكن أن تنهض عملا أدبيًّا مستقلا في ذاته.

يقول الدكتور محمد زغلول السلام: " مِن أهمِّ ما يَسترعي النظر في منهج الباقلاني لدراسته إعجاز القرآن اعتبار الوحدة الفنية التي تتضمن موضوعا واحدا، و يَظهر هذا من تناوله بالتحليل سورة بتمامها يتدرَّج فيها ليُظهر ما تنطوي عليه من خصائص النظم لا تَقتصر على مجرَّد روعة استعارة أو بلاغة تشبيه يَرِد في آية أو عبارة قصيرة، وإنما إعجازه مُنْصب عليْه جملة لا تفصيلا، فالسورة – لا الآية – أصغر وحدة فنيَّة في القرآن يُمْكن الحُكْم عليها بإعجاز النظم أوالبلاغة وروعة البيان لأنَّها يُمْكن أن تتوفَّر لها شروط الإعجاز السليمة، وبذلك يكون[الباقلاني] قد خرج عن منهج السابقين وآرائهم ودراساتهم إذ اعتبروا الآية أو العبارة أو البيت الشعري أساسا لبحوثهم النقدية." [2]

إنَّ الملاحَظ في هذه المرحلة أنَّ الدراسات البيانية للقرآن الكريم كانت جانبا من الجوانب التي درسها علماء البلاغة واللغة والتفسير إضافة إلى جوانب أخرى، ولكنَّه لم يكن الجانب الأهمَّ بالنسبة إليهم ومن ثمَّ لم يَحْظ بالاهتمام اللائق به وفي كثير من الأحيان كانت الجوانب الأخرى تطغى عليه وتزاحمه.

كما أنَّ الباحثين في هذه المرحلة كانوا يتحدَّثون عن الإعجاز البياني والبلاغي للقرآن الكريم، ولكنَّهم لم يستطيعوا تحديده تحديدا دقيقا، قال الإمام الخطابي: " ووجدْتُ عامَّة أهل هذه المقالة قد جَدُّوا في تسليم هذه الصفة للقرآن الكريم على نوع من التقليد وضرْب من غلبة الظنِّ دون التحقيق له، وإحاطة العلم به ولذلك صاروا إذا سُئلوا عن تحديد هذه البلاغة التي اختصَّ بها القرآن وعن المعنى الذي تميَّز به عن سائر أنواع الكلام الموصوف بالبلاغة قالوا لا يُمْكننا تصويره، ولا تحديده بأمر ظاهر نَعلم به مباينة القرآن غيره من الكلام وإنَّما يَعْرفه العالمون به عند سماعه ضرْبا من المعرفة لا يُمْكن تحديده. " [3]

وقد يكون لهؤلاء الباحثين عذرُهم " فقد يوجد لبعض الكلام عذوبة في السمع، وهشاشة في النفس لا توجد مثلُها لغيره... ثمَّ لا يوقف لشيء من ذلك على علَّة. " [4] ويَظهر له أثر في نفوسهم ولكن يَخفى عنهم الشيء المؤثِّر على عقولهم وتَعجز ألسنتهم عن وصفه.

لكن الحق يجب أن يقال لقد فتح دارسوا الإعجاز القرآني في هذه المرحلة كُوَى مضيئة بعثت بشعاع من نور

---

1) بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، فتحي أحمد عامر، ص 137.

2) أثر القرآن في تطور النقد، محمد زغلول سلام، ص 272.

3) بيان إعجاز القرآن، أحمد إبراهيم الخطابي، ص 24.

4) المرجع نفسه ص 7.

في حقل التفسير البياني اليانع، وساعدت على ازدهاره، وظهرت ثماره في جيل المرحلة الرابعة.

المرحلة الرابعة:

وتُعَدُّ مرحلة التحوُّل والنهوض الحقيقي بالدرس البياني، ويعود الفضل الكبير إلى هذه الثورة في مجال الدرس البياني إلى العالم الكبير عبد القاهر الجرجاني (ت471 هـ) ونظريته نَظْم القرآن، حيث نجد عبد القاهر الذي اطَّلع على ما كتبه أسلافه حول قضية إعجاز القرآن الكريم، وانتقى منه ما يساعده على إبراز فكرته – نظم القرآن– وناقش بقيَّة العناصر والوجوه الذي تحدَّثوا عنها واعتبروها من وجوه إعجاز القرآن الكريم، وبَيَّن أنَّ هذه العناصر لا تَصلح من الناحية البلاغية أن تكون تفسيرا لإعجاز القرآني، وانتهى من مناقشاته تلك إلى اكتشاف نظرية جديدة يدور حولها إعجاز القرآن الكريم هي نظرية النظم حيث يقول: " واعلم أنْ ليس النظم إلاَّ أنْ تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتَعرف مناهجه التي نُهجت فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رُسمت فلا تُخلُّ بشيء منها. " [1]

ويقول في موضع آخر من كتابه (دلائل الإعجاز): " هذا وأمْرُ النظم في أنَّه ليس شيئا غير توخِّي معاني النحو فيما بين الكلِم، وأنَّك ترتِّب المعاني أوَّلاً في نفْسك ثمَّ تحذو على ترتيبها الألفاظُ في نطقك. "[2]

فالنظم إذن في مفهوم عبد القاهر يجري في دائرتين:

الدائرة الأولى: تجري فيها الألفاظ في دائرة الصحة اللفظية وهي التي من دونها لا يستقيم الكلام فلا بد من مراعاتها.

الدائرة الثانية: وهي دائرة التخيِّير والمزايا والفضائل أنْ تُخرج الألفاظ من دائرة الصحة إلى دائرة التخيير وكيف تنتقي الألفاظ وكيف تُفضِّل لفظة عن لفظة أخرى.

لقد تَمكَّن عبد القاهر بتفكيره العميق وذوقه البلاغي الرفيع أن يعطي تفسيرا عِلْميا وتعريفا دقيقا لنظرية النظم، هذه النظرية التي حاول العلماء قبل عبد القاهر أن يضعوا لها تعريفا دقيقا، ولكن لم تكن محاولاتهم تلك إلاَّ دنْدنات حول هذه النظرية، و لم يتوصَّلوا إلى حقيقتها، و لم ينفذوا إلى جوهرها.

"إنَّ عبد القاهر هو أوَّل من فسَّر هذه النظرية –نظرية النظم– تفسيرا عِلْميا قائما على أُسس قويَّة من المنطق و التفكير ثمَّ تجاوزها إلى ما وراءها من المعاني الثانية وسمَّاها معنى المعنى، وهو يعني بالمعنى المفهومُ من ظاهر اللفظ والذي تصل إليه بغير واسطة، و بمعنى المعنى أن تَعقل من اللفظ معنى ثمَّ يُفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر."[3]

وبهذه النظرية العلميَّة الجديدة يكون عبد القاهر قد طَرح وألْقى بالكثير من المباحث التي أُقحمت في الإعجاز القرآني قبله، ووضع الأُسُس العِلميَّة الصحيحة التي على ضوئها يُفهم الإعجاز البياني للقرآن الكريم.

---

1) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: 2، 1410 هـ - 1989م، ص55.

2) المرجع نفسه، ص 284.

3) بلاغة القرآن بين الفن و التاريخ، فتحي أحمد عامر، ص 143.

قد عُدَّت نظرية النظم التي ضمَّها كتاب عبد القاهر الجرجاني (دلائل الإعجاز) نقطةَ تحوُّل حاسمة في الدرس البياني، ولكنَّ الغريب أنَّ عبد القاهر الذي عنْون كتابه (دلائل الإعجاز) أيْ الأدلَّة على إعجاز القرآن الكريم لم يُطبِّق نظريته على النص القرآني، فهو يأخذ النماذج التي حلَّلها من الشعر، وفصيح كلام العرب، حتى إنَّه لم يَذكر أكثر من مائة آية في كتابه (دلائل الإعجاز)، بينما بلَغ عدد الشواهد الشعرية ألف بيت.

" ولكن ما نسجِّله على الرجل أنَّه في دلائل الإعجاز لم يُكثر من الشواهد القرآنية إكثارا يُعضِّد به ما يعرض من قضية النظم القرآني، إذ طغى الاستشهاد بالشعر وغيره على ما يجب أن يكون الموضع الأوَّل في الاعتبار، إذ المجال مجال القرآن، وإذا كان المؤلِّف يعرض أنماطا من الأدب العربي لتوضيح ما يعنيه من دلائل الإعجاز فليس لهذه الأنماط أن تربوا وتزيد حتى تصبح الاستشهادات القرآنية بإزائها ذات حيِّز قليل. " (1)

إنَّ الجهد المتفرِّد والنجاح الباهر الذي حقَّقه عبد القاهر في كتابه (دلائل الإعجاز) على الرغم أنَّه لم يُطبِّق نظريته على النص القرآني كاملا فتح الطريق أمام عالم آخر جليل هو محمود جار الله الزمخشري (ت 538هـ) الذي استطاع أن يَسُدَّ الخلل الذي تركه عبد القاهر، فطبَّق نظرية النظم تطبيقا دقيقا على النص القرآني بأكمله وأفرغ عصارة جهده في تفسير القيم: (الكشَّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

" لقد تولَّى الزمخشري تفصيل قضية النظم في تفسيره الكشاف، فوقف عند آيات الذِّكْر الحكيم جميعها آية آية ليُبيِّن ما يتعلَّق بكلِّ نص قرآني من مسائل المعاني والبيان. " (2)

يُعدُّ الزمخشري بحقٍّ رائد الدراسات البيانية المنظَّمة على النص القرآني، فتفسيره كان طرازا فريدا فهو " تفسيرٌ لم يُسبق مؤلِّفه إليه لِمَا أبان فيه من وجوه الإعجاز من غير ما آية من القرآن، ولِمَا أظهر فيه من جمال القرآن وسِحر بلاغته، ولِمَا برع فيه بكثير من العلوم لاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب و المعرفة بأشعارهم، وما امتاز به في الإحاطة بعلوم البلاغة والبيان والإعراب والأدب، ولقد أضفى هذا النبوغ العِلمي على تفسير الكشاف ثوبا جميلا لَفَت إليه أنظار العلماء وعلَّق به قلوب المفسرين." (3)

لقد أحسن الزمخشري تطبيق نظرية النظم على القرآن الكريم في تفسيره الكشاف فكشف لنا عن عظمة و بلاغة الأسلوب القرآني " وليس عجيب أن يكون الكشاف كذلك أوَّل كتاب في التفسير كشف لنا عن سرِّ بلاغة القرآن وأبان لنا عن وجوه إعجازه، وأوضح لنا عن دقَّة المعنى الذي يُفهم من التركيب اللفظي كل هذا في قالب أدبي رائع، وصوْغ إنشائي بديع، لا يتَّفق لغير الزمخشري إمام اللغة وسلطان المفسرين. " (4)

وهكذا أصبح الكشاف عمدة التفاسير البيانية للقرآن الكريم ينهل منه الناس على اختلاف مذاهبهم، ويَرجعون إليه نظرا لطريقته المتميزة في الغوص في دقيق معاني الكلمات و إبرازها بطريقة علميَّة، فأقبلوا عليه درسا وشرحا

---

1) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 227.

2) المرجع نفسه ص 233.

3) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط:2، 1396هـ- 1976م، 1| 433.

4) المرجع نفسه 1| 442.

وبنوا عليه معظم بحوثهم في الدراسات القرآنية، ولا يكاد يخلو تفسير أو تأليف جاء بعد الكشاف إلا أفاد من هذا الأخير.

يقول المرحوم الطاهر بن عاشور عن تفسير الكشاف " عُمدة الناس على اختلافهم بيْن مُشايع له ومخالف، وعلى وفرة مخالفيه وانقطاع مشايعيه فَهُم يَرجعون إليه على أنَّه نسيج وحده في طريقته البلاغية الإعجازية وفي غوصه على دقائق المعاني، وحسن إبرازها على طريقة عِلْمية صائغة بتحليل التركيب، وإبراز خصائصه و اعتباراته." (1)

وعلى هذا يُمْكن القول إنَّ الدراسات البيانية للقرآن الكريم قد ازدهرت في هذه المرحلة على يد العالميْن عبد القاهر، والزمخشري، فالأوَّل قدَّم نظرية عِلميَّة فاحصة يُمْكن من خلالها تفسير الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وتذوُّق جمال أسلوبه في الوقت نفسه، وقام الآخر بتطبيق هذه النظرية تطبيقا رائعا على النص القرآني فأخرج بعض الكنوز البيانية المخبوءة فيه.

ولكنَّ المؤسف أنَّ تلك النظرية التي وضعها عبد القاهر الجرجاني، وطبّقها الزمخشري لم يُكتب لها النماء والاستمرار في القرون التي تَلتهما، فبدَل أن تنمو وتزدهر على أيدي البلاغيين والمفسرين الذين جاءوا من بعدهم توقفت وتراجعت" وكأنَّما كانت هاتان العبقريتان (عبد القاهر الجرجاني، الزمخشري) إيذانا بأنْ تستوي النظريتان في مَثَلٍ أعلى وهو مَثَلٌ صوَّراه أبدع تصوير، فإذا العصور التالية تُفْتن به فتنة شديدة، وإذا هي لا تستطيع أن تضيف إليه شيئا ذا بال إلاَّ أن تعمد إلى درسهما، وإلاَّ أن تتقيَّد بما قالاه وأحكماه، مما دفع بقواعد النظريتين جميعا إلى أن تصبح قواعد جامدة." (2)

وهكذا فَقَدَ التفسير البياني للقرآن الكريم روحه بعد أن فقدت البلاغة حيويَّتها بصبِّها في قوالب جامدة، "غير أن الخَطْب لم يَعُمَّ الحقل البياني قاطبة على نحو يُفزع ويروِّع، فقد وُجد من رجال البيان من جافوا طريقة الرازي والسكاكي في أكثر ما تعاطوه من البحوث البلاغية...كابن الأثير (ت637 هـ) صاحب كتاب (المثل السائر)، وابن أبي الأصبع (ت654 هـ) صاحب كتاب (بديع القرآن)." (3)

واستمرَّ الحال هكذا حتى القرن العشرين أين قيَّض الله مجموعة من الباحثين الذين أماطوا اللثام من جديد على الدرس البياني، وأعطوه نفسا عِلميا جديدا.

المرحلة الخامسة:

وهي مرحلةٌ متقدّمة ومهمَّة في مجال الدرس البياني، تميَّزت بالتذوُّق العِلمي والتحليل الدقيق للبيان القرآني بعد أن كان في المراحل السابقة يَخضع للتذوُّق الفطري في أغلبه ، ويُعدُّ سيد قطب من أبرز الباحثين في مجال الدراسات البيانية من خلال تفسيره (في ظلال القرآن) وكتابيه (مشاهد القيامة في القرآن)، و(التصوير الفني في القرآن).

---

1) التفسير و رجاله، الطاهر بن عاشور ص 58.

2) البلاغة تطور و تاريخ، شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط:8، 1990م، ص271.

3) خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، ص 260.

كما تُعدُّ الدكتورة عائشة عبد الرحمان بنت الشاطئ من أبرز الباحثين أيضا الذين أضْفوا الصبغة العلمية والتحليل العميق على الدرس البياني للقرآن الكريم من خلال كتابها (التفسير البياني للقرآن الكريم).

1- سيد قطب(ت 1966م): نظرية التصوير الفني

من الباحثين المعاصرين الذين حرّكوا عَجَلة الدراسات البيانية للقرآن، وأعادوا بعث الحياة فيها الأستاذ سيِّد قطب من خلال تفسيره في (ظلال القرآن) و كتابيْه (التصوير الفني في القرآن) و(مشاهد القيامة في القرآن).

لقد نظَر سيِّد قطب وهو طفل صغير إلى القرآن الكريم، واستمع إليه فأحسَّ بجمالٍ وروعةٍ في هذا النص العجيب على الرغم أنَّه لم يكن يَفهم الكثير من معانيه، ولَمَّا كبر و اطَّلع في كتب التفسير المختلفة لم يَجد شيئا من تلك المتعة، وذلك الجمال للأسلوب القرآني الذي كان يَجده وهو صغير، ولقد أحسَّ بفطرته السليمة وذوقه الأدبي الرفيع أنَّها جناية الطريقة المتَّبعة في التفسير، والتي جَعلت القرآن صعبا لا يُفهم ولا يُتذوَّق جماله فبدأ البحث في القرآن من جديد معتمدا على المصحف وحده لعله يجد سرَّ و مَنبع السحر الذي سَحره وهو طفل صغير وسَحر العرب قبله قبل أربعة عشر قرنا خلت.

بدأ سيِّد في البحث عن صُوَر القرآن البيانية ليُبيِّن القدرة الإلهية التي تُصوِّر بالألفاظ المجرَّدة ما تَعجز عن تصويره الريشة الملوَّنة، والعدسة المشخِّصة، ولَمَّا أتمَّ سيد جمْع الصوَر البيانية من النصوص القرآنية إذْ به يَكتشف أنَّ التصوير الفنيَّ هو القاعدة العامَّة التي استعملها القرآن الكريم في التعبير عن أغراضه حيث يقول: "إنَّ التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتَّبعة في جميع الأغراض فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال فليس البحث فيه إذن عن صُوَر تُجمع و تُرتَّب ولكن عن قاعدة تُكشف و تُبرز. " (1)

إنَّ سيِّدا بدأ البحث في آيات القرآن الكريم عن الصوَر البيانية فإذا به يَكتشف أنَّ التصوير هو القاعدة العامَّة للتعبير القرآني، ولقد أصبحت هذه الفكرة- فكرة التصوير- نظرية في النقد الأدبي الحديث، ولقد لخَّص سيِّد أصول هذه النظرية فقال: " التصوير هو الأداة المفضَّلة في أسلوب القرآن فهو يُعبِّر بالصورة المُحَسَّة المتخيَّلة عن المعنى الذهني، والحالة النفسية، وعن الحادث المحسوس، والمشهد المنظور، وعن النموذج الإنساني، والطبيعة البشرية، ثمَّ يرتقي بالصورة التي يرسمها فيمنحها الحياة الشاخصة، والحركة المتجدِّدة، فإذا المعنى الذهني هيئة أو حركة، وإذا الحالة النفسية لوحة أو مشهد، وإذا النموذج الإنساني حيٌّ، وإذا الطبيعة البشرية مُجسَّمة مرئيَّة، فأمَّا الحوادث والمشاهد والقصص والمناظر فيَرُدُّها شاخصة حاضرة فيها الحياة، وفيها الحركة فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل، فما يكاد يَبدأ العرْض حتى يُخيِّل المستمعين نظَّارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول الذي وقعت فيه الحادثة، أو ستقع حيث تتوالى المناظر، وتتجدَّد الحركات و يَنسى المستمع أنَّ هذا كلام يُتلى، ومَثَلٌ يُضرب، ويَتخيَّل أنَّه منظر يُعرض، وحادث يقع فهذه شُخوص تروح على المسرح و تغدو، وهذه سمَات الانفعال بشتَّ الوجْدانات المنبعثة من الموقف المتساوقة مع الحوادث،

---

1) التصوير الفني، سيد قطب، ص9.

وهذه الكلمات تتحرَّك بها الألسنة فتَنِمُّ عن الأحاسيس المضمرة إنَّها الحياة هنا وليست حكاية الحياة." [1]

من خلال النص السابق يُمْكن فَهْمُ ماذا كان يعني سيِّد بقوله إنَّ التصوير هو القاعدة الأساسية في أسلوب القرآن، حيث إنَّ التعبير القرآني يُعبِّر عن المعاني الذهنية، والحالات النفسية، وعن الحوادث المحسوسة، والمشاهد الإنسانية بصورة مُتخيَّلة تَمْثل أمام قارئ القرآن الكريم كمرحلة أولى، والعجيب في هذه المرحلة أنَّ آلة التصوير هي كلماتٌ وليست آلات، ثمَّ يَرتقي الأسلوب القرآني بهذه الصوَر التي رسمتها الكلمات و يمنحها الحياة والحركة كمرحلة ثانية، ثمَّ يَختم العمليَّة بإضافة عنصر الحوار على المشهد كلِّه فتستوي كلُّ عناصر التخييل.

هكذا استطاع سيِّد قطب بفطرته السليمة، وذوْقه الفنِّ الأدبي الرفيع أن يُجَلِّي بعض خصائص الأسلوب القرآني، وطريقة تعبيره، فقد نظر – رحمه الله تعالى- إلى النص القرآني نظرة متكاملة على عكس الدارسين السابقين الذين كانت نظراتهم في كتاب الله جزئيَّة تتناول الآية الكريمة بمعزل عن السياق العامِّ للنص القرآني.

2- عائشة عبد الرحمان (بنت الشاطئ) ت 1998م:

تُعدُّ الدكتورة عائشة عبد الرحمان من أبرز باحثي القرن العشرين في مجال الدراسات البيانية للقرآن الكريم، فقد قَدَّمت الشيء الكثير في ميدان الدرس البياني، ووهبت حياتها كلَّها خدمةً للنص القرآني، حيث تَولَّت التدريس في العديد من الجامعات أين جعلت النص القرآني موضوع بحثها، وموضوع محاضراتها التي كانت تُلقيها على طُلاَّبها، وقد قامت بإفراغ جهدها، وعصارة بحثها في مجال البيان القرآني في كتابها (التفسير البياني للقرآن).

تتحدَّث بنت الشاطئ في مقدِّمة كتابها (التفسير البياني للقرآن) عن سبب اهتمامها بالنص القرآني، وتعيب على كثير من الأساتذة قبلها اشتغالهم في الدرس الأدبي بدواوين الشعر، ونثر الكتب المشهورة، وإهمالهم للنص القرآني حيث تقول: " وشُغِلنا نحن أصحاب الدرس الأدبي أوشُغِلت الجمهرة منَّا بالمعلَّقات، والنقائض، والمفضليات، ومشهورالخمريات، والحماسيَّات، والمراثي، والمدائح، والغزليات، ومأثورالرسائل، والأمالي، والمقامات، وشُغِلنا بهذا ومثله عن القرآن الكريم الذي لا جدال فيه في أنَّه كتاب العربية الأكبر ...

ونحن في الجامعة نَترك هذا الكنز الغالي لدرس التفسير، وقَلَّ فينا من حاول أن يَنقله إلى مجال الدراسات العربية التي قَصَرْناها على دواوين الشعر، ونثر مشهور الكتب." [2]

اهتمَّت الدكتورة بنت الشاطئ بالنص القرآني بحثا وتحليلا، واتَّبعت في ذلك المنهج الاستقرائي، حيث تقُوم باستقراء اللفظ القرآني في كلِّ موْضع وردَ فيه، للوصول إلي دلالته، كما تقوم بجمع كلِّ الآيات و السوَر التي لها علاقة بالموضوع المدروس، وتَعرض الظاهرة الأسلوبية على كلِّ نظائرها في الكتاب المحْكم وتتدبَّر سياقها الخاص في الآية والسورة، ثمَّ سياقها العامِّ في المصحف التماسا لسرِّها البياني ثمَّ تَعرض على الظاهرة أقوالَ المفسِّرين فتَقْبل منها ما يَقْبله النص، وتُبعد الإسرائيليات، وشوائب الأهواء المذهبية، وبدع التأويل مع استعانتها بما ثبت

---

1) التصوير الفني، سيد قطب، ص36

2) التفسير البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمان، دار المعارف، القاهرة، ط:6، 1397هـ-1977م، 1| 13.

من أسباب النزول، ومراعاة ترتيب النزول لفهْم السياق العام للآيات ودلالتها. [1]

تعترف بنت الشاطئ بأنّ فكرة دراسة القرآن دراسة بيانيَّة منهجية بعيدة عن النمط التقليدي تعود إلى الأستاذ أمين الخولي حيث تقول: " وكان المنهج المتَّبع في درس التفسير- إلى نحو ربع قرن من الزمان -تقليدا أثريًّا، لايتجاوز فَهْم النص القرآني على نحو ما كان يفعله المفسّرون من قديمٍ حتى جاء شيخنا الإمام الأستاذ أمين الخولي فخرج به عن ذلك النمط التقليدي، وتناوله نصًّا لغويا بيانيا على منهجٍ أصَّله، وتلقَّاه عنه تلامذته وأنا منهم." [2]

طبَّقت الدكتورة بنت الشاطئ منهجها الجديد على بعض قصار سوَر القرآن الكريم، وأكثرها من السوَر المكيَّة أين يُلحظ فيها وحدة الموضوع، فاستطاعت بحسِّها المرهف، وبذوْقها الرفيع أن تُبيِّن روعة وجمال الأسلوب القرآني، كما بيَّنت الفرْق بين الطريقة التقليدية المعهودة في التفسير، والمنهج الاستقرائي الجديد. وهكذا استطاعت الدراسات البيانية للقرآن الكريم التي بدأت بفكرة النظم ثمّ تطورت شيئا فشيئا أن تأخذ مكانها بين العلوم الشرعية التي تُعنى بالنص القرآني دراسة وبحثا.

فالدراسات البيانية للقرآن الكريم إذن ما هي إلاّ خلاصة تطبيق اللغة، والأدب، والبلاغة، والنحو، والصرف وفِقه اللغة على النص القرآني.

---

1) انظر التفسير البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمان، ص10 وما بعدها.

2) المرجع نفسه ص13 .

بين يـــدي الســـورة

1-التسمية: سُمِّيَت السورة بسورة القصص، ولا يُعرف لها اسم آخر، ووجه التسمية بذلك وقوع اللفظ (القصص) فيها عند قوله تعالى: (فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ).

فالقصص الذي أُضيفت إليه سورة القصص هو قصص موسى- عليه السلام- الذي قصَّه على شعيب - عليه السلام- فيما لقيَه في مصر قبل خروجه منها، فلمَّا حُكِي في السورة ما قصَّه موسى- عليه السلام- كانت هاته السورة ذات قصصٍ لحكاية قصصٍ، فكان القصص متوغِّلا فيها، وجاء لفْظ القصص* في سورة يوسف ولكنَّ سورة يوسف نزلت بعد هذه السورة. (1)

2-مكيُّها ومدنيُّها: قال شهاب الدين الألوسي في تفسيره روح المعاني: " مكيَّة كلُّها على ما رُوي عن الحسن، وعطاء، وطاووس، وعكرمة، وقال مقاتل فيها من المدني قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِه) إلى قوله (لاَنَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)، فقد أخرج الطبراني عن ابن عباس– رضي الله تعالى عنهما- أنَّها نزلت هي وآخر الحديد في أصحاب النجاشي الذين قدموا وشهدوا واقعة أحد.

وفي رواية عنه – رضي الله عنه- أنَّ الآية المذكورة نزلت بالجحفة في خروجه – عليه الصلاة والسلام- للهجرة وقيل نزلت بين مكة والجحفة." (2)

وقال محمد الطاهر بن عاشور: " وهي مكيَّة في قول جمهور التابعين، وفيها آية (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) قيل نزلت على النبي – صلى الله عليه وسلم- في الجحفة في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده، وهذا لا يؤكد أنَّها مكيَّة لأن المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبي– صلى الله عليه وسلم- بالمدينة كما أن المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان نزوله بمكة.

وعن مقاتل وابن عباس أن قوله تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) إلى قوله: (سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ لاَ نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ) نزل بالمدينة." (3)

والواضح من أقوال جمهور العلماء أنَّ السورة مكيَّة، وهذا الذي اختاره سيد قطب حيث يقول: " هذه سورة مكيَّة نزلت والمسلمون في مكَّة قلَّة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الحول والطول والجاه والسلطان، نزلت تضع الموازين الحقيقية للقوى والقيَم." (4)

3-علاقتها بما قبلها: إنَّ سورة القصص تأتي في ترتيب المصحف بعد سورة الشعراء وسورة النمل، والمتأمل في حال هذه السورَ يجد أنَّ سورة القصص اشتملت على شرح بعض ما أُجمل من قصة موسى – عليه السلام- في

---

* في قوله تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ)[يوسف:3].

1) التحرير و التنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، 20| 61.

2) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم و السبع المثاني، شهاب الدين محمد الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان،8| 41.

3) التحرير و التنوير، محمد الطاهر بن عاشور،20| 61.

4) في ظلال القرآن، سيد قطب، بيروت لبنان، ط:11، 1405هـ-1985م، 5| 2673.

سورتي الشعراء و النمل.

يقول صاحب روح المعاني: " قال الجلال السيوطي إنَّه سبحانه لَمَّا حكى في الشعراء قول فرعون لموسى - عليه السلام- (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (18) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ) إلى قول موسى-عليه السلام-(فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) ثمَّ حكى سبحانه في (طَس) النمل قول موسى - عليه السلام- :(إِنِّي آنَسْتُ نَارًا) إلى آخره الذي هو في الوقوع بعد الفرار، وكان الأمران على سبيل الإشارة والإجمال فبَسَط جلَّ وعلا في هذه السورة ما أوْجزه سبحانه في السورتين وفصَّل تعالى شأنُه ما أجمله فيهما على حسب ترتيبهما." [1]

4- ترتيب نزولها وعدد آياتها: ذكر صاحب التحرير والتنوير أنَّها السورة التاسعة والأربعون في ترتيب نزول سوَر القرآن " نزلت بعد سورة النمل وقيل سورة الإسراء فكانت هذه الطوَسين الثلاثة * متتابعة في النزول كما هو ترتيبها في المصحف، و هي متماثلة في الافتتاح ثلاثتها بذكر موسى- عليه السلام-، ولعلَّ ذلك الذي حمَل كُتَّاب المصحف على جعلها متلاحقة، وهي ثمان و ثمانون آية باتِّفاق العادِّين." [2]

5- مناسبة فاتحة السورة بخاتمتها: إنَّ المتأمِّل لجميع سور القرآن يدرك أنَّ جميع فواتحها، وخواتمها واردة على أحسن وجوه البلاغة، وأكملها تناسبا وتناسقا، وسورة القصص واحدة من سوَر القرآن جاءت فاتحتها مناسبة لخاتمتها، حيث يقول العلامة شهاب الدين الألوسي: " إنَّه تعالى لما ذَكَر قصة موسى – عليه السلام- وقومه مع فرعون وبغيه، واستطالته عليهم، وهلاكه ونصرة أهل الحق عليه، ذَكَر جلَّ شأنه هنا ما يتضمن قصة سيدنا صلوات الله وسلامه عليه و أصحابه مع قومه، واستطالتهم عليه وإخراجهم إيَّاه من مسقط رأسه ثمَّ إعزازه – عليه الصلاة والسلام- بالإعادة إلى مكة وفتحه إيَّاها منصورا مُكرَّما ووَسَط سبحانه بينهما ما هو كالتخلّص من الأول إلى الثاني." [3]

إنَّ سورة القصص " بدأت بأمر موسى ونصرته وقوله: (فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ) وخروجه من وطنه و خُتمت بأمر النبي – صلى الله عليه و سلم- بألاَّ يكون ظهيرا للكافرين، وتسليته عن إخراجه من مكَّة ووعده بالعودة إليها لقوله في أوَّل السورة (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ)." [4]

---

1) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، 8| 41.

* يقصد رحمه الله تعالى بقوله الطوَسين الثلاثة: سورة الشعراء، والنمل، والقصص، لأن جميعها مفتوحة بحرفيْ التهجي (ط، س) فسورة الشعراء تبدأ بقوله (طسم)، وسورة النمل تبدأ (طس).

2) التحرير و التنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 20| 61.

3) روح المعاني، شهاب الدين الألوسي، 20| 128.

4) من أسرار البلاغة في القرآن، محمد السيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية. القاهرة، مصر ط:1، 1404هـ - 1984م، ص202.

6- قطاعات السورة ومحاورها الرئيسة [1] : يُمْكن تقسيم سورة القصص إلى محاور أربعة يدور حولها موضوع السورة:

– **المحور الأول**: قصة موسى – عليه السلام- وفرعون.

وتقع أحداثها في بداية السورة، وتَعرض قوَّة الحُكْم الظالم، والسلطان المتجبِّر، قوَّة فرعون الطاغية اليقِظ، والحذِر، وفي مواجهتها موسى - عليه السلام- و هو طفل رضيع لا حول له ولا قوَّة، كما يُمْكن تقسيم قصَّة موسى – عليه السلام- في مواجهة فرعون إلى خمس حلقات .

الحلقة الأولى: مولد موسى – عليه السلام- وما أحاط بهذا المولد من ظروف قاسية، وما صاحبه من رعاية الله له و عنايته به.

الحلقة الثانية: فُتوَّة موسى- عليه السلام-، وما أتاه الله من الحكْم والعِلم، وما وقع له من قتل القبطي خطأً وتآمر فرعون وقومه عليه، وهروبه من مصر إلى مدين، وزواجه فيها، وقضاءه سنوات الخدمة بها.

الحلقة الثالثة: وهي حلقة النداء والتكليف بالرسالة بعد عودة موسى- عليه السلام- من مدين إلى مصر.

الحلقة الرابعة: مواجهة موسى- عليه السلام – لفرعون و ملئه وإبلاغهم الرسالة و تكذيبهم إياه.

الحلقة الخامسة: غَرَق فرعون وجنوده، ونجاة موسى- عليه السلام- ومن معه .

– **المحور الثاني**: تعقيبات عامَّة حول قصة موسى – عليه السلام – وفرعون.

فبَعْد ما قصَّ الله تعالى على نبيه قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون، أعقب ذلك حديثا وجَّهه لمشركي مكة يُبصِّرهم فيه بدلالة هذه القصة، ويفتح أبصارهم على آيات الله المثبوتة في مشاهد الكون تارة، وفي مصارع الغابرين تارة، وفي مشاهد القيامة تارة أخرى، وكلُّها تؤكد العِبر المستفادة من القصص المحكيَّة في القرآن الكريم.

– **المحور الثالث**: قصة قارون مع قومه.

وتَعرض قيمة المال، ومعها قيمة العلم، المال الذي يَستخفُّ رجالا من قوم موسى- عليه السلام- وقد خرج عليهم قارون في زينته، والعلم الذي اعتزَّ به قارون، وحسب أنَّه سبب ثرائه، وعن طريقه أوتي ذلك المال، ولكن الذين أوتوا العِلم الصحيح من قومه لا تستخفُّهم خزائنه، ولا تستخفُّهم زينته، بل يتطلَّعون إلى ثواب الله ويَعلمون أنَّه خيرٌ وأبقى، ثمَّ تتدخَّل يد الله فتَخسف بقارون وبداره الأرض فلا يغني عنه ماله ولا علمه.

–**المحور الرابع**: وعْدٌ من الله لنبيه الكريم بالعودة إلى مكة.

تنتهي السورة بوعدٍ من الله تعالى لنبيه الكريم و هو مطرود من مكة، يلاحقه المشركون بأنَّه تعالى سيردُّه إلى بلده، و ينصره على الشرك وأهله كما نصر موسى- عليه السلام- على فرعون وملئه.

هذه سورة القصص، وهذه محاورها الأساسية أُنهي بها هذا المدخل لأنتقل إلى الفصل الأول محاولا أن أبرز فيه مظاهر الإعجاز في الحروف، والمفردات، والفواصل.

---

1) انظر في ظلال القرآن، سيد قطب، 5 | 2674، و ما بعدها.

الفصل الأول

الإعجاز في الحروف و المفردات و الفواصل

الإعجاز في الحروف

الإعجاز في المفردات

الإعجاز في الفواصل

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإعجاز في الحروف

أنزل الله سبحانه وتعالى القرآن الكريم على نبيه محمد- صلى الله عليه وسلم- بلسان عربي مبين « وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (192) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (193) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (194) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (195)» [الشعراء: 192-195]، فلَمْ يخرج في حروفه، ولا في كلماته، ولا في جمله عن شيء ممَّا عرفه العرب في كلامهم، " فحروف القرآن هي حروفهم، وألفاظه هي ألفاظهم، لكنَّ هذه الحروف وتلك الألفاظ حينما دَخلت في تركيب، وسُلكت في نَظْم، وخرجت على هذه الصورة التي نزل بها القرآن كانت شيئا آخر." [1]

وإن يعجب المرء فعجب لحروف تمتطي صهوة الإعجاز، وتسلُّ سيوف التحدي على قوم كانت الكلمة حرفتهم، وميدان تنافسهم، وتفاخرهم، فسَحرت قلوبهم، وأخذت عقولهم، وأخرست ألسنتهم، فخَشَعت لها الأصوات فلا تسمع إلاَّ همسا.

وسأحاول في هذا المبحث تَبْيين طرَف من مظاهر إعجاز حروف القرآن في سورة القصص.

أولا: ما يتعلق بالحروف المقطَّعة في أوائل السور.

تُعدُّ الحروف المقطَّعة التي افتُتحت بها بعض سوَر القرآن الكريم من الجوانب المهمَّة في مجال الإعجاز البياني للقرآن الكريم، يحتاج إلى اهتمام كبير وعناية وفيرة، لاسيما وهو الجانب الذي أسال حبر الكثير من الدارسين، وكان ميدانا خصبا لإعمال الفكر فيه للوقوف على مظاهر الإعجاز القرآني، والتدليل على القدرة الإلهية.

1- أصناف الافتتاح في القرآن الكريم.

تميَّزت سوَر القرآن الكريم بصنوف من الافتتاح الحسن، والابتداء الراقي، فقد افتتح الله- عزَّ وجلَّ- سوَر كتابه الكريم بعشرة أنواع من الافتتاحات: فافتتح بالثناء، وبحروف التهجي، وبالنداء، وبالجُمل الخبريَّة، وبالقسم، وبالشرط، وبالأمر، وبالاستفهام، وبالدعاء، وبالتعليل. [2]

وقد جمعها بعضهم في بيتين:

أَثْنَى على نفْسه سبحانـــــه بثُبـــــــو ... ت المدْحِ و السلْبِ لَمَّا استْفتْح السُّـــوَرا

و الأمْرُ شَرْطُ النِّدا التعليلُ والقَسَمُ الـــــدُّ ... عا حروف التهَجِّي استْفهِمْ الخَبَـــــرا [3]

وسورة القصص واحدة من السوَر التي افتُتحت بحروف التهجي، فقد بدأها تعالى بقوله «طسم» فالطاء

---

1) من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن)، عبد الفتاح لاشين، مكتبة عكاظ، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1403هـ - 1983م، ص 19، 20.

2) انظر البرهان الزركشي ، 1 | 166 وما بعدها.

3) المرجع نفسه، 1 | 181 وما بعدها.

والسين والميم حروف افتتح الله- عزَّ وجلَّ- بها هذه السورة ذاكرا بعدها آيات القرآن الكريم في قوله تعالى: « طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)» [القصص: 1،2].

فما حقيقة هذه الأحرف ؟ و ما رأي أهل العلم فيها ؟

2- قول أهل العلم في الحروف المقطعة.

لقد حيَّرت حروف التهجِّي التي افتتح الله تبارك وتعالى بها بعض سوَر القرآن العلماء والمفسرين منذ القدم، وحُقَّ لها أن تكون مصدر حيرة، وميدان بحث وغوْص عميق، ولقد انحسرت محاولات العلماء في فَهْم وتفسير هذه الحروف في اتجاهين بارزين.

الاتجاه الأول:

يرى أصحاب هذا الاتجاه أنَّ الحروف المقطَّعة في أوائل السوَر هي عِلْمٌ غيبيٌّ مستورٌ، وسرٌّ إلهي محجوب، فهي من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه، فقد " رُوي عن الصديق رضي الله عنه أنَّه قال: في كلِّ كتاب سرٌّ وسرُّ القرآن فواتح السوَر، وعن علي رضي الله عنه، أنَّ لكلِّ كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجِّي، وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّه قال: عجزتْ العلماء عن إدراكها. " [1]

ورُوى عن الشعبي أنه قال: (سرُّ الله لا تَطلبوه). [2]

وخلاصة القول بالنسبة لهذا الاتِّجاه أنَّ هذه الحروف من الأمور الغيبيَّة التي لا ينبغي أن نتكلّم فيها، ونؤمن بها كما جاءت من غير تأويل لها.

لكنَّ الغريب في هذا الرأي، كيف أنَّ الله- عزَّ وجلَّ- يتعبَّدنا بشيء لا نَفْهم معناه وحقيقته. ويخاطبنا بخطاب لا نفهم معناه؟.

الاتجاه الثاني:

وهو رأي الجمهور الذين يقولون بأنَّ المراد من الحروف المقطَّعة معلوم وأنَّه ليس من المتشابه، لأنَّ العرب تُحديَّت بالقرآن، وطُلِبت بمعارضته، أو التسليم و الانقياد له.

ومعروف أنَّ القرآن نزل بِلُغتهم، ووِفْق أساليبهم، ومع ذلك ثبت عجزهم عن معارضته، وبذلك قامت الحجَّة عليهم وعلى كافَّة الخلق، وإذا تقرر هذا فكيف يَرِدُ فيه شيء يخاطبهم بما لاطريق لهم إلى فهمه، فلو كان هذا لتعلَّقوا به ووجدوا السبيل إلى التعلُّل في العجز عنه، وهذا ما لم يَحدث.

هذا ولقد تعدَّدت آراء العلماء في محاولة الوصول إلى حقيقة هذه الحروف، وفكِّ شفراتها، واستجلاء أسرارها، وتباينت تباينا كبيرا، وقد ذكر منها الزركشي في البرهان ثلاثة عشر وجها، وقال إنَّ بعض هذه الوجوه قريب، وبعضها بعيد. [3]

---

1) تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي، دار الفكر، ط:2، 1403هـ- 1983م، 1|34.

2) التفسير الوسيط للقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، 1397هـ- 1977م، 1|47.

3) انظر البرهان في علوم القرآن، 1|172 وما بعدها.

ولعلّ أقرب الأقوال إلى الصواب – حسب رأيي- وأدْناها إلى تقبُّل العقل، وأوْلاها وأحقُّها بالاعتماد والنقل في شأن حقيقة هذه الحروف قولان.

القول الأول:

أنّ المراد منها تنبيه المخاطَبين بها، وإثارة استغرابهم، وفضولهم فيكون ذلك داعيا لهم وباعثا لإلقاء السمع لِما يُتلى عليهم من الآيات، والذكر الحكيم.

قال أبو حيان:" وقال قوم هي تنبيه كما في النداء، وقال قوم إنّ المشركين لَمّا أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت ليستغربوها فيفتحون لها أسماعهم فيسمعون القرآن بعدها، فتجِبُ عليهم الحجة." (1)

وممّن اختار هذا الرأي كذلك صاحب المنار عند تفسيره سورة الأعراف قال: " والمختار عندنا أنّ حكمة افتتاح هذه السورة وأمثالها بأسماء حروفٍ ليس لها معنى مفهوم غير مُسمّى تلك الحروف التي يتركّب منها الكلام هي تنبيه السامع إلى ما سيُلقى إليه بعد هذا الصوت من الكلام حتى لا يفوته شيء، فهي كأداة الافتتاح (ألاَ)، وهاء التنبيه." (2)

ولعلّ الواقع المعيش للذين كان القرآن يُتنزّل عليهم خير شاهد ودليل على ذلك، فجميع السوَر المفتتحة بهذه الحروف المقطّعة مكيَّة ما عدا الزهراوين-البقرة وآل عمران- فأمّا السوَر المكيَّة فلدعوة المشركين ولفْت انتباههم إلى إثبات نبوَّة محمد- صلى الله عليه وسلم- والإقرار بإعجاز القرآن، وأمّا المدنيَّتان فلمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن.

" ويزداد هذا الرأي وضوحا إذا سلّمنا بأنّ الزهراوين كانتا من أوائل السوَر نزولا بالمدينة-كما هو مشهور- وبنزولهما مفتتحتين بهذه الحروف المقطّعة تَمّت الحكمة الإلهية من تنبيه اليهود إلى الدعوة الجديدة، وإثارة اهتمامهم بها، فلَمْ يَعدْ في استمرار الافتتاح بتلك الحروف بعد الزهراوين حكمة ظاهرة باهرة، ولذلك نزل الوحي بعدهما خاليا من تلك الفواتح." (3)

القول الثاني:

وردت هذه الحروف في افتتاح بعض سوَر القرآن الكريم لتكون إشعارا من الله تعالى للناس بأنّ القرآن الذي تحدى به المشركين هو من جنس كلامهم المركّب من هذه الحروف التي يعرفونها، والتي ألِفوا منها القصائد الطوال، لكنّهم في الوقت نفسه عجزوا عن الإتيان بسورة واحدة مثل سوَر القرآن الكريم، وهذا إن دلّ على شيء إنّما يدلُّ على بلاغة الأسلوب القرآني، وبلوغه مرتبة عالية وقف فصحاء العرب و بلغاءهم دونها بمراحل.

يقول صاحب الظلال- رحمه الله – : " ومِثل هذه الأحرف يجيء في مقدّمة بعض السوَر القرآنيَّة، وقد وردت في تفسيرها وجوه كثيرة نختار منها وجها، إنّها إشارة للتنبيه إلى أنّ هذا الكتاب مؤلّف من جنس هذه

---

1) تفسير البحر المحيط، 1 | 34.

2) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط:2، 8 | 296.

3) مباحث في علوم القرآن، الصبحي الصالح، دار الملايين، بيروت ط:18، 1990، ص 245.

الأحرف، وهي في متناول المخاطَبين به من العرب، و لكنَّه مع هذا هو ذلك الكتاب المعجز الذي لا يملكون أن

يصوغوا من تلك الحروف مثله، الكتاب الذي تحدّاهم مرَّة، ومرَّة أن يأتوا بمثله أو بعَشْر سوَر مثله أو بسورة من مثله فلا يملكون لهذا التحدّي جوابا، والشأن في هذا الإعجاز هو الشأن في خَلْق الله جميعا، وهو مِثْل صُنْع الله في كل شيء وصُنْع الناس... إنَّ هذه التربة الأرضية مؤلَّفة من ذرَّات معلومة الصفات، فإذا أخذ الناس هذه الذرات فقصارى ما يصوغونه منها لبِنة أوآجرَّه، أوآنية، أو أسطوانة، أو هيكلا، أوجهازا كائنا ما يكون في دقّته، ولكنَّ الله يجعل من تلك الذرات حياة، حياة نابضة خافقة، تنطوي على السرّ الإلهي المعجز ... وهكذا القرآن حروف، وكلمات يصوغ منها البشر كلاما وأوزانا، ويجعل الله منها قرآنا و فرقانا، والفرق بين صُنع البشر، وصُنع الله من هذه الحروف والكلمات هو الفرق بين الجسد الخامد والروح النابض، هو الفرق ما بين صورة الحياة وحقيقة الحياة." [1]

3- علاقة الأحرف المقطعة بالإعجاز

افتتح المولى تبارك وتعالى تسعا وعشرين سورة من كتابه العزيز بالحروف المقطّعة، وقد جاءت هذه الفواتح تارة مفردة بحرف واحد، وتارة مركبة من حرفين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أحرف.

فالسوَر التي بُدِئت بحرف واحد ثلاث سور، وهي سورة (ص)، وسورة (ق)، وسورة القلم التي بدِئت بحرف (ن)، والسوَر التي بدئت بحرفين تسعٌ و هي: (طه)، (يس)، (طس) في سورة النمل، و (حم) في ست سور هي غافر، فصلت، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف والسوَر التي بدِئت بثلاث أحرف ثلاث عشرة سورة وهي: (الم) في ست سور هي البقرة، آل عمران، العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، و (الر) في خمس سور هي سورة يونس، هود، يوسف، الحجر، إبراهيم، و(طسم) في سورتين هما الشعراء، والقصص، و هناك سورتان بُدئتا بأربعة أحرف وهما سورة الرعد (المر)، والأعراف (المص)، وسورتان-كذلك- بدئتا بخمسة أحرف وهما سورة مريم (كهيعص)، والشورى (حم عسق).

ولعلَّ سرَّ تنوُّع هذه الفواتح ما بين الحرف الواحد إلى خمسة حروف جَرْيٌ على عادة "افتتاح العرب في كلامهم، وكما أنَّ أبنية كلماتهم على حرف و حرفين إلى خمسة أحرف سُلك في الفواتح هذا المسلك." [2]

إنَّ كلَّ السوَر التي بدِئت بحروف مقطّعة نزلت بمكة المكرمة- عدا سورتي البقرة وآل عمران- أين كان الرسول - صلى الله عليه وسلم- في حرب عقَديَّة ضروس ضد صناديد الشرك، مُستلاً حسام التحدي بآيات القرآن ليُحق الحق، ويبطل الباطل عملا بقوله تعالى: « فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا»[الفرقان: 52]

فهل- يا ترى – لهذه الحروف التي افتتحت بها هذه السور علاقة بالإعجاز البياني في القرآن الكريم ؟.

---

1) في ظلال القرآن، 1|38.

2) تفسير النسفي ، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله النسفي، دار الفكر، 1|10.

سجَّل العلماء، والمفسرون ملاحظات كثيرة حول هذه الحروف والسوَر الواردة فيها، ومن أهمِّ الملاحظات التي سُجِّلت أنَّه حيث وردت هذه الأحرف في السورة فإن السورة لها صلة في الحديث عن القرآن.

يقول ابن كثير" ولهذا فكلُّ سورة افتُتحت بالحروف فلا بدَّ أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته، وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة." [1]

وهذه الحكمة الجليلة، واللطيفة الرائعة تظهرلنا جليًّا في سورة القصص، فسورة القصص افتُتحت بأحرف مقطَّعة جاء بعدها ذكر القرآن الكريم، والتنويه بشأنه « طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2)» [القصص: 1،2] لقدكان النبي- صلى الله عليه وسلم- يتلو هذه السورة ومثيلاتهامن التي افتتحت بحروف التهجي على المشركين في أمِّ القرى وما حولها إثباتا لنبوَّته ولإعجاز القرآن " وكلُّها مفتتحة بذكر الكتاب إلا سورة مريم وسورتي العنكبوت و الروم و سورة (ن)، وفي كلٍّ منها معنى ممَّا في هذه السوَر يتعلَّق بإثبات النبوَّة، والكتاب." [2]

وممَّا لاحظه العلماء كذلك أنَّ عدد الحروف المقطَّعة هو نصف عدد حروف المعجم وأنَّها تشتمل على نصف أجناس صفات الحروف، يقول الزمخشري: " ما ورد في هذه الفواتح من أسماءٍ هو نصف أسامي حروف المعجم إذ هي أربعة عشر وهي: الألف، واللام، والميم، والصاد، والراء، والكاف، والهاء، والياء، والعين، والطاء، والسين، والحاء، والكاف، والقاف، والنون، في تسع و عشرين سورة على عدد حروف المعجم، وهذه الأربعة عشر مشتملة على أنصاف أجناس صفات الحروف، ففيها من المهموسة نصفها، الصاد والكاف والهاء والسين والحاء ومن المجهورة نصفها الألف واللام والميم الراء والعين والطاء والقاف والياء والنون، ومن الشديدة نصفها، الألف، والكاف، والطاء، والقاف، ومن الرخوة نصفها، اللام، والميم، والراء، والصاد، والهاء، والعين، والسين، والحاء، والياء، والنون، ومن المطبقة نصفها، الصاد، والطاء، ومن المنفتحة نصفها الألف، واللام، والميم، والراء، والكاف، والهاء، والعين، والسين، والقاف، والياء، والنون، ومن المستعلية نصفها، القاف، والصاد، والطاء، ومن المستفلة نصفها الألف، واللام، والميم، والراء والكاف، والهاء، والياء، والعين، والسين، والحاء، والنون، ومن حروف القلقلة نصفها، القاف، والطاء." [3]

فانظر إلى هذا السرِّ الرباني العجيب فكأنَّ الله – عزَّ وجلَّ- بَعْد أن جمع نصف عدد حروف المعجم، ونصف أجناس صفات الحروف في الحروف المقطعة في فواتح السور يتحدى الإنس والجن جميعا أن يؤلِّفوا بالنصف الآخر كلاما يشبه القرآن الكريم في بلاغته وإعجازه، ولكن هيهات أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

وممَّا سجَّل العلماء كذلك علاقةُ الحرف (طاء) بقصة موسى- عليه السلام- .

يقول الذكتور فاضل السامُرَّائي: " والعجيب أنَّ كل سورة تبدأ بالطاء ترِد فيها قصة موسى- عليه السلام- في

---

1) تفسير القرآن العظيم، عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن كثير، دار الأندلس، بيروت، لبنان، 1 | 68.

2) تفسير المنار، 8 | 296

3) الكشاف، الزمخشري 1 | 7.

أوائلها مفصَّلة قبل سائر القصص مثل طه، طس في النمل، طسم في القصص، وطسم في الشعراء، وليس في المواطن الأخرى مما يبدأ بالحروف المقطّعة مثل ذلك، فالقاسم المشترك فيما يبدأ بالحرف (ط) قصة موسى- عليه السلام- مفصَّلة في أوائل السورة، والملاحظة الأخرى أن ما يبدأ بـــ (طسم) تكون قصة موسى فيها أطول مما يبدأ بـــ (طس)، فكأنّ زيادة الميم إشعار بزيادة القصة، فانظر يا رعاك الله أى سرٌّ من أسرار التعبير هذا ؟." [1]

ومما انتبه إليه العلماء كذلك حول الأحرف المقطّعة أنّ السوَر التي بدئت بالحروف المفردة بُنيت كلماتها على ذلك الحرف، فالكلمات القافية تردَّدت في سورة (ق) كثيرا (حيث ورد فيها خمسون كلمة فيها حرف القاف)، والكلمات الصادية تردَّدت في سورة (ص) كثيرا (حيث ذكر فيها تسع وعشرون كلمة فيها حرف الصاد).

وجاء في ملاك التأويل عن سبب بدء سورة يونس بـــ(الر).

" أنَّه تكرَّر في سورة يونس من الكلامات الواقع فيها (الراء) مائتا كلمة وعشرون كلمة أو نحوها، وأقرب السوَر إليها مما يليها بعدها من غير المفتتحة بالحروف المقطّعة سورة النحل وهي أطول منها، والوارد فيها ممَّا تركّب على (الراء) من كلِمها مائتا كلمة مع زيادتها في الطول عليها." [2]

هذا غيض من فيض، وقطرة من بحر الإعجاز القرآني، وتبقى بعدها هذه الحروف الفواتح سرًّا شامخا باعثا على الحيرة مُؤْذنا بعظمة وقدرة وحكمة مُنْزل الكتاب الذي وسع كل شيء علما.

ثانيا: مظاهر إعجاز الحروف في سورة القصص.

1- حذف حرف في موطن وذكْره في موطن آخر.

قد يحذف التعبير القرآني حرفا في موطن، ويذكره في موطن آخر يُشبه سياقه سياق الموطن الأول وكلّ ذلك لغرض بلاغي رفيع، ولمسة بيانية ساحرة تلْحظ فيها غاية الفن، والجمال، ومن ذلك قوله تعالى في سورة القصص: « وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ » [القصص: 22]، وقوله تعالى في سورة الكهف: « وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا » [الكهف: 24].

فالله -عزَّ وجلَّ- ذكر ياء المتكلم في سورة القصص (يَهْدِيَنِي) بينما حذفها في سورة الكهف (يَهْدِيَنِ)، فما السرُّ البلاغي في هذا يا ترى مع أن سياق الآيتين يبدو متقاربا ؟.

يقول الدكتور فاضل السامرائي: " فإنَّه حَذف ياء الضمير واجتزأ بالكسرة في سورة الكهف فقال :(يَهْدِيَنِ) وأبرز الضمير في سورة القصص (يَهْدِيَنِي)، وذلك أنّ المقام [في سورة القصص] يستدعي إبراز ياء المتكلّم لأنه مقام التجاء، وخوف، وخشية، والخوف يستدعي أن يَلصق الإنسان بمن يحميه، ويُلقي بنفسه كلّها عليه،

---

1) التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار، الأردن، ط:2، 1422 هـــ- 2002م، ص 224.

2) ملاك التأويل، 1 | 483 .

ويَستدعي أن يلتجئ إلي من ينصره، ويأخذ بيده، وبكل أحاسيسه ومشاعره التجاء كاملا، وهذا هو الموقف الأوَّل فقد خرج موسى- عليه السلام – خائفا يترقَّب فارًّا من بطش فرعون، فالتجأ إلى ربه التجاء الخائف الوجل طالبا منه أن يهديه سواء السبيل، ولهذا أظهر الياء دلالة على كمال الالتجاء، وإلقاء النفس كلها أمام خالقه، بخلاف في الكهف فإنه ليس المقام كذلك فإنه قال : « وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (23) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا» [الكهف:23، 24]. "[1]

فالفرْق-إذن- بين المقامين مختلف، ونفسية موسى- عليه السلام- في سورة القصص تختلف عن نفسية محمد- صلى الله عليه وسلم- في سورة الكهف، فمقام موسى- عليه السلم- مقام خوف يستدعي إلقاء النفس كلها أمام خالقها بخلاف مقام محمد- صلى الله عليه و سلم- فإنه مقام طلب هداية وليس مقام خوف، لذلك حُذفت الياء الدالة على الالتجاء، وطلب النصرة، وممَّا يدل على اختلاف المقامين أنَّه لَمَّا كان موسى- عليه السلم- خائفا وجِلا ضعيفا يطلب من يحميه، ويلجأ إليه قَدَّم التعبير القرآني لفظ (الربِّ) على فِعْل الهداية لأنَّه هوتعالى الملجأ والملاذ فقال: « عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (22) » [القصص: 22]، بخلاف مقام محمد- -صلى الله عليه وسلم- في سورة الكهف فهو مقام ذِكر القول الحقِّ فيما اختلفت فيه الأقوال، وبيان الأمر الصحيح فيما تباينت فيه الآراء، و هذا أمر يحتاج إلى الهداية والرشد أوَّلا، لذلك قَدَّم التعبير القرآني لفظ الهداية على لفظ الرب فقال : « وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا »[الكهف:24]

" ثمَّ لننظرمن ناحية أخرى أنَّ ياء ضمير المتكلم تكرَّر في سورة القصص أكثر مما في سورة الكهف فناسب ذلك ذكر الياء في سورة القصص دون سورة الكهف، ثم إنَّ لفظ الهداية تكرر في سورة القصص اثنتي عشرة مرَّة، أمَّا في سورة الكهف لم يذكر إلا خمس مرات، فزيد في بنيته بذكر ياء المتكلم في سورة القصص لَمَّا زاد من تردده بخلاف سورة الكهف، و هذا الأمر مراعى في القرآن الكريم، ألا ترى كيف قال الله تعالى في سورة الأعراف « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي (178) » [بذكر الياء في كلمة الْمُهْتَدِي]، في حين قال في سورة الإسراء « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ (97) » [الإسراء: 97]، وقال في سورة الكهف « مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ (17) » [الكهف: 17] بالاجتزاء بالكسرة فيهما، وذلك أنَّ لفظ الهداية تردَّد في سورة الأعراف أكثر من سبع عشرة مرّة، في حين ورَد في سورة الإسراء ثماني مرات، وفي الكهف ست مرات، فلمَّا زادت ألفاظ الهداية في سورة الأعراف على ما في السورتين زاد لفظ الْمُهْتَدِي[في البنية] على ما في السورتين. "[2]

---

1) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص 84 .

2) المرجع نفسه، ص 104.

2- زيادة حرف مراعاة لمقتضى الحال.

قد يزيد التعبير القرآني حرفا في مكان، ولا يذكره في مكان آخر حسب ما يقتضيه موطن الكلام، فمن ذلك قوله تعالى عن موسى – عليه السلام-: « فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (19) » [القصص: 19].

فما السرُّ في زيادة (أنْ) بعد (لَمَّا)، مع أن الظاهر أن حذفها لا يغيِّر المعنى؟.

يقول الدكتور فاضل السامرائي: " زاد (أنْ) بعد (لَمَّا) وذلك أنَّ موسى – عليه السلام- لم يكن مندفعا للبطش بالقبطي في هذه المرَّة، فزاد [التعبير القرآني] (أنْ) للدلالة على التريُّث، والتمهُّل، وفَصَل بين (لَمَّا) والفعل للدلالة على الفاصل في الزمن، وعدم الاندفاع بخلاف المرّة الأولى التي اندفع فيها فجأة لنصرة صاحبه، ألا ترى كيف قال في المرّة الأولى « فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (15) » [القصص: 15] فجاء بالفاء الدالة على التعقيب، وعدم المهلة بين الاستغاثة والطعنة (فاستغاثه، فوكزه فقضى عليه)." [1]

فزيادة الحرف (أنْ) جاء مراعاة لمقتضى حال موسى – عليه السلام- وأنَّه لم يكن مندفعا كما في المرّة الأولى التي قضى فيها على القبطي، ولعلَّ ممَّا يدل على تمهُّل موسى – عليه السلام- وعدم اندفاعه في المرة الثانية تعنيفه لصاحبه الإسرائيلي قائلا له: (إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ)، حتى ظنَّ هذا الأخير أنَّه ينوي البطش به بدلا من عدوه، فقال له: «يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ (19) » [القصص: 19].

وشبيه هذه الزيادة ما جاء في سورة يوسف- عليه السلام- عند قوله تعالى : « فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا (96) »[يوسف: 96].

" فزاد (أنْ) بعد (لَمَّا) وذلك لمناسبة حالة الانتظار والترقب التي كان يمرُّ بها نبي الله يعقوب – عليه السلام-، فقد كان شديد اللهفة على رؤية ولده، ومن المعلوم أنَّ الشخص في مثل هذا الحال يستطيل كل لحظة تمرّ به، ففَصَل بين (لَمَّا) ومجيء البشير، وباعد بينهما إشارة إلى الشعور باستطالة الوقت، وطول الانتظار." [2]

وجاءفي معترك الأقران " فإن قلتَ (فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ) لم يقع فيه تكرار فلِمَ زيد (أنْ) و لم يأت على الأصل؟ قلت: لَمَّا كان مجيء البشير إلى يعقوب –عليه السلام- بعد طول الزمن، وتباعد المدّة ناسب ذلك زيادة (أنْ) لِمَا في مقتضى وضعها من التراخي." [3]

وذكر مصطفى صادق الرافعي أن المراد بذلك " تصوير الفَصْل الذي كان بين قيام البشير بقميص يوسف

---

1) المرجع السابق، ص 107.

2) المرجع نفسه، ص 107.

3) معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1970م، 2|75.

- عليه السلام- وبين مجيئه لبُعد ما كان بين يوسف وأبيه - عليهما السلام- وأنّ ذلك كأنه كان منتظرا بقلق واضطراب، تُأكّدهما وتصف الطرب لمقدمه واستقراره غُنَّة هذه النون في الكلمة الفاصلة وهي (أنْ) في قوله: (أَنْ جَاءَ)." [1]

ومن أمثلة زيادة التعبير القرآني حرفا مراعاة لمقتضى الحال قوله تعالى في سورة القصص: « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ » [القصص: 30، 31]، وقال في سورة النمل: « يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ(10) » [النمل: 9،10].

الملاحظ أنّ المولى تبارك وتعالى نادى موسى- عليه السلام- في سورة القصص بقوله: (أَنْ يَا مُوسَى)، أمّا في سورة النمل ناداه بقوله (يَا مُوسَى) فجاء بأنْ المفسِّرة في سورة القصص و لم يأت بها في سورة النمل، والأمر نفسه لَمَّا أمره بإلقاء العصا فقال له في سورة القصص: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) وقال له في سورة النمل: (وَأَلْقِ عَصَاكَ)، فجاء بأنْ المصدرية أو المفسِّرة في سورة القصص و لم يأت بها في سورة النمل، ولعل ذلك يرجع- والله أعلم- إلى سببين:

أ- أنّ الجوَّ العام لقصة موسى – عليه السلام- في سورة النمل، والمقام فيها هو مقام تعظيم وتكريم له أوْضح ممَّا هو في سورة القصص، ذلك أنّ الجوَّ العام للقصة في هذه الأخيرة مطبوع بطابع الخوف الذي يسيطر على موسى- عليه السلام- منذ ولادته وإلقائه في اليم، ويَستمر معه الخوف بعد قتله الرجل المصري، وهكذا يبقى الخوف يلازمه حتى أواخر القصة بل وحتى لَمَّا كلّفه ربُّه تعالى بالذهاب إلى فرعون لإبلاغه رسالته.

فالجوُّ العام- إذن- لقصة موسى- عليه السلام- في سورة القصص هو جوُّ الخوف، والترقُّب، بينما في سورة النمل يَغلب جوُّ التكريم و التشريف لموسى- عليه السلام-بالرسالة.

إذا تقرَّر هذا يُمْكن معرفة لماذا ذكر – عزَّ وجلَّ- (أنْ) المصدرية في آيتي القصص السابقتين (أَنْ يَا مُوسَى)، (أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)، و لم يذكرها في آيتي النمل (يَا مُوسَى)، (أَلْقِ عَصَاكَ).

" فالمقام في سورة النمل مقام تعظيم لله – عزَّ وجلَّ- وتكريم لموسى – عليه السلام-، فشرَّفه بالنداء المباشر، في حين ليس المقام كذلك في سورة القصص فجاء بما يُفسِّر الكلام، أي ناديناه بنحو هذا، أو بما هذا معناه، فهناك فرق بين قولك:(أَشَرْت إليه أنْ اذهب) وبين قولك (قلت له اذهب) فالأوَّل أشرْت إليه بالذهاب بأي

---

1) إعجاز القرآن و البلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص121.

لفظ أو دلالة تدلّ على هذا المعنى، أمَّا الثاني فقد قلت له هذا القول نصًّا، ومثله قوله تعالى: « وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ (104) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » [الصافات: 104، 105].

أي بما هذا تفسيره أو بما هذا معناه بخلاف قوله تعالى « قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ » [هود: 46] "[1]

والتفسير نفسه يُمكن سحبه على قوله تعالى: (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ)، وقوله: (وَأَلْقِ عَصَاكَ).

" فقوله تعالى (وَأَلْقِ عَصَاكَ) قول مباشر من ربّ العزة لموسى- عليه السلام- وهو دالٌ على التكريم، وأمَّا قوله (وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) فإن معناه أن المولى تبارك وتعالى نادى موسى- عليه السلام- بما يفسِّره هذا أو بما معناه هذا، فأنت إذا قلت: (ناديته أن اذهب) كان المعنى أنَّك ناديته بالذهاب فقد يكون النداء بهذا اللفظ، أو بغيره بخلاف قولك (ناديته اذهب) أي قلت له اذهب نصًّا." [2]

ب- إنَّ ذِكر (أنْ) المصدرية في آيتي القصص، وعدم ذكرها في آيتي النمل كان ذلك مراعاة لسياق قصة موسى - عليه السلام- في السورتين فانظر " أنَّه لَمَّا قال تعالى في سورة النمل (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُون) أتى بلفظ (لديَّ) المفيدة للقرب، ناده – عزَّ وجلَّ- بما يفيد القرب فقال (يَا مُوسَى)، و لم يقل (أَنْ يَا مُوسَى)، كما قال في سورة القصص، فَفَصل بين المنادي والمنادى بما يفيد البُعْد، وأمَرَه أيضا بما يفيد القرب بلا فاصل بينها في سورة النمل فقال: (أَلْقِ عَصَاكَ)، و لم يقل (أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ) لدلالة على قرب المأمور منه فناداه من قُرْب وأمره من قرب، وذلك أنه كان منه قريبا فانظر علوَّ هذا التعبير ورفعته." [3]

3- الحروف المتماثلة في سورة القصص.

قد تجتمع الحروف المتماثلة في الكلمة الواحدة، أو في كلمتين متتاليتين في القرآن الكريم، وهو ما يقتضي التعسُّر في النطق والثقل في اللفظ – بحسب مقاييس البشر- لكنَّ حروف القرآن، والكلمة منه تأتي خفيفة على السمع، ورقيقة في الكلام، أنيقة في التركيب، لايُصيبها في التأليف القرآني ما يُصيبها في التأليف البشري، فكلُّ حرف يصيب موقعه في الكلمة، ويقع موضعُه في اللفظ الموقعَ الحسن، ويكون من الذوْق بمكان، ولا عجب في ذلك فهو وضع الحكيم الخبير، وتنزيل من الرحمان الرحيم.

تأمَّل مثلا التقاء حرف(الهاء) مع (الهاء) بدون فاصل بينهما، أوحاجز يخفِّف من ثقل التكرار، وتنافر المماثلة في قوله تعالى:« قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (16) » [القصص: 16]، وكذلك التقاء حرف (الباء) مع (الباء) مع (الميم)، وهي حروف شفوية في قوله:« قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (17) » [القصص: 17]، أو التقاء (اللام) مع (اللام) في

---

1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل صالح السامرائي، ، دار عمار للنشر، عمان، الأردن، ط:3 ،1423هـ- 2003م، ص 106.

2) المرجع نفسه، ص106.

3) المرجع نفسه، ص 107.

قوله – عزَّ وجلَّ– :« قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (35)» [القصص: 35].

فمَع التقاء الحروف المتماثلة، وتكرُّر الأصوات المتقاربة خاصة حرف (الهاء) الحلْقي الذي يجد القارئ صعوبة في نطقه وحده فكيف إذا تكرَّر مرَّتين بدون فاصل بينهما، وكذلك تكرّر ثلاثة حروف شفوية دون فاصل بينها لكنَّ مع هذا الالتقاء والتكرُّر " لم نشعر بمرارة، أونحسَّ بمسِّ البرودة — وحاشا ذلك في كتاب الله تعالى– بل نجد المعاني البديعة، والنظم الرقيق الذي علا قدره في البلاغة، وأقرَّ له أصحاب الفطر السليمة، والسلائق المستقيمة بالحُسْن واللطافـــة." (1)

وندرك عن يقين سلامة الذوْق، وصحة الطبع، والفرق بين نظم القرآن الكريم كلام رب العالمين — وله المثل الأعلى– و بين غيره من كلام البشر، حينما نقرأ مثلا قول أبي تمام في المدح:

كريمٌ مَتَى أمدحْهُ أمدحْهُ والورَى معي و مَتَى لُمتُه لُمتُه وَحْـــدي (2)

"فإنَّ مجرَّد التقاء حرفين متقاربين في المخرج وهما (الحاء)، و(الهاء) في كلمة (أمدحه) عدَّه أصحاب الأذواق الرفيعة، والفطر السليمة من أولي الفصاحة، والبلاغة متعسِّرا في النطق، خارجا عن حدِّ الاعتدال نافرا كل النفار." (3)

وتأمَّل قوله تعالى: « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (7) » [القصص: 7]

هذه الآية جمعت ثماني همزات في مساحة صغيرة، ولو أنَّ هذه الهمزات نُثرت في كلام آخر غير هذه الآية لَمَا احتمله ولنأى به، حيث إنَّ الهمزة وهي حرف حلْقي من أصعب الحروف نطقا فمخرجها من أقصى الحلْق والنطق بها يتطلب جهدا كبيرا، لكنَّها جاءت في هذا النظم الكريم، ووقعت فيه موقعا مُتمكِّنا، لا قلق فيه ولا اضطراب.

وقد يكون لتكرار حرف الألف المديَّة في الآية– حيث ذُكرت هي الأخرى ثماني مرات– الأثر الواضح في تلطيف الثقل الذي أحدثته الهمزة المتكرِّرة، وبهذا توازنت كلمات الآية حيث جَمعت بين الثقيل والخفيف، ومع اجتماع الحرفين (الهمزة الثقيلة، والألف الخفيفة) وتوازنهما عدَّا أحدثا في كلمات الآية رقَّة ورشاقة، فَلَمْ نشعر فيها بتنافر، أونحسَّ بثقل، بل نجد في الآية سهولة، وعذوبة في السمع، ويُسْرا في المخرج.

ونقف على عظمة النظم في القرآن الكريم، وندرك سرَّ الروعة في وضع الحروف مواضعها بهذا الترتيب المحكم

---

1) من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن)، ص 32

2) ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عبده عزام، شرح الخطيب التبريزي، دار المعارف، القاهرة، 1964.

3) من أسرار التعبير في القرآن، (حروف القرآن)، ص33.

ينما نسمع قول الشاعر:

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْـــرُ وَ لَيْس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْـــرُ[1]

فهذه القافات، والراءات قد تكرَّرت وتقاربت فأكسبت الكلام ثقلا، وركّة، بَعُدت عن الفصاحة، ونأى البيت لأجله عن البلاغة، ولا يكاد أحد ينشده ثلاث مرات إلا عثر لسانه، وفي هذا ما يدلّ على بعده عن السلامة، وقربه من الغثاثة، والتنافر واضح في الشطر الأخير من البيت، ففيه ثلاثة قافات، وأربعة راءات، وأربع باءات.

4- صفات الحروف وعلاقتها بالمعنى.

إنّ القرآن الكريم يتخيَّر حروف الكلمة، وينتقي صفاتها، وأصواتها صافية الذوق في مخارجها، لذيذة السمع، طيِّبة المجرى على اللسان، معتدلةً في تأليفها، خفيفة في الفم، نازلة على أحسن هيئة في الإيقاع، قوِّية الإيحاء، شديدة البعث لما تتضمَّنه من المعاني المرادة، والأهداف المقصودة من الآية الكريمة " فنجد في تركيب حروفه تناسقا عجيبا بين الرخو منها، والشديد، والمجهور، والمهموس، والممدود، والمقطوع، ونرى أنّ اجتماعها إلى بعض يُألِّف نغَما مطربا، يَظهر أثره في صوت القارئ. " [2]

فحينما يريد القرآن الكريم أنْ يَنقل للناس صورة النار وهي مهتاجة غاضبة – على جهة التخويف والإنذار- يختار الحروف الدالة على هذه المعاني، والتي تُصوِّر بجرسها هذا العنف، وذلك الغضب، فالصورة الصوتية للحرف تُشكِّل المادة الأولى للقيَم اللفظية.

فمثلا حين نقرأ قوله تعالى: « يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ » [الرحمن: 35].

نجد حرفي(الظاء)، و(الشين) يصوِّران بجرسهما اللهب الصافي وهو يَلفح وجوه الكافرين.

وانظر إلى حرف(الزاي) وهو من حروف الصفير كيف يصور بجرسه الحادِّ الرنان حال جهنم مغتاظة في قوله تعالى: « إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا »[الفرقان: 12].

واقرأ معي قوله- عزَّ وجلَّ- :« إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ »[الملك: 7] تجد أنّ حرف (الشين) وهو من حروف التفشي يوحي بجرسه هو وحرف (الهاء) المهموس ويصوِّران معا النار في حالة غضب شديد تكاد تنقض على الكافر المعرض عن دعوة ربه سبحانه وتعالى.

وقد صار من الحقائق الواضحة في فقه اللغة، وعلوم العربية أنّ هناك نسبة كبيرة من الحروف يَرتبط صوتها بما تؤديه من معنى ارتباطا وثيقا " فإنَّهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف تدلُّ على سمت الأحداث المعبَّر بها عنها." [3]

---

1) ذكروا أن هذا البيت من شعر الجن، صاح به جني على حرب بن أمية فمات بفلاة.

2) من أسرار التعبير في القرآن (حروف القرآن)، ص 43

3) الخصائص أبي الفتح عثمان بن الجني، تحقيق محمد علي النجار، ، دار الهدى، بيروت، ط:2، 2| 151.

وفي سورة القصص نجد الكثير من الكلمات تُصوِّر فيها حروفها بجرسها المعنى المراد من الكلمة، ومن ذلك قوله تعالى « فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ »[القصص: 18].

ألاَ نجد في حرفيْ (السين)، و(الصاد) من الصفات ما تصوِّر حالة الإسرائيلي وهو فزع ينادي بأعلى صوته طالبا الغوث من موسى- عليه السلام- لينصره على عدوه القبطي، فحرفا (السين) و(الصاد) هما من حروف الصفير صوَّرا بصوتهما وجرسهما الحاد الرنان حالة الإسرائيلي وهو يستغيث يطلب النجدة، ولعلّ مما زاد في حِدّة جرس الحرفين أنَّهما جاءا ساكنين.

وتأمَّل قوله عزَّ وجلّ :« فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا »[القصص: 25].

تجد أنَّ حرفي (السين)، و(الحاء) وهما من حروف الهمس يصوران بجرسهما الهادئ حالة بنت شعيب- عليه السلام- لَمّا جاءت إلى موسى - عليه السلام- وما يبدو عليها من سمات الحشمة والحياء.

ولَمَّا أراد الله عزَّ وجلّ أنْ يصوِّر حالة عصا موسى -عليه السلام- بعد أن ألقاها وتحوَّلت إلى حيّة عظيمة، اختار حرف (الزاي) ليصوِّر بصفيره حركة الحية واضطرابها بين يدي موسى - عليه السلام- فقال تعالى: « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ »[القصص: 31].

وبصفات الحروف وعلاقتها بالمعنى أختم هذا المبحث لأنتقل إلى مبحث الإعجاز البياني في مفردات سورة القصص.

الإعجاز في المفردة

رأينا في المبحث الأوّل طرفا من مظاهر الإعجاز في الحروف القرآنية، ولا شكّ أنّ الحرف هو المادة الأوّلية لبناء الكلمة، فمن الحروف تتشكّل الكلمات، وتتكوّن المفردات، وإذا كان القرآن الكريم قد أولى العناية البالغة بالحرف حتى إنّنا لا نجد حرفا واحدا ينبو، أو يزيغ عمّا وُضع له، فما هو يا ترى حظّ المفردة القرآنية من العناية والاهتمام ؟ وما هي الخصائص التي تميّزت بها مفردات سورة القصص، والسمات التي ارتقت بها معارج السموّ ومقامات الكمال ؟.

أولا: أهمية المفردة وعناية القرآن بها.

قال الباقلاني في كتابه (إعجاز القرآن): " إنّ الكلام موضوعٌ للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك يجب أن يتخيَّر من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة عن المعنى المراد، وأوضح في الدلالة عن المعنى المطلوب، و لم يكن مُستكره المطلع على الأُذُن، ومستكره المورْد على النفس حتى يتأبّى بغرابته في اللفظ عن الإفهام، أويَمتنع عن الإبانة، ويجب أن يَتنكّب ما كان عليه اللفظ مُبتذل العبارة، ركيك المعنى، سَفْسَافي الوضع... وإنما فُضِّلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع... فقد أهملوا [أي العرب] الألفاظ المستكرهة وأسقطوها من كلامهم، فجرى لسانهم على الأعدل." (1)

إذا كان هذا مع الكلام العادي فما بالك بكلام رب العالمين، لذا نتبيَّن مدى أهميَّة المفردة في القرآن الكريم " من حيث إنها الوحدة المكوِّنة للآيات، وإنَّها عنصر فعَّال في توصيل المعنى إلى المتلقي بصورة بيانية، ومن حيث إن الكلام الرباني مُحكمٌ متماسكٌ، لا غِنى فيه عن مفردة، بل عن حرف." (2)

فلا عجب إذن أن نجد أن من أسرار الإعجاز القرآني، وأمارات التفوُّق التي تحلّى بها النص القرآني " أنْ نُزِّلت كلماته منازلها على ما استقرت عليه طبيعة البلاغة، وما قد يشبْه أن يكون من هذا النحو الذي تمكّنت به مفردات النظام الشمسي ... بحيث لو نُزِعت كلمة منه، أو أزيلت عن وجهها ثمّ أُديرَ لسان العرب كلّه على أحسن منها في تأليفها، وموقعها وسدادها، لم يتهيَّأ ذلك، ولا اتَّسعت له اللغة بكلمة واحدة." (3)

ولَمَّا كانت الكلمات هي اللبنة الأولى التي يقام عليها الصرْح البياني العتيد، نجد القرآن الكريم قد أوْلى المفردة اهتماما خاصًّا، وأحاطها بعناية فائقة، وأغدق عليها من معين الجلال، وسكب فيها من سحر الجمال، ما بلغت به المنزلة السامية المرموقة من الفصاحة.

---

1) إعجاز القرآن، الباقلاني، ص 137.

2) جماليات المفردة القرآنية في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، دار المكتبي، ط:1، 1415هـ- 1994 م، ص327.

3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، ص 159.

" إنّ دارس لفظة القرآن يلمس روعة ما فيها من ا حال والفنّ، وصورة الإبداع التي تُشعُّ منها، وظلال المشاهد الحية، وقوّة الحركة فيها، ومقدار ما تَملكه من السيطرة على الوجدان، والمخيِّلة، ومدى إثارتها وتأثيرها على النفس، وفتح الآفاق لِتَحلّ اللفظة مكان ريشة رسّام مبدع، فتصوِّر بالألوان، والخطوط، وتنقش فيها الحياة، ليعيش الدارس على أرضٍ خصبة تموج بالحركة و لإثارة، وبالتصويرالمتنوِّع." (1)

لقد احتوى القرآن الكريم أفصح الألفاظ روعة وتـ ير يتلقّاها السمع بقبول حسن " فأيّ مفردة منه تناولْتها بالفحص وجدت حروفها متلاقية متآلفة، وتجد في مفرداته البليغ الرصين الجزل في موطنه، والفصيح القريب في موطنه، ولو استعرضته مرارا وتكرارا ما رأيت فيه البتّة لفظا حوشيا موحشا، ولا هجينا مذموما أو ثقيلا كريها، مما تَنفر منه الطباع المهذّبة، أو تَمجُّه الأسماع المرهفة." (2)

ثانيا: خصائص المفردة القرآنية في سورة القصص.

لاشك أن لِحاف الإعجاز القاهر، والجمال الباهر الذي تدثّرت به مفردات سورة القصص قد أحكمتْ نسْجُه ما توفّرت عليه تلك المفردات من خصائص، ومميِّزات كانت بمثابة الأجنحة التي حلّق بها التعبير في آفاق الإبداع، وهي السمات التي تفتقر إليها الأعمال الأدبية مهما أوتي أصحابها من حظوظ البيان، ومهما حازوا من ملكات فطرية ونبوغ خلاّق، وسنَعرض في هذا المطلب بعض خصائص المفردة القرآنية في هذه السورة.

1- الإيحاء والتصوير الفني.

ألفاظ القرآن الكريم ألفاظٌ موحية ومعبِّرة، تمنح النفس مفاتيحَ للدخول إلى جنان الكتاب المبين، وتَترك المخيِّلة سابحة سارحة في روضاته العبِقات تجني ثمرا مختلفا ألوانه، وتجتلي لطائف الصوَر، والمعاني.

" إنّ الإيحاء في القرآن الكريم صفة ملازمة لألفاظه، تقوم بتدقيق معالم الصوَر التي تعرضها الآية، وتدع المخيِّلة سابحة في أبعاد المعاني وأهدافها، إنّ القارئ يستطيع بحُكم ما تَملكه لفظة القرآن من قوّة في الإيحاء أن يغوص في المعنى الباطني للآية، وأن يفتح آفاقها، ويلج في منعرجاتها، وما تخفيه من أسرار ومعاني دقيقة." (3)

تأمّل معي مثلا كلمة (اثّاقَلْتُمْ) من قوله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (38) »[التوبة: 38].

تجد أن هذه المفردة استطاعت أن تصوِّر- لوحدها- بجرسها، وتوحي بظلالها الحالة النفسية الانهزامية للمنافقين عندما ينادي منادي الجهاد.

إنّنا " حين ندرس الأداء الصوتي الذي قامت به لفظة (اثّاقَلْتُمْ) بكل ماتكوّنت به من حروف، ومن صورة

---

1) الإعجاز الفني في القرآن الكريم، عمر سلامي، مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1980م ص 72.

2) بيانات المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر، دار النصر، سوريا، ط:1، 1395هـ- 1975م، ص244.

3) الإعجاز الفني في القرآن، عمر سلامي، ص 99.

ترتيب هذه الحروف، ومن حركة الشَّدة على حرف الثاء، والمدِّ بعده، ثمَّ مجيء القاف الذي هو أحد حروف القلقة، ثم التاء المهموسة، والميم التي تنطبق عليها الشفتان، ويخرج صوتها من الأنف، ألا تجد نظام هذه الحروف وصورة أداء الكلمة ذاتها أوْحت إليك بالمعنى قبل أن يَرِد إليك من جهة المعاجم ؟.

ألا تلاحظ في خيالك ذلك الجسم المتثاقل يرفعه الرافعون في جهد فيسقط في أيديهم فيثقل؟ ألا تلاحظ أن البُطء في لفظة الكلمة ذاتها يوحي بالحركة البطيئة التي تكون من المتثاقل؟." (1)

لو نحاول استبدال لفظ (اثَّاقَلْتُمْ) بلفظة (تثاقلتم) مثلا فإنَّنا نحسُّ بشيء من الخفَّة، والسرعة في نطقها، بل وبنشاط توحي به هذه الأخيرة بسبب رصْف حروفها، وزوال الشَّدة على حرف الثاء، فالبلاغة إذن تكون في استعمال لفظ (اثَّاقَلْتُمْ) للمعنى المراد، ولا تكون في لفظ (تثاقلتم).

ولو عُدنا إلى سورة القصص لوجدنا الكثير من الكلمات التي تصوِّر بجرسها، وتوحي بظلالها المعنى المراد إيصاله إلى قلب القارئ.

فمن ذلك قوله عز وجل: « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ »[القصص: 18].

إن لفظ (يَتَرَقَّبُ) " يصوِّر هيئة القلق الذي يتلفَّت، ويتوجَّس، ويتوقَّع الشرّ في كل لحظة... والتعبير يُجسِّم هيئة الخوف، والقلق بهذا اللفظ، كما أنه يُضخِّمها بكلمتيْ (فِي الْمَدِينَةِ) فالمدينة عادة موطن الأمن، والطمأنينة فإذا كان خائفا يترقَّب في المدينة، فأعظم الخوف ما كان في مأمن ومستقر." (2)

فموسى- عليه السلام- بعد أن قتل القبطي أصبح في المدينة خائفا على نفسه من جنود فرعون، لذا كان يمشي فيها بتمهُّل إلاَّ أن هناك تَلَفُّتا منه بين الفينة والأخرى، فيُقاسم حركتَه المشيُ والوقوف الحذِر، ولعلَّ هذا المشهد الكامل صوره لفظ (يَتَرَقَّبُ) بتوالي الفتحات الثلاث مُصوِّرة الحركة البطيئة لموسى- عليه السلام- ثم تَتْبعها شَّدة فوق حرف (القاف) تُحبس عندها الأنفاس، ويقف معها موسى- عليه السلام- وقوف الحذِر المتلفِّت يمينا وشمالا.

وانظر إلى كلمة (المقْبُوحِينَ) كيف تَرسم- لوحدها- في ذهن السامع صورة القُبح، والتشنيع بحال الكافرين، وتَخلق جوًّا من التقزُّز، والاشمئزاز لمصيرهم المحتوم في قوله تعالى: « وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) »[القصص: 42].

إن لفظة (المقْبُوحِينَ) قد استُعملت أدقَّ استعمال لبيان حال الكافرين يوم القيامة، فهُم في صورة قبيحة فضيعة، ويُستمدُّ قُبْح حالهم من حرفيْ (القاف)، و(الحاء)، فحرف القاف حرف قويٌّ من الحروف المجهورة الشديدة، وجاء ساكنا مُقلقلا أحدث نبرة قويَّة أوحت بقُبْح حال الكافرين يوم القيامة، فإذا أضيف له حرف الحاء الاحتكاكي الذي يوحي بشيء من مظاهر التقزز والاشمئزاز تَكتمل الصورة المخزية لحال فرعون وجنوده يوم القيامة.

---

1) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص79.

2) في ظلال القرآن، سيد قطب، 5 | 2683

وفي موضع آخر لَمَّا يريد القرآن الكريم أن يَنقل إلينا كيف أن الله – عزَّ وجلَّ- ثبَّت قلب أم موسى- عليه السلام- بعد أن ألقت به في اليمِّ يأتي بلفظ (رَبَطْنَا) في قوله تعالى: « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) »[القصص: 10].

إنَّ الربط يدلُّ على القوَّة، وشدَّة الإحكام، ولعلَّ هذه القوَّة مستمدَّة، ومستوحاة من حرف (الراء) المشدَّد، فالراء بعد أن أُدغم فيه حرف (النون) الساكنة أصبح مُشدَّدا، فعندما نقرؤه نراعي فيه صفة التكرار [1] فلا نترك طرف اللسان يرتعد بل نربط عليه حتى ننطق راء واحدا غير مكرَّر، ورَبْطنا على طرف اللسان في هذه الحالة وعدم تركه يرْتعدُ يوحي بالربط القوي الذي ربطه الله- عزَّ وجلَّ- على قلب أم موسى – عليه السلام- و لم يتركه خائفا يرتجف.

ومثل هذا التحليل يُمْكن إسقاطه على لفظ (تَقرَّ) في قوله تعالى: « فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) »[القصص: 13].

إن لفظ (تَقرَّ) جاء فيه حرف(الراء) مشدَّدا فنُراعي عند النطق به عدم ترك اللسان يرتعد إشارة إلى حالة الطمأنينة، والراحة النفسية، والاستقرار الذي عرفتْه أم موسى – عليه السلام- بعد أن عاد إليها وليدها.

ومن الألفاظ التي يصوِّر جرسُها المعنى تصويرا دقيقا لفظ (رَآدُّك) في قوله تعالى: « إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ (85) »[القصص: 85].

إننا نستطيع أن نلمس قوَّة وثقة المتكلِّم- وهو الله عزَّ وجلَّ- في هذه الآية بأنه سيَرُدُّ نبيه محمدا- صلى الله عليه وسلم- إلى بلده الأول مكة منصورا عزيزا مؤزَّرا، وذلك من خلال كلمة (لَرَآدُّك)، فقد جاء حرف (الدال) بشدَّته وجهره دالا على القوة الكافية التي يمكنها أن تَردَّ محمدا-صلى الله عليه وسلم- إلى مكة بعد أن أُخرج منها خائفا طريدا، ومما زاد الكلمة قوة الشَّدة التي فوق (الدال).

هذا وقد جاء المد الطويل في حرف الألف [2] الذي يدلُّ على طول المدَّة التي سيقضيها النبي – صلى الله عليه وسلم- بعيدا عن وطنه- ثماني سنوات- لكنَّه في آخر الأمر سيعود إليه، لذلك جاء حرف (الدال) مشدَّدا بعد حرف المد الطويل كأن الله- عز وجل- يقول لنبيه مهما طالت مدَّة غربتك عن وطنك ستعود إليه عزيزا منتصرا.

2- بنية الكلمة في التعبير القرآني.

يَستعمل التعبير القرآني بنية الكلمة استعمالا دقيقا في غاية الجمال والروعة، ومن ذلك استعمال الفعل والاسم، فمن المعلوم أن الفعل يدلُّ على الحدوث، والتجدُّد، و الاسم يدلُّ على الثبوت والاستقرار، تقول مثلا هو يتعلَّم وهو مُتعلِّم، فالفعل يتعلَّم يدل على الحدوث والتجدُّد أي هو آخذ في سبيل التعلُّم بخلاف الاسم مُتعلِّم

---

1) التكرير هو ارتعاد طرف اللسان عند النطق بحرف الراء مشددا وهي صفة يجب تفاديها أثناء التلاوة.

2) يسمى في علم التجويد بالمد اللازم الكلمي المثقل ويمد بمقدار ست حركات أي ما يعادل ثلاث ثواني.

فإنَّه يدل على أنَّ الأمر تمَّ وثبت، وأنَّ الصفة تمكَّنت في صاحبها، فالفعل إذن يدل على الحدوث والتجدد، والاسم يدل على الثبوت والاستقرار.

وقد استعمل القرآن الكريم الفعل، والاسم استعمالا فنيًّا في غاية الدقَّة والجمال فمن ذلك قوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (95) »[الأنعام: 95].

لقد استعمل الله-عزَّ وجلَّ- الفعل (يُخْرِجُ) مع الحيِّ، وجاء بالاسم (مُخْرِجُ) مع الميت " وذلك لأنَّ أبرز صفات الحي الحركة، والتجدُّد فجاء معه بالصيغة الفعلية الدالة على الحركة والتجدد، ولأنَّ الميت في حالة همود وسكون وثبات جاء معه بالصيغة الاسمية الدالة على الثبات فقال (وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ)." [1]

ومن ذلك ما ورد في سورة القصص في قوله تعالى:« وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) »[القصص: 59].

فقد استعمل التعبير القرآني الاسم (ظَالِمُون) دون الفعل (يَظْلِمون) وذلك لأنَّ الظلم كان وصفا ثابتا مستقرا في تلك القرى، ولم يكن طارئا عليهم فاستحقوا الهلاك بهذا الوصف السيِّئ.

فالظلم إذن هو سبب من الأسباب الثابتة في إهلاك الأمم فجاء بالصيغة الاسمية دون الفعلية لدلالة على ثبات هذه السُّنة الكونية.

وانظر إلى قوله تعالى في وصف الشيطان: « قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ»[القصص: 15].

فقد جاء بالاسم (مُضِلٌّ)، وجعله وصفا ثابتا للشيطان لا ينْفكُّ عنه، كما وصفه في آية أخرى أنَّه متجدِّد الإضلال فجاء بالفعل في قوله: « وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (3) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (4) »[الحج: 3، 4].

لقد جعل الله- عزَّ وجلَّ- الإضلال وصفا ثابتا، ومتجدِّدا للشيطان الرجيم، لذلك يُعبِّر عنه تارة بالصيغة الاسمية، وتارة بالصيغة الفعلية، في حين لَمَّا يَذكر الله تبارك وتعالى الإضلال، ويُضيفه إلى نفسه لا يَذْكره إلاَّ بالصيغة الفعلية فقط للدلالة على أنَّ هذا الأمر طارئ غير ثابت في وصف الله، يفْعلُه من يستحقُّه من العباد، ولم يُسند الله – عزَّ وجلَّ – الإضلال إلى نفسه بالصيغة الاسمية مطلقا، وفي هذا دليل على أنَّ هذا الأمر ليس من الصفات الثابتة لله تعالى، و ليس من نعوته فقال: « كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ » [غافر: 34]، وقال:«كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ » غافر: 74]، وقال: « وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» [البقرة: 26] فانظر إلى هذا الاستخدام الدقيق لبنية الكلمة في التعبير القرآني للتدليل على المعنى المراد بدقّة.

---

1) التعبير القرآني، فاضل السامرائي، ص 23.

3- الدقة المتناهية والإحكام البالغ في اختيار المفردة.

إنّ اتّصاف القرآن بالدقّة المتناهية، والإحكام البالغ في اختيار مفرداته تُفسِّره شمولية العلم الإلهي، وإحاطته بكُنْه اللغة العربية، وأسرارها، واستعمالاتها، لذلك جاءت مفردات هذه السورة- كغيرها من سور القرآن الكريم- حاملة الطابع الرباني المعجز، ومُتَّسمة بالدقّة المتناهية في الانتقاء والوضع.

لقد" امتازت العربية بوفْرة كلماتها في المعنى الواحد، وعلى الرغم من ذلك فإنّ بين ألفاظها فروقا دقيقة في دلالاتها، فإذا أنعمت النظر في كتاب الله المجيد، وجدته يورد كل لفظ ببراعة فائقة حتى يؤدّي معناه بدقة بليغة...وأمثلة هذا كثيرة، وفيرة لا تكاد تُحصى، وهي جميعا تنبئك أن كل لفظة قد استقرّت في موضعها، وعبَّرت عن المعنى المراد باستيفاء تام لا تَقْدر عليه كلمة أخرى غيرها إذا أُدرجت في مكانها، والتزام الدقّة مع مراعاة دلالات الألفاظ، وإيرادها مواردها بالبراعة الفائقة على النحو الذي وصل في القرآن المبين أمرٌ تعجز عنه الخلائق." [1]

ومن أمثلة ما وردت فيه المفردة متناهية في دقّة الاختيار في سورة القصص قوله تعالى: « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) »[القصص: 4].

لماذا اختار التعبير القرآني لفظ (نِسَائِهِمْ) بدل لفظ (بَنَاتِهِمْ) في قوله: (يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ)؟ لماذا لم يقل سبحانه (يَسْتَحْيِي بَنَاتِهِمْ) بدلا من (يَسْتَحْيِي نِسَائِهِمْ) ليقابل لفظ البنات لفظ الأبناء فتَحْسُن المقابلة في الآية وهي حِلْية لفظيَّة مرغوب فيها؟.

" في اختيار كلمة (نِسَائِهِمْ) في الآية بدلا من (بَنَاتِهِمْ) سرٌ بلاغي عظيم، إذ في لفظ (النساء) إشارة إلى الوصف الذي من أجله استحيى فرعون البنات، وهو بقاؤهن حتى يكبرْن، ويتطلعن لطلب الرجال فلا يجدْن، فيحتقرونهنَّ و يذلونهنَّ لبقائهنَّ بغير رجال، فيَصِرْن مُفترشات لأعدائهنَّ، ويتعلّق العار بهنَّ.

كما أنّ البنات في حال صغرهنَّ لا مؤونة منهن، ولا مشقّة، و إنَّما تَلحق المؤونة، والمشقّة أبائهنَّ إذا كبرْن وصرْن نساء." [2]

إنّ فرعون كان يقتل الذكور من أولاد بني إسرائيل، ويبقي على البنات، فأُطْلق على البنات اسم النساء " باعتبار المآل إيماء إلى أنَّه يستحييهنَّ ليصرْن نساء، فتَصْلحنَّ لِمَا تَصلح له النساء، وهو أن يصرْن بغايا إذ ليس لهنَّ أزواج، وإذا كان احتقارهنَّ بصَدِّ قومه عن التزوُّج بهنَّ، فَلَمْ يبْق لهنَّ حظٌّ من رجال القوم إلاَّ قضاء الشهوة، وباعتبار هذا المقصد انقلب الاستحياء مفسدة بمنزلة تذبيح الأبناء إذ كلٌّ ذلك اعتداء على الحق." [3]

---

1) بيانات المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر، ص 252.

2) من أسرار التعبير في القرآن (صفاء الكلمة)، عبد الفتاح لاشين، ص 187.

3) التحرير و التنوير، طاهر بن عاشور، 10 | 158.

فلهذا السرِّ العظيم، وذلك المعنى الجليل عبَّر القرآن الكريم بلفظ (النساء) دون لفظ (البنات)، وفوَّت بذلك جمالَ المقابلة بما هو أجمل منه، وأوقعْ في النفْس وهو جمال المعنى، وسمو الغرض.

ومن ذلك اختيار التعبير القرآني لفظ المرأة دون لفظ الزوج في قوله تعالى: « وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ (9) »[القصص: 9].

لماذا عبَّر المولى تبارك وتعالى عن آسيا امرأة فرعون بلفظ (المرأة) دون لفظ (الزوج) مع أنَّ المعنى في الظاهر يبدو واحدا؟.

يقول ابن القيم: " إنَّ السرَّ في ذِكْر المؤمنين ونسائهم بلفظ الأزواج [يقصد في قوله تعالى:« إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ (55) هُمْ وَ ْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ »[يس: 55-56]]،أنَّ هذا اللفظ مشعرٌ بالمشاكلة، والمجانسة، والاقتران كما هو المفهوم من اللفظة، فإنَّ الزوجين هما الشيئان المتشابهان المتشكلان، والمتساويان... ومنه قوله تعالى « وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ (7) »[التكوير: 7]،أي قرن بيْن كلِّ شكْلٍ، وشكله في النعيم، والعذاب، قال عمر بن الخطاب – رضي الله عنه- في هذه الآية: الصالح مع الصالحة في الجنة، و الفاجر مع الفاجرة في النار.

ولاريب أن الله سبحانه قطع المشابهة، والمشاكلة بين الكفار والمؤمنين قال تعالى: « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (20) »[الحشر: 20]، وقطع الله سبحانه المقارنة بين المؤمنين، والكفار في أحكام الدنيا، فلا يتوارثان ولا يتناكحان، ولا يتولّى أحدهما صاحبه، فكَمَا انقطعت الصلة بينها في هذا المعنى انقطعت في الاسم، فلم يجيء التعبير بلفظ الزوج الذي يدلُّ على المشاكلة والمشابهة، ولهذا وقع على المسلمة امرأة الكافر كامرأة فرعون، وعلى الكافرة امرأة المؤمن كامرأة نوح و لوط- عليهما السلام- لفظُ المرأة دون الزوج تحقيقا لهذا المعنى."[1]

وهكذا نجد أنَّ لفظ الزوج حينما يورد في التعبير القرآني تكون المشابهة بين الطرفين ظاهرة، والمشاكلة واضحة، والتساوي والتناسب بين الجانبين مُشاهدا، أمَّا لفظ المرأة فإنَّه يأتي عموما حينما تكون المشابهة بين الجهتين غير مُمْكنة والتناسب غير واقع، والتساوي مستحيل، والمشاكلة غير واردة لذلك اختير لآسيا لفظ امرأة فرعون دون لفظ زوجة فرعون لأنَّ التباين بين آسيا وفرعون واضح عقيدة، وقولا، وعملا.

وأما ذِكْر لفظ المرأة في قوله تعالى على لسان زكريا: « وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا(5) »[مريم: 5]، وفي قصة إبراهيم – عليه السلام - « فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) »[الذاريات: 29] لأنَّ لفظ المرأة في هذا الموضع أَلْيَقْ لسياق الكلام" لأنَّه في

---

1) التفسير القيم لابن القيم،ابن القيم، بيروت، دار الفكر، ص 132، 133 .

سياق ذكر الحمْل و الولادة، فذكْر لفظ المرأة أولى به، لأنّ صفة الأنوثة هي المقتضية للحمْل، والوضع لا من حيث كانت زوجا." [1]

والقرآن الكريم في عمليَّة اصطفاء الألفاظ، وانتقائها " قد يختار لفظا في بعض الآيات ليؤدي معنى مُعيَّنا، وفي الغرض نفْسه يختار لفظا آخر، فيتوَّهم السامع أنّ اللفظين سواء في الدلالة مثلان في المضمون فيقع تحت وطأة الشك، ويتساءل لماذا عبَّر بهذا اللفظ هنا، وعبَّر بهذا اللفظ هناك. " [2]

ومن ذلك اختيار لفظ استوى في وصف موسى عليه السلام- في قوله تعالى: « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (14) »[القصص: 14].

لكنَّه أسقطه في وصف يوسف- عليه السلام- في قوله تعالى: « وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (22) »[يوسف: 22].

لماذا ذكَر التعبير القرآني لفظ (استوي) مع موسى- عليه السلام-، وأسقطه مع يوسف- عليه السلام- مع أنّ المعنى في الظاهر يبدو واحدا، وما الذي أوْجب اختصاص كلاً من الجملتين باللفظ الذي اختصَّ به؟.

يقول الدكتور عبد الفتاح لاشين: " إنّ بلوغ الأشُدِّ أنْ يَبْلغ الرجُل خمسا وعشرين سنة، وقيل ثلاثا وثلاثين، وقيل غير ذلك حتى قيل إنَّه الاحتلام لأنّ الغلام إذا بلغ حُسبت أعماله وكُتبت حسناته وسيئاته، والاستواء أنْ يبلغ أربعين سنة.

وقد أخبر الله تعالى أنه أوحى إلى يوسف - عليه السلام- حين طرحُه إخوته في الجبِّ قال تعالى: «فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ»[يوسف: 15]، وأراه الله الرؤيا التي قصَّها على أبيه في قوله: « إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ (4) »[يوسف: 4]، وقد كان هذا في سنٍّ مبكِّرة.

فلمَّا كان يوسف – عليه السلام- أوتي ما أوتيه من الحُكْم، والعلم قبل وصوله إلى الأربعين الذي هو وقت الاستواء جاء التعبير في قصة يوسف – عليه السلام- خاليا من لفظ (استوى)، وأمَّا موسى – عليه السلام- فإنَّه لم يَعلم ما أريد به من النبوة إلاّ بعد أن استأجره شعيب- عليه السلام-، ومضت سنون إجارته، وسار بأهله وآتاه الله ما آتاه من الكرامة، وذلك بعد الأربعين، ولهذا أسقط التعبير القرآني لفظ الاستواء في قصة يوسف - عليه السلام-، وذكرها في قصة موسى – عليه السلام-. " [3]

---

1) من أسرار التعبير القرآني (صفاء الكلمة)، ص 106.

2) المرجع نفسه ص 152.

3) المرجع نفسه ص 164-165.

ومن ذلك زيادة لفظ (زِينَتُهَا) في قوله تعالى:« وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا»[القصص: 60]، وعدم ذكرها في سورة الشورى « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا»[الشورى: 36].

فلماذا هذه الزيادة مع أن الظاهر أنَّ الكلام عن متاع الدنيا الفاني؟.

جاء في معترك الأقران " فإنْ قلتَ ما وجْهُ زيادة الزينة في هذه السورة [أي سورة القصص] على آية الشورى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)؟.

والجواب لورود ذكرها في قوله تعالى: (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ)- أي قارون- فالْتحمتْ الآية بتلك القصة، ولم يَرِدْ في سورة الشورى من أوَّلها إلى آخرها حال دُنيويٌ لأحد، بل تضمَّنت حقارة الدنيا، ونزارة رزقها و أنَّه مقدورٌ، وغير مبسوط، وتلك حال الأكثر." (1)

فانظر إلى دقّة التعبير القرآني، فلمَّا ذَكَر تعالى حال قارون وأنَّه خرج في زينته التي فَتنت ضعاف الإيمان ذَكَر الزينة في حال حديثه عن حقارة الدنيا فقال: (مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا)، بينما في سورة الشورى لم يذكر حالا دنيويا لأحد من الناس فاكتفى بذكر متاع الدنيا فقط، فراعى اللفظ السياق العام للسوريتين.

4- التكرار والحذف.

تكرَّرت بعض المفردات في القرآن الكريم بشكل لافت للانتباه داعٍ للتأمُّل، وظاهرة التكرار خاصيَّة مميَّزَة في التعبير القرآني، تُعدُّ حجَّة للكتاب المبين، وبرهانا على إعجازه، وحسنة تزيد من جمالية الأداء، ورونق التعبير.

وإذا تأمَّلنا سورة القصص وجدنا أمثلة رائعة لظاهرة تكرار المفردات، وما كان ذلك التكرار اعتباطا، بل خدمة للغرض يستوجبه ويقتضيه السياق " والكلمة في الحقيقة قد تتكرَّر ثلاث مرَّات أوأربع مرَّات في جملة واحدة إذا كان لا يُغني عنها غيرها، لأنَّ الكلمات تَبعٌ للمعاني، وليس العكس." (2)

فعندما نقرأ قوله تعالى: « وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) »[القصص: 62-63].

نجد تكرارا لكلمة (أغوى) التي وردت في الآية ثلاث مرَّات على الشكل (أَغْوَيْنَا- أَغْوَيْنَاهُمْ – غَوَيْنَا) وهي في تكرارها إضافة إلى صنع أجواء الحسرة، والتهرب من المسؤولية، وإشاعة لمعاني الندم، والفزع الذي أصاب

---

1) معترك الأقران في إعجاز القرآن، 3| 422.

2) الإعجاز اللغوي في قصص نوح -عليه السلام – في القرآن، د عودة الله منيع القيسي دار عمار للنشر و التوزيع، عمان، الأردن، ط:1، 1422 هـ، 2002 م، ص 101.

المشركين، فهي تتلاءم في تناسق كبير مع السياق والمعنى العام للسورة فقد قال تعالى: « وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ »[القصص: 64].

قال صاحب التحرير و التنوير " و إنَّما لم يَقتصر على جملة (أَغْوَيْنَاهُمْ) بأنْ يُقال: هؤلاء الذين أغويناهم كما غوينا لِقصد الاهتمام بذِكْر الإغواء بتأكيده اللفظي، وبإجماله في المرَّة الأولى، وتفصيله في المرَّة الثانية فليس إعادة الفعل (أَغْوَيْنَا) لمجرَّد التأكيد.. ولو قال: هؤلاء الذين أغوينا أغويناهم، لم يُفِدْ القول شيئا، لأنَّه كقولك الذي ضربتُه ضربتُه، والتي أكرمتُها أكرمتُها، ولكن لَمَّا اتَّصل بـــ (أَغْوَيْنَاهُمْ) الثانية قوله: (كَمَا غَوَيْنَا) أفاد الكلام كقولك الذي ضربتُه ضربتُه لأنَّه جاهل." (1)

وجملة (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَاغَوَيْنَا) استئنافٌ بياني لجملة (الَّذِينَ أَغْوَيْنَا) لأنَّ اعتراف المشركين بأنَّهم أغووا، وأضَلُّوا أتباعهم يُثير في نفس السامع تساؤلا مُحيِّرا كيف يُقِرُّون، ويعترفون بِمِثْل هذا الجُرْم مع أنَّ المتعارف عليه أنَّ المجرم في مثل هذه الحالة يَدفع التهمة عن نفْسه، ويُنكر ذلك جُملة وتفصيلا.

والجواب- والله أعلم- أنَّ المشركين لَمَّا اعترفوا بأنَّهم أغوَوُا، وأضَلُّوا أتباعهم كان هذا تمهيدا منهم لبيان الباعث على عملهم هذا، وهو أنَّهم تَلقَّوا الغواية من غيرهم ممن سبقهم، أيْ أنَّهم لم يَبتدعوا دين الشرك، وإنَّما تلقَّوْه عن سَلَفِهم، وهُم يحسبون أنَّ هذا الجواب كفيلٌ بدفع التبِعة عنهم لذلك قالوا: (أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا) ويتوهَّمون أنَّ السيْر على آثار الغاوين يُبرِّر الغواية، و يخفِّف عنهم العذاب بقرينة قولهم: « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) »[القصص: 63]، وتقسم لفظ (إِيَّانَا) على لفظ (يَعْبُدون) دون قولهم:(يعبدوننا) للاهتمام بهذا التبرؤ، لكن هيهات أن يُقبل منهم ذلك.

وفي مقابل التكرار نجد الحذف، وهو الآخر ظاهرة بارزة في أسلوب القرآن الكريم " فقد يَحذف التعبير القرآني كلمة، وكلُّ ذلك لغرضٍ وليس اعتباطا، فالتعبير القرآني تعبير فنيٌّ مقصود، كلُّ كلمة، بل كلُّ حرف إنَّما وُضع لقصدٍ." (2)

وليس عجيبا أن تنطوي عمليَّة الحذف هذه على معانٍ جليلة في الكتاب الذي أُحكمت آياته، فمن بين الحذف الذي وقع في سورة القصص حذْف المفعول به في قوله تعالى:« وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (23) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (24) »[القصص: 23-24].

---

1) التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور، 10 | 158.

2) الإعجاز اللغوي في قصص نوح -عليه السلام – في القرآن، د عودة الله منيع القيسي، ص39.

ففي هذين الآيتين حُذف المفعول به (غَنَمَهُمَا) في أربعة مواضع إذ المعنى (وجَد عليه أمَّة من الناس يَسقون أغنامهم، أو إبلهم)، و(ا ِأتين تذودان غنمهما)، و(قالتا لا نسقي غنمنا)، (فسقى لهما غنمهما).

فما السرُّ في حذف المفعو ، في هذه المواضع يا ترى؟.

يقول عبد القاهر الجرجاني في نكتة حذف المفعول، والاقتصار على ذكر الفعل فقط : " هو توفير العناية على إثبات الفعل، والدلالة علِ أنَّ القصد من ذِكر الفعل أن تُثبته لفاعله لا أن تُعْلِم التباسه بمفعوله... ثمَّ إنه لا يَخفى على ذي بصرٍ أنه ا س في ذلك كلِّه أن يُترك ذِكره [أي المفعول] ويُؤتى بالفعل المطْلق، وما ذاك إلاَّ أنَّ الغرض في أن يُعْلَم أنه كا ، من الناس في تلك الحال سَقيٌ، ومن المرأتين ذوْد وأنهما قالتا: لا يكون منَّا سقيٌ حتى يَصدر الرعاع، وأنه كان ن موسى – عليه السلام – من بعد ذلك سقيٌ، و أمَّا ما كان المسقيُّ؟ أغنماً أمْ إبلاً أم غير ذلك، فخارج عن لغرض، ومُوهِم خلافه، وذلك لو قيل: (وجد من دونهم امرأتين تذودان غنمهما) جاز أن يكون لم يُنكر الذوْد م ن حيث هو ذوْدُ غنم، حتى ولو كان مكان الغنم إبلٌ لم يُنكر الذود كما أنَّك إذا قلت: (مالَك تَمنع أخاك) كنتَ مُنكرا المنع لا من حيث هو المنع، بل هو منْع الأخ فاعرفه تَعلم أنك لم تَجد حذف المفعول في هذا النَّ و من الروعة، والحسن ما وجدتَ، إلاَّ لأنَّ في حذفه وترك ذكره فائدة جليلة، وأنَّ الغرض لا يصحُّ إلا على ت كه." [1]

إنَّ التعبير القرآني تعبيرٌ فنيٌّ مقصود، كل لفظة، بل كل حرف فيه وضع وضعا فنيًّا مقصودا، و لم تُراعَ في الوضع الآيةُ وحدها، ولا السورة وحدها بل رُوعي التعبير القرآني كله، فانظر هذه الدقَّة في اختيار المفردات ورصفها إلى بعضها البعض، وهذا الحسن في التنسيق أليْس الذي قال ذلك بأحكم الحاكمين؟ بلى وأنا على ذلك من الشاهدين.

ثالثا– مقارنة بين مفردات قصة موسى – عليه السلام – في سورتي القصص والنمل.

تُعدُّ قصة موسى– عليه السلام– من أكثر القصص ورودا في القرآن الكريم، والملاحظ أنَّ فصولا كثيرة من أحداث هذه القصة يتكرَّر في أكثر من سورة من سوَر القرآن الكريم لكن بتعابير مختلفة، ومن بين السوَر التي ذُكرت فيها قصة موسى – عليه السلام – سورتيْ القصص، والنمل، وسأحاول في هذا المطلب بيان الفروق البيانية بين مفردات القصة في السورتين الكريمتين.

أ– قصة موسى – عليه السلام – في سورة القصص.

قال تعالى: « فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِه آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِه امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ

---

1) دلائل الإعجاز عبد القاهر الجرجاني ، ص 161-162.

رَبُّ الْعَالَمِينَ (30) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31) اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (32) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) »[القصص: 29-33].

ب- قصة موسى – عليه السلام – في سورة النمل.

قال تعالى: « وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (8) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (9) وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ (10) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (11) وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (12) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (13) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (14) »[النمل : 6-14].

من هذين النصين نتبيَّن طائفة من الاختلافات في التعبير، وفي استعمال المفردات مع أنَّ الحدث واحد وهو قصة موسى- عليه السلام- يُمْكن رصدها فيما يلي:

سورة القصص:	**سورة النمل:**
آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا	ــــــــ
امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا	إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ	سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ
أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ	أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ
فَلَمَّا أَتَاهَا	فَلَمَّا جَاءَهَا
نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ	نُودِيَ أَنْ بُورِكَ
ــــــــ	وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
أَنْ يَا مُوسَى	يَا مُوسَى
إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ	إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ	وَأَلْقِ عَصَاكَ

جمعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ	يَا مُوسَى لَا تَخَفْ
إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ	إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ
	إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ
اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ	وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ
فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ	فِي تِسْعِ آيَاتٍ
وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ	
إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ	فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ

من خلال ما سبق تتبيَّن الاختلاف بين المفردات التي عبَّر بها القرآن الكريم عن فصلٍ من فصول قصة موسى – عليه السلام– في سورتي القصص، والنمل، وقبل الشروع في ذكر أسرار هذا الاختلاف بين مفردات كلٍّ من السورتين لا بُدَّ أوَّلا من ذكر أمرين هامَّين يتعلَّقان بخصائص، ومميِّزات قصة موسى– عليه السلام– في كلتا السورتين.

الأمر الأول:

إنَّ الآيات التي ذكرتْها من سورة النمل– من الآية 6 إلى الآية 14– هو كل ما ورد من قصة موسى – عليه السلام– في هذه السورة، أمَّا الآيات التي ذكرتْها من سورة القصص– من الآية 29 إلى 33– فهو جزء يسير من قصة موسى– عليه السلام– فقد جاءت القصة مُفصَّلة في السورة ابتداء من قبل ميلاد موسى– عليه السلام– مرورا بولادته وإلقائه في اليم والتقاطه من آل فرعون، وإرضاعه ونشأته وقتله القبطي وهروبه من مصر إلى مدين، وزواجه هناك، وعودته بعد عشر سنين، وإبلاغه بالرسالة– وهو في طريق العودة– من الله وتكليمه، وتأييده بالآيات، ودعوته فرعون وقومه إلى عبادة الله الواحد، وخُتمتْ بغرق فرعون في اليمِّ، وذلك من الآية الثانية إلى الآية الثالثة والأربعين.

فالأمر الأوَّل إذن أنَّ قصة موسى– عليه السلام– جاءت في سورة القصص مفصَّلة مطوَّلة على عكس سورة النمل أين ذُكرت فيها القصة موجزة مجمَلة، هذا أوَّلا.

الأمر الثاني:

إنَّ الجوَّ العامَّ، والمقام الذي وردت فيه قصة موسى– عليه السلام– في سورة النمل هو جوُّ تعظيم، ومقام تكريم لموسى– عليه السلام– بالرسالة، هو أوضح ممَّا هو في سورة القصص، ذلك أنه في سورة القصص كان جوُّ القصة مطبوعا بطابع الخوف الذي يسيطر على موسى– عليه السلام–، بل إن جوَّ الخوف كان مقترنا بولادته، فقد خافت عليه أمُّه من فرعون فألقت به في اليم « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»[القصص: 7].

و يَستبدُّ بها الخوف أكثر بعد إلقائها وليدَها في اليمِّ حتى يصفها رب العزة بقوله: « وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (10) »[القصص: 10].

ثم ينتقل الخوف إلى موسى- عليه السلام- ويُساوره، وذلك بعد قتله القبطي « فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (18) »[القصص: 18]، فنصحه أحد الناصحين بالهرب من مصر لأنه مهدَّد بالقتل « فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ (21) »[القصص: 21]، فهرب إلى مدين وهناك اتَّصل بشعيب- عليه السلام- وقصَّ عليه القصص فطمْأنه قائلا: « لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (25) »[القصص: 25].

وهذا الطابع – أعني طابع الخوف- يبقى ملازما للقصة إلى أواخرها، بل حتى إنَّه لَمَّا كلَّفه ربُّه بالذهاب إلى فرعون راجع ربَّه تعالى وقال إنَّه خائفٌ على نفسه من القتل « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (33) »[القصص: 33]، وطَلب أخاه ظهيرا له يُعينه، ويصدِّقه لأنه يخاف أن يكذِّبه فرعون وقومه «وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ »[القصص: 34].

في حين ليس الأمر كذلك في سورة النمل، فإنَّه ليس فيها ذكْرٌ للخوف إلاَّ لَمَّا ألقي موسى عصاه، وتحوَّلت إلى حية تسعى.

بَعد أن عرفنا مميِّزات قصة موسى- عليه السلام- في كلٍّ من السورتين، وأنها جاءت مطوَّلة مفصَّلة مطبوعة بطابع الخوف في سورة القصص، على عكس سورة النمل أين جاءت مختصرة مجمَلة يَغلب عليها طابع التكريم و التشريف لموسى- عليه السلام- بالرسالة، ويَغلب عليها طابع الأمن.

بعد أن عرفنا هذا نَشرع الآن في بيان الفروق البيانية بين مفردات القصة في السورتين :

1- قال تعالى في سورة القصص: « آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا »، فحدَّد التعبير القرآني المكان الذي رأى فيه موسى- عليه السلام- النار، و لم يذكر ذلك في سورة النمل، وذلك- كما ذكرنا سابقا- لمقام التفصيل الذي بُنيت عليه القصة في سورة القصص على عكس سورة النمل.

2- قال تعالى في سورة النمل :« إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا »، وقال في سورة القصص :« قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا »، وهذا بزيادة (امْكُثُوا) وهذه الزيادة نظيرةُ ما ذكرته سابقا أعني أنها جاءت مناسبة لمقام التفصيل الذي بُنيتْ عليه القصة في سورة القصص بخلاف ما بُنيت عليه في سورة النمل.

3- قال – عزَّ وجلَّ- في سورة النمل: « سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ »، وقال في سورة القصص:« لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ »، فبنى الله – عزَّ وجلَّ- الكلام على لسان موسى- عليه السلام- في سورة النمل على القطْع

(سَآتِيكُمْ) بينما بناه في سورة القصص على الترجّي فقال: (لَعَلِّي آتِيكُمْ)، فما السرُّ في هذا الاختلاف مع أن الموقف واحد؟.

يقول الدكتور فاضل السامرائي :" وذلك أنّ مقام الخوف في سورة القصص لم يَدَعْه [أي موسى عليه السلام] يَقطع بالأمر فإن الخائف لا يستطيع القطع بما سيفعل بخلاف الآمن، ولَمَّا لم يذكر الخوف في سورة النمل بناه على الوثوق، والقطع بالأمر." [1]

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يُمْكن تفسير تَباين التعبيرين السابقين بأنّ كلّ تعبير جاء مناسبا لجوّ السورة التي ورد فيها، ذلك أن الترجّي من سمات سورة القصص، والقطع من سمات سورة النمل، فقد جاء في سورة القصص قوله تعالى « عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا »[القصص : 9] وهو تَرَجٍّ، وقال :« عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ »[القصص : 22] وهو ترجٍّ أيضا، وقال: « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ»، وقال: « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ »[القصص : 29]، وقال: « لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى»[القصص : 38]، وقال: «لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ»، قالها ثلاث مرات في الآيات 43، 46، 51، وقال: « فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ »[القصص : 67]، وقال « وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ »[القصص : 73]، وهذا كلُّه ترجٍّ.

فالترجي إذن من سمات سورة القصص حيث ذُكر في عشرة مواطن، في حين لم يَرِد في سورة النمل إلاّ في موضعين وهما قوله: « لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ »[النمل : 7]، وقوله: « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ »[النمل: 46].

هذا من جهة الترجي أمَّا من جهة القطْع، واليقين فإنّنا نجد أنَّه تردَّد كثيرا في سورة النمل من ذلك قوله تعالى على لسان الهدهد: « أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (22) »[النمل : 22].

وقوله على لسان العفريت لسيِّدنا سليمان – عليه السلام-: « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (39) »[النمل : 39]، وقوله على لسان الذي عنده عِلْم من الكتاب: « أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ (40) »[النمل : 40].

فانظر كيف جاء قوله: « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» مناسبا لجوِّ الترجّي الذي ورد في سورة القصص، بينما ناسب قوله: « سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» جوَّ القطع، واليقين في سورة النمل.

4- لقد كرَّر الله- عزَّ وجلَّ- فعْل الإتيان في سورة النمل فقال: « سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (7) »[النمل : 7]، ولم يكرِّره في سورة القصص بل قال: « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) »[القصص: 29]، فما السرُّ في ذلك يا ترى؟

---

1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل صالح السامرائي، ص 94.

والجواب- والله أعلم- أنّ موسى- عليه السلام- أكّد الإتيان في سورة النمل لقوّة يقينه، وثقته بنفْسه، والتوكيدُ وتكرارُ الفعل مرّتين يدلُّ على القوّة، فهو في حالة أمنٍ، في حين ذَكر الفعل في سورة القصص مرّة واحدة وهذا مناسبا لجوِّ الخوف، وعدم ثقته في نفسه.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى إحصائيَّة نجد أن الفعل (أَتَى) تكرَّر في سورة النمل اثنيْ عشرة مرَّة [1]، في حين لم يتكرَّر في سورة القصص إلاّ ستَّ مرّات [2] فقط، وهو نصف اثنيْ عشرة فناسب تكرار الفعل (أَتَى) في سورة النمل من كل وجه.

5- قال تعالى في سورة النمل: « سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ»، وقال في سورة القصص: « لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ».

فما السرُّ في التعبير عن الشعْلة من النَّار مرَّة بشهاب قبسٍ، ومرَّة بجذْوة من النار؟.

إذا تَتبعْنا معاني الكلمات (شِهَابٌ، قَبَسٌ، جَذْوَةٌ) في معاجم اللغة نجد أنّ: الشهاب هو شُعلةٌ من النار ساطعة. [3] ومعنى القَبَس شُعلة نارٍ تُقْتبس من مُعظم النار كالمِقْباس، يقال: قَبَسَ يَقْتبِس منه نارا أي: أَخذ منه ناراً، وقَبَس العِلْم اسْتَفادة. [4]

وأمَّا الجَذْوة فهي الجمْرة، أوالقَبْسة من النار [5]، وقيل هي ما تبقّى من الحطب بعد الالتهاب، وقيل هي عودٌ فيه نارٌ بلا لهب. [6]

يقول الدكتور فاضل السامرائي:" والمجيء بالشهاب أحسنُ من المجيء بالجمرة لأنّ الشهاب يُدفِئ أكثرَ من الجمرة لِمَا فيه من اللّهب الساطع، كما أنَّه يَنفع في الاستنارة أيضا، فهو أحسن من الجذْوة في الإضاءة والدفء، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ذَكر موسى- عليه السلام- أنَّه سيأتي بالشهاب مقبوسا من النار وليس مُختلَسا، أومحمولا منها، لأنّ الشهاب يكون مقبوسا وغيَر مقبوس وهذا أدلُّ على القوَّة وثبات الجنان لأنّ معناه أنَّه سيذهب إلى النار، ويقبس منها شُعلة نار ساطعة.

أمَّا في سورة القصص فقد ذكر أنَّه رُبَّما أتى بجمرة من النار، ولم يقُلْ إنَّه سَيَقْبِسُها منها، والجذوة تكون قبَسا وغير قبس، ولا شك أن الحالة الأولى أكمل و أتمّ لِمَا فيها من زيادة نفع الشهاب على الجذوة و لِما فيها من الدلالة على الثبات و قوة الجنان." [7]

---

1) انظر الآيات 7 مرتين، 21،18، 28، 37، 39،38، 40، 54، 55، 87.

2) انظر الآيات 29، 30، 46، 49، 71، 72.

3) لسان العرب أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، مادة شهب، دار صادر، بيروت، 491/1.

4) القاموس المحيط،مجد الدين الفيروزبادي، مادة قبس، دار الفكر للكتاب العربي، بيروت، 1983م، 2|238

5) المصدر نفسه، مادة جذا، 4|311.

6) روح المعاني، الألوسي، 20|72

7) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص 96.

فانظر كيف جاءت كل لفظة مراعية للسياق العامّ لكل سورة، ومراعية للحالة النفسية لموسى- عليه السلام- في القصتين، ففي موطن الخوف ذَكر الجمرة وفي موطن الأمن والثبات ذكر الشهاب القبس الدال على القوّة.

6- قال تعالى في سورة النمل: « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ »، وقال في سورة القصص: « فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ » فما الفرق بين الفعل أتى، والفعل جاء؟.

قال الراغب الأصفهاني مُفرِّقا بين الإتيان والمجيء: " الإتيان مجيءٌ بسهولة ومنه قيل للسيْل المارِّ على وجهه أتى."[1]، وقال: " المجيء كالإتيان، لكنَّ المجيء أعمُّ، لأنَّ الإتيان مجيء بسهولة." [2]

ولم يَذكر أهْل المعاجم ما ذكره الراغب وإنما همْ يفسِّرون واحدا بالآخر "فيقولون: جاء بمعنى أتى، وأتى بمعنى جاء، غير أنهم يذكرون في بعض تصريفات الفعل أَتَى ما يدلُّ على السهولة، فيقولون مثلاً في تفسير الطريق الميْتاء من الفعل أَتَى (طريقٌ مسلوكٌ يسلكه كلُّ أحد لسهولته، ويُسْره)".[3]

ويقولون " كل سيْل سهَّلته لِمَاء أتيٌّ، وأتُّوا جداولها أي سهَّلوا طرق المياه إليها، ويقال أَتَيْت الماء، إذا أصلحتُ مجراه حتى يجري إلى مقرِّه، وسهَّلتُ سبيله ليَخرج إلى موضعِ." [4]

ويقول الدكتور فاضل السامرائي مُفرِّقا بين الفعلين (أتى) و(جاء) : " إنَّ القرآن الكريم يَستعمل المجيء لِمَا فيه صعوبة ومشقّة، أوْ لِمَا هو أصعب وأشقُّ ممَّا يُستعمل له الفعل أَتَى فهو يقول مثلا: « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ »[المؤمنون: 27]، وذلك لأنَّ المجيء فيه مشقّة، وشدَّة وقال: « وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ»، وقال: « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا »[الكهف : 71]، وقال: « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا »[الكهف: 74]، وقال: « قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا »[مريم : 27]، وقال: « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا»[مريم: 88-90]، وقال: « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا »[الإسراء : 81]، وقال: « فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ (33) يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ »[عبس: 33-34]، وقال « فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى (34) »[النازعات: 34]." [5]

---

1) المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت، ص 6.

2) المرجع نفسه، ص102.

3) لمسات بيانية، فاضل السامرائي، ص95.

4) لسان العرب، مادة (أتى) 1 | 14.

5) لمسات بيانية، فاضل السامرائي،ص98،97.

ولوْ بحثنا في النص القرآني لوجدنا أن كل التعبيرات التي جاءت بالفعل (جاء) أشقُّ وأصعب مما جاء بالفعل (أتى) وبيان ذلك مثلا قوله تعالى في سورة النحل: « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (1) »[النحل: 1]، وفي سورة غافر قال: « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) »[غافر: 78].

" فقال في سورة النحل (أَتَى أَمْرُ اللهِ)، وقال في سورة غافر:(جَاءَ أَمْرُ اللهِ) وبأدنى نظر يتَّضح الفرق بين التعبيرين فإن المجيء الثاني أشقُّ وأصعب لِمَا فيه من قضاءٍ وخسران في قوله تعالى: « فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ (78) »[غافر: 78] ، في حين لم يَرد في الآية الأولى من سورة النحل على الإتيان [ولم يَذكر عذابا ولا خسرانا ولا مشقّة بل قال: « أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ »] فاختار لما هو أصعب وأشقُّ الفعل جاء، ولِمَا هو أيسر وأسهل الفعل أتى." [1]

ومن ذلك قوله تعالى في سورة يوسف – عليه السلام-: « حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ »[يوسف : 110] وقوله تعالى في سورة الأنعام: « وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (34) »[الأنعام:34].

لقد قال تعالى في آية يوسف – عليه السلام- (جَاءَهُمْ نَصْرُنَا)، وفي آية الأنعام (أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)، " ومن الواضح أن الحالة الأولى أشقُّ وأصعب وذلك أنَّ الرسل لَغوا درجة اليأس [بَعد أن كذَّبهم قومهم]، وهي أبعد وأبلغ، وذهب بهم الظن إلى أنهم كُذِبُوا، أيْ أن الله- سبحانه وتعالى- كذبهم ولم يصدقهم فيما وعدهم به، وهذا أبلغ درجات اليأس، وأبعدها وعند ذلك جاءهم نصره – سبحانه وتعالى- فنجَّى من شاء وعاقب من شاء من المجرمين، في حين ذَكر في الآية الأخرى أنَّهم كُذِّبُوا أي كذَّبهم الكافرون، وأوذوا فصبروا، وفرقٌ بعيد بعيد بين الحالتين، فلقد يُكذَّب الرسل وأتباعهم ويُؤذوْن ولكن الوصول إلى درجة اليأس، والظن بالله الظنون البعيدة أمرٌ كبير." [2]

ونعود إلى قصة موسى – عليه السلام- فقد قال تعالى في سورة القصص (فَلَمَّا أَتَاهَا)، وقال في سورة النمل (فَلَمَّا جَاءَهَا) " ذلك أنَّ ما قَطَعَه موسى على نفْسه في سورة النمل أصعب مما قطعه في سورة القصص، فقد قطع في سورة النمل على نفسه أن يأتيهم بخبر، أوبشهاب قبس، في حين ترجَّى ذلك في سورة القصص، و القطع أشقُّ وأصعب من الترجِّي، وأنه قطع في النمل أن يأتيهم بشهاب قبس أي بشعلة من النار ساطعة

---

1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ، ص 98.

2) المرجع نفسه، ص 99.

مقبوسة من النار التي رآها في حين أنه ترجَّى في سورة القصص أن يأتيهم بجمرة من النار، والأُولى أصعب، ثمَّ إنَّ المهمة التي كُلِّف بها موسى في سورة النمل أصعب وأشقُّ مما في سورة القصص، فإنه طُلب إليه أن يُبلِّغ فرعون وقومه رسالةَ ربِّه[وهذا في قوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ)]، في حين طُلب إليه في سورة القصص أن يبلِّغ فرعون ومَلأَه [وهذا في قوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ)] تبليغ القوم أوسع وأصعب من تبليغ الملأ، ذلك أنَّ دائرة الملأ ضيِّقة وهُمْ المحيطون بفرعون، في حين أنَّ دائرة القوم واسعة لأنهم منتشرون في المدن والقرى، وأن التعامل مع هذه الدائرة الواسعة من الناس صعبٌ شاقٌّ، فإنهم مختلفون في الأمزجة، والاستجابة والتصرف، فما في سورة النمل أشقُّ وأصعب فجاء بالفعل (جَاءَ) دون الفعل (أَتَى) الذي هو أخفُّ في التكليف." [1]

ومما يدلُّ كذلك أن الفعل (جَاءَ) يُستعمل في التكليف الشاق الصعب، والفعل (أتى) يُستعمل في التكليف الخفيف قوله تعالى في سورة طه: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى »[طه: 11] فجاء التعبير القرآني بالفعل (أَتَى) لأن الله تعالى أمر موسى- عليه السلام- في هذه السورة بالذهاب إلى فرعون وحده، ولم يَذكر معه أحدا آخر حيث قال: « اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) »[طه: 24-28].

فانظرلَمَّا أرسل الله تعالى موسى- عليه السلام - إلى فرعون وحده قال (أَتَاهَا) دلالة على خفَّة المهمة، ولَمَّا أرسله إلى فرعون وملئه جاء بالفعل (أتى) أيضا دلالة على خفَّة المهمة كذلك، لكن لَمَّا أرسله إلى فرعون وقومه، واتَّسعت دائرة التبليغ جاء بلفظ (جَاءَ) للدلالة على المشقَّة والصعوبة في إبلاغ الرسالة، فانظر كيف وُضع كل لفظ في مكانه مراعيا لسياق كلِّ سورة.

7- ذكر تعالى في سورة القصص جهة النداء فقال: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ)، ولم يَذكر ذلك في سورة النمل بل اكتفى بالإخبار على أنه نادى موسى- عليه السلام- فقال: « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»، وسبب ذلك – والله أعلم- أنَّ موطن القصص -كما ذكرت سابقا- هو موطن تفصيل وبيان لقصة موسى عليه السلام، بينما موطن سورة النمل هو موطن إيجاز، وإجمال.

8- قال تعالى في سورة النمل: « فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ »[النمل: 8]، ولم يذكر ذلك في سورة القصص بل ذكر جهة النداء فقط لأن الموقف في سورة النمل موقف تعظيم وتشريف لموسى – عليه السلام-، كما ذكر تعالى في آخر الآية: (وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) وفي هذا تعظيم لله رب العالمين أوَّلا، وفيه تعظيم لموسى عليه السلام ثانيا، لأن رب العالمين خصَّه

---

1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص105.

بالتكليم وهذا شرف عظيم لموسى عليه السلام.

9- قال عزَّ وجلَّ في سورة النمل: (يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)، وقال في سورة القصص (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) فجاء بضمير الشأن في سورة النمل الدال على التعظيم، و لم يأت به في سورة القصص، مناسبا لمقام السورتين، كما جاء باسمه الكريمين (العَزِيزُ الحَكِيمُ) زيادة في التعظيم.

"ثم أنظر إلى اختيار هذين الاسمين [العزيز، والحكيم] وتناسبهما مع مقام ثقل التكليف فإن فرعون حاكم متجبِّر يرتدي رداء العزَّة وَهْمًا، ألا ترى كيف أقسم السحرة بعزته قائلين: « بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ »[الشعراء: 44]،فاختار الله- عزَّ وجلَّ- من بين أسمائه (العَزِيزُ) مُعرَّفا بالألف واللام للدلالة على أنه العزيز، ولا عزيز سواه، و(الحَكِيمُ) للدلالة على أنه لاحاكم، ولا ذا حكمة سواه، فهو المتَّصفُ بهذين الوصفين على جهة الكمال حصرا، وفي تعريف هذين الاسمين بالألف واللام من الدلالة على الكمال، والحصر ما لا يخفى لوقال (عَزِيزٌ حَكِيمٌ) فإنه قد يشاركه فيها آخرون." (1)

10- قال تعالى في سورة النمل: (يَا مُوسَى لَا تَخَفْ)، وقال في سورة القصص: (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) بزيادة لفظ (أَقْبِلْ) على ما في سورة النمل و ذلك لسببين:

الأول: أن مقام الإيجاز في سورة النمل يَستدعي عدم الإطالة بخلاف مقام التفصيل في سورة القصص.

الثاني: أن شيوع جوَّ الخوف في سورة القصص يدلُّ على إيغال موسى- عليه السلام- في الخوف والهرب بعد أن رأى العصا تتحوَّل إلى حيَّة فدعاه تعالى إلى الإقبال أوَّلا ليُهَدِئ من روعه ثمَّ دعاه إلى عدم الخوف ليَسْكن ويَهْدأ تماما، فانظر كيف راعى التعبير الحالة النفسية لموسى - عليه السلام- في السورتين.

11- قال عزَّ وجلَّ في سورة النمل: (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، وقال في سورة القصص: (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) فاستعمل تعالى لفظ (لاَ يَخَافُ) في سورة النمل وأتى بلفظ (الآمِنِينَ) في سورة القصص " ذلك أن المقام في سورة القصص مقام خوف، والخائف يحتاج إلى الأمن، فأمَّنه تعالى بقوله (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ)، أما في سورة النمل فالمقام مقام التكريم والتشريف، فقال (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ) فألمح بذلك إلى موسى- عليه السلام- أنه من المرسلين وهذا تكريم وتشريف له، ثم أنظر كيف قال: (لَدَيَّ) ليُشعره بالقرب منه تعالى وهو زيادة في التكريم، والتشريف." (2)

ثم انظر كيف قال تعالى: (إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ)، و لم يقل (إني لا يخاف منِّي المرسلون) " لأنَّ المرسلين لا يخافون وهم في حضرة الملك العزيز، ولكنَّهم في الوقت نفسه يخشونه و يخافونهم كل الخوف وقد

---

1) التعبير القرآني، فاضل السمرائي ص45.

2) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص109.

الصعب." [1]

لقد ناسب وضع لفظ (أَدْخِلْ) مع قوله: (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)، وقوله تعالى(فَلَمَّا جَاءَهَا)، وقوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) لأنها مواطن فيها صعوبة ومشقة –كما سبق بيانه–، وناسب كذلك وضع لفظ (اسْلُكْ) مع قوله (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)، وقوله: (فَلَمَّا أَتَاهَا)، وقوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) لأنها مواطن فيها سهولة، ويسر مقارنة بالمواطن السابقة.

فانظر كيف جاءت مفردات القصة متناسقة ومتجانسة ومناسبة للسياق العام للسورتين.

13- قال تعالى في سورة القصص: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، ولم يَذكر ذلك في سورة النمل و الرَّهْب هو الخوف وهو مناسب لجوِّ الخوف الذي تردَّد في قصة موسى- عليه السلام- في سورة القصص ومناسب من جهة أخرى لجوِّ التفصيل فيها بخلاف ما في سورة النمل.

14- قال تعالى في سورة النمل: (فِي تِسْعِ آيَاتٍ)، وقال في سورة القصص (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ). فقد أعطى الله- عزَّ وجلَّ- موسى عليه السلام تسع آيات في سورة النمل إلى فرعون وقومه، في حين لم يَذكر في القصص سوى برهانين أو آيتين و ذلك – و الله أعلم – أنه لَمَّا كان المقام في سورة النمل مقام ثقة وقوَّة وسَّع عزَّ وجلَّ المهمة لموسى عليه السلام فجعلها لفرعون وقومه أجمعين، ووسَّع الآيات فجعلها تسعا تماشيا مع اتساع المهمة، ولَمَّا كان المقام في سورة القصص هو مقام خوف، وتردُّد ضيَّق عزَّ وجلَّ المهمة التي كلَّف بها موسى- عليه السلام- وجعلها لفرعون وملئه فقط، وقلَّل معها عدد الآيات، فوضع عزَّ وجلَّ كلَّ تعبير في مكانه المناسب.

15- قال تعالى في سورة القصص: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)، وقال في سورة النمل: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) "فوسَّع عزَّ وجلَّ دائرة التبليغ في سورة النمل فذكر القوم كلَّهم، وذلك مناسب لجوِّ التكريم في القصة، ومناسب لثقة موسى- عليه السلام- بنفْسه، لكن في سورة القصص ضيَّق دائرة التبليغ فذكر الملأ فقط وهم حاشية فرعون، وذلك مناسب لجوِّ الخوف، والتردُّد الذي لازم موسى عليه السلام في كلِّ فصول القصة. "[2]

16- قال تعالى في سورة النمل: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)، وقد جاءت هذه الآية مباشرة بعد الآية التي أمر الله- عزَّ وجلَّ- فيها موسى بالذهاب إلى فرعون وقومه، ومعنى ذلك أن موسى عليه السلام قَبِل المهمة التي كلَّفها بها ربُّه دون تردُّد أو مراجعة، وهو المناسب لمقام القوة وثقة النفس و التكريم الذي طبع جو القصة في هذه السورة.

---

1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص109.

2) المرجع نفسه، ص111.

الصعب." [1]

لقد ناسب وضع لفظ (أَدْخِلْ) مع قوله: (سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)، وقوله تعالى(فَلَمَّا جَاءَهَا)، وقوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) لأنها مواطن فيها صعوبة ومشقة –كما سبق بيانه–، وناسب كذلك وضع لفظ (اسْلُكْ) مع قوله (لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ)، وقوله: (فَلَمَّا أَتَاهَا)، وقوله: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ) لأنها مواطن فيها سهولة، ويسر مقارنة بالمواطن السابقة.

فانظر كيف جاءت مفردات القصة متناسقة ومتجانسة ومناسبة للسياق العام للسورتين.

13- قال تعالى في سورة القصص: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)، ولم يَذكر ذلك في سورة النمل و الرَّهْب هو الخوف وهو مناسب لجوِّ الخوف الذي تردَّد في قصة موسى- عليه السلام- في سورة القصص ومناسب من جهة أخرى لجوِّ التفصيل فيها بخلاف ما في سورة النمل.

14- قال تعالى في سورة النمل: (فِي تِسْعِ آيَاتٍ)، وقال في سورة القصص (فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ). فقد أعطى الله- عزَّ وجلَّ- موسى عليه السلام تسع آيات في سورة النمل إلى فرعون وقومه، في حين لم يَذكر في القصص سوى برهانين أو آيتين و ذلك – و الله أعلم – أنه لَمَّا كان المقام في سورة النمل مقام ثقة وقوَّة وسَّع عزَّ وجلَّ المهمة لموسى عليه السلام فجعلها لفرعون وقومه أجمعين، ووسَّع الآيات فجعلها تسعا تماشيا مع اتساع المهمة، ولَمَّا كان المقام في سورة القصص هو مقام خوف، وتردُّد ضيَّق عزَّ وجلَّ المهمة التي كلَّف بها موسى- عليه السلام- وجعلها لفرعون وملئه فقط، وقلَّل معها عدد الآيات، فوضع عزَّ وجلَّ كلٌّ تعبير في مكانه المناسب.

15- قال تعالى في سورة القصص: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ)، وقال في سورة النمل: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ) "فوسَّع عزَّ وجلَّ دائرة التبليغ في سورة النمل فذكر القوم كلَّهم، وذلك مناسب لجوِّ التكريم في القصة، ومناسب لثقة موسى- عليه السلام- بنفْسه، لكن في سورة القصص ضيَّق دائرة التبليغ فذكر الملأ فقط وهم حاشية فرعون، وذلك مناسب لجوِّ الخوف، والتردُّد الذي لازم موسى عليه السلام في كلِّ فصول القصة. "[2]

16- قال تعالى في سورة النمل: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ)، وقد جاءت هذه الآية مباشرة بعد الآية التي أمر الله- عزَّ وجلَّ- فيها موسى بالذهاب إلى فرعون وقومه، ومعنى ذلك أن موسى عليه السلام قَبِل المهمة التي كلَّفها بها ربُّه دون تردُّد أو مراجعة، وهو المناسب لمقام القوة وثقة النفس و التكريم الذي طبع جو القصة في هذه السورة.

---

1) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص109.

2) المرجع نفسه، ص111.

في حين لَمَّا أمره الله- عزَّ وجلَّ- في سورة القصص بالذهاب إلى فرعون وملئه قال: (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ) فذَكَر مراجعته لربِّه، وخوفه على نفسه من القتل بل وطلب من ربِّه أن يرسل معه أخاه هارون عليه السلام ليُعينه، وهذا كلُّه مناسب لجوِّ الخوف في السورة ولجوِّ التبْسيط في الكلام كما ذكرتُ سابقا.

وفي خاتمة هذا البحث أقول إنَّ المفردة القرآنية تَحمل بذور الخصب لتُؤتي ثمار الإعجاز في حدائق القرآن، وما الميزات، والخصائص التي اتَّسمت بها مفردات هذه السورة إلا تجلِّيات لروح ذلك الإعجاز، ومَظهر من مظاهر ارتقاء الأسلوب القرآني في عَلْياء الإبداع الفنيِّ وصَدق المولى تبارك وتعالى إذ يقول: « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (115) »[الأنعام: 115].

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإعجاز في الفواصل

هذا البحث تتمَّة، واستكمال لتلك الجولة الممتعة التي أخذتْنا فيها كلمات القرآن الكريم نديَّة أثيرة إلى فراديس الحكمة، والبيان، فوقَفْنا على بعض مظاهر الإعجاز البياني في سورة القصص لمحاولة استكشاف جماليات المفردة القرآنية، واستجلاء صِفاتها الفنيَّة، وتتمَّة لهذا المسعى أحاول في هذا المبحث دراسة بعض المفردات الخاصة في السورة، والوقوف على مظاهر الإعجاز فيها وهي التي اصطلح العلماء على تسميتها الفواصل.

يقول الدكتور حسن ضياء الدين عتر: " يستصغي سمعك، ويسترعي انتباهك في أواخر الآيات القرآنية طابع يسمِّيه علماء القرآن الفاصلة، والفاصلة كلمة تُختم بها الآية فتُتِمُّ معناها، وتتناغم مع وقعها الصوتي في الأذن." (1)

والفاصلة طريقة تفرَّد بها القرآن الكريم، وتميَّز بها أسلوبه عن باقي أساليب العرب الذين عرفوا قافية الشعر، وسجْعة النثر في خواتيم الكلام، فدَمغَتهم المعجزة القرآنية بهذا الختام المِسْكيِّ البديع المباين لِمَا اعتادوه.

قال الزركشي:" وتقع الفاصلة عند الاستراحة في الخطاب لتحسين الكلام بها، وهي الطريقة التي باين القرآن بها سائر الكلام، وتسمَّى الفواصل لأنه ينفصل عندها الكلامان، وذلك أن آخر الآية فصل بينها وبين ما بعدها."(2)

ولقد فرَّق العلماء والدارسون بين الأسجاع والفواصل باعتبار أن " السجع هو الذي يُقصد في نفسه ثم يحيل المعني عليه، والفواصل هي التي تَتْبع المعاني، ولا تكون مقصودة في نفسها. "(3)، وقد فاضل الرماني بين الفواصل والأسجاع فقال "والفواصل بلاغة، والأسجاع عيْب، ذلك أنَّ الفواصل تابعة للمعاني، وأمَّا الأسجاع فالمعاني تابعة لها." (4)

أولا: جمال الفاصلة و دورها في التأثير النفسي.

ليست الفاصلة معجزة بانفرادها، ولكنَّها لبنة هامَّة يكتمل بها صرح الإعجاز، ويعتلي " فإذا وقفتَ على تماثل أنغام الفواصل أحيانا وتقاربها أحيانا أخرى، وعلى انسجام كل منها مع جرس الكلمات، وإيقاع المقاطع في آيِها أدركتَ أن هاهنا سرًّا عظيما من أسرار الإعجاز البياني يأسِر قلوب البشر، ويستعصي على عبقرياتهم."(5)

وتنقسم الفواصل – بحسب حروف الرويِّ– إلى قسمين أحدهما على الحروف المتماثلة، و الآخر على الحروف

---

1) بيانات المعجزة الخالدة، ص255.

2) البرهان في علوم القرآن، 54/1.

3) المرجع نفسه ، 54/1.

4) النكت في إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز القرآني)، ص 97.

5) من أسرار التعبير في القرآن الكريم (الفاصلة)، عبد الفتاح لاشين، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـ- 1982 م، ص 437 .

المتقاربة، قال الزركشي: " إن الفواصل تنقسم إلى ما تماثلت حروفه في المقاطع- و هكذا يكون في السجع- وإلى ما تقاربت حروفه في المقاطع وهذا لا يكون سجعا ولا يخلوا كل واحد من هذين القسمين- أي المتماثل والمتقارب- من أن يأتي طوعا سهلا تابعا للمعاني أو تكلُّفا يتبعه المعنى.

فالقسم الأوَّل هو المحمود الدال على الثقافة، وحسن البيان، والثاني هو المذموم، فأمَّا القرآن فلم يَرِد فيه إلاّ القسم الأوَّل لعلوِّه في الفصاحة. " (1)

وقد تنوّعت فواصل سورة القصص بين المتماثل والمتقارب وهي تنتهي بهذه الحروف (ل، م، ن، ر) جُمعت في كلمتي (لَمْ نَرَ). (2)

وأنت تقرأ القرآن الكريم أوتسمعه تحسُّ أن لهذه الفواصل نغمات نفسيَّة معنوية، وإيقاعا يعطيك مُتعة فنيَّة مؤثِّرة تبثُّ في فؤادك الطمأنينة والارتياح.

ولا شكَّ أنَّ أجملَ ما تحمله الفواصل القرآنية في شكلها جرسُها الموسيقي الرخيِّ الشجيِّ الذي يَحمل الأنفس الطروبة على الانصياع إلى اللحن الخالد الفريد الذي مهما كرَّرتَه، وأعدته لن تَملَّ منه بل كلَّما كرَّرته وأعدته زادك متعة وجمالا.

"وما هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن إلا صورة تامَّة للأبعاد التي تنتهي بها جمل الموسيقى، وهي متَّفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقا عجيبا يلائم نوع الصوت، والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه في العجب مذهب، وتراها أكثر ما تنتهي بالنون، والميم وهما الحرفان الطبيعيان في الموسيقى نفسها، لاحتواء النون صفة الغنة، أوبالمدِّ وهو كذلك طبيعي في القرآن، فإنْ لم تنته بواحدة من هذه، كأن انتهت بسكون حرْف من الحروف الأخرى، كان ذلك متابعة لصوت الجملة وتقطيع كلماتها، ومناسبة للوْن المنطق بما هوأشبه وأليق بموضعه،... وهذه طريقة الاستهواء الصوتي في اللغة وأثرها الطبيعي في كلِّ نفس، فهي تشبه في القرآن الكريم أن تكون صوت إعجازه الذي يخاطب به كلَّ نفس تَفهمه، وكلَّ نفس لاتَفهمه، ثمَّ لا تجد من النفوس على أيِّ حال إلا الإقرار والاستجابة." (3)

إنَّ شجى النغم المنبعث من رؤوس الآي جعل بعض الباحثين" يَنظر إلى الفاصلة على أنها مناسبة لفظيَّة مرغوبة، ومطلوبة في اللغة العربية فهي تريح القارئ، وتُرشده إلى تلوين الصورة، وإجادة الوقف، وتزيد من روعة التلاوة، بما تخلع عليها من إيقاع محبب، وتمدُّ القراء بألوان من التنغيم المؤثر والتطريب الأخّاذ." (4)

ثانيا: القيمة المعنوية للفاصلة وعلاقتها بما قبلها.

نجد في تعريف بعض القدماء للفاصلة تشبيها لها بقافية الشعر، أو قرينة السجع حتى يظن كثير من الناس" أنها

---

1) البرهان في علوم القرآن 1 | 72.

2) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان، 1 | 253.

3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص153، 154.

4) من أسرار التعبير في القرآن الكريم (الفاصلة)، عبد الفتاح لاشين، ص37.

محاولة توجيه النظر إلى الجرس الصوتي، والملائمة اللفظية أكثر من لفْت النظر إلى الموائمة الدلالية، والارتباط العضوي بين مضمون الآية وخواتمها، وليس هذا صحيحا على الإطلاق حتى إن بعض القدماء قد لاحظ في الفواصل القرآنية تبعيتها للمعنى." (1)

ليست فواصل القرآن الكريم مجرَّد توافق ألفاظ وأوزان، بل هي ارتباط وثيق بالمعنى ويؤكّد هذه الفكرة الرماني في تعريفه للفاصلة بأنها " حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني." (2)

ويقول كذلك " وفواصل القرآن كلّها بلاغة، وحكمة لأنها طريقٌ إلى إفهام المعاني التي تحتاج إليها في أحسن صورة يدل عليها." (3)

وهذا الأمر هو ما أكدَّه الباحثون، والدارسون المحْدثون الذين لم يميلوا إلى جانب سيطرة الشكل على المضمون فهم يعترفون برنَّة الفاصلة من حيث " هي قرار موحٍ، وترجيع رائع، ولكن هذا مرتبط أشدَّ الارتباط بالمعنى." (4)

وهكذا تتجلّى لنا القيمة المعنوية للفاصلة القرآنية، ويتَّضح لنا شيئا فشيئا علاقتها بما قبلها، لنقف أمام سؤال مُلِحٍ حول تَمَكُّن الفاصلة في سورة القصص، وعلاقتها بما قبلها، ومدى ائتلاف الفواصل على ما يدل عليه الكلام.

يقول الزركشي: " اعلم أن من المواضع التي يتأكّد فيها إيقاعُ المناسبة مقاطعَ الكلام وأواخره، وإيقاع الشيء فيها بما يشاكله، فلا بد أن تكون مناسبة للمعنى المذكور أوَّلا، وإلا خرج بعض الكلام عن بعض.

وفواصل القرآن العظيم لا تَخرج في ذلك ، لكن منه ما يظهر، ومنه ما يستخرج بتأمُّل اللبيب." (5)

وهذا الائتلاف منحصر في أربعة أنواع، وهو ما سمَّاه البلاغيون بالتمكين، والتوشيح، والتصدير، والإيغال.

" والفرق بينهما، أنه إن كان تقدَّم لفظها بعينه في أوَّل الآية سُمِّي تصديرا، وإن كان في أثناء الصدر سُمِّي توشيحا، وإن أفادت معنى زائدا بعد تمام الكلام سُمِّي إيغالا، وربما اختلط التوشيح بالتصدير لكوْن كلٍّ منهما صدره يدلُّ على عَجُزه، والفرق بينهما أن دلالة التصدير لفظيَّة، ودلالة التوشيح معنوية." (6)

وهذا تفصيل لهذه الأنواع الأربعة.

---

1) الفاصلة القرآنية بين ملاءمة اللفظ، ومراعاة المعنى، د أحمد مختار عمر، مجلة الدراسات القرآنية، العدد1، نشر مركز الدراسات الإسلامية بالكلية الدراسات الشرقية والإفريقية، لندن 1999م،ص 238.

2) النكت في إعجاز القرآن الكريم، ص97.

3) المرجع نفسه،ص 98.

4) جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، ص 315.

5) البرهان في علوم القرآن 78/1.

6) المصدر نفسه 78/1، 79.

1- التمكين.

" وهو أن يُمهّد قبل الفاصلة تمهيدٌ تأتي الفاصلة مُمكّنة في مكانها مُستقرّة في قرارها، مطمئنّة في موضعها غير نافرة ولا قلقة، متعلّقا معناها بمعنى الكلام كلّه تعلّقا تامًّا بحيث لو طُرحتْ لاختلّ المعنى، واضطرب الفهم." (1)

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) »[القصص: 4].

إنه لَمَّا تقدَّم الحديث عن فرعون وما قام به من إذلالٍ لبني إسرائيل باستضعافهم، وذبح أبناءهم الذكور، والإبقاء على الإناث منهم أحياء، وهذا العمل الشنيع يدلُّ على الفساد العظيم الذي أحدثه فرعون في أرض مصر، جاء هذا تمهيدا تامًّا لذكر الفساد في آخر الآية عند قوله: (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ).

فكان آخر الآية مناسبا لأوّلها مناسبة معنوية، وجاءت بذلك الفاصلة مُمكّنة في مكانها مطمئنّة في موضعها غير نافرة، ولا قَلِقَة متعلّقا معناها بمعنى الآية كلّه تعلقا تامًّا.

ومن ذلك قوله تعالى « وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (31)»[القصص: 31].

لاحظْ تَمكُّن قوله تعالى: (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) بعد قوله: (أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ)، فموسى- عليه السلام- بعد أن ألقى عصاه وتحوَّلت إلى ثعبان عظيم أصابه الهلع وتملّكه الخوف، وولّى مدبرا، وهو ردُّ فعلٍ طبيعي يَصدر عن كلّ إنسان عاقل في مثل هذا الموقف، لكن الله- عزَّ وجلَّ- نادي موسى- عليه السلام- بقوله: (أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) ليهدِّئ من روعه، ويخفِّف عنه الصدمة التي أصابته، فكان هذا الكلام تمهيدا لأنْ يقول له في آخر الآية (إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ) ليُطمئنه أكثر، فجاءت الفاصلة مُستقرّة في قرارها مطمئنّة في موضعها.

ومن رقيق المناسبة المعنوية قوله: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) »[القصص: 71].

يقول الزركشي في البرهان: " لَمَّا كان سبحانه هو الجاعل للأشياء على الحقيقة، وأضاف إلى نفسه جعْلَ الليل سرمدا إلى يوم القيامة صار الليل كأنَّه سرمدٌ بهذا التقرير، وظرْفَ الليل ظرفٌ مظلمٌ لا يَنفذ فيه البصر، لاسيما وقد أضاف الإتيانَ بالضياء الذي تَنفذ فيه الأبصارُ إلى غيره، وغيرُه ليس بفاعلٍ على الحقيقة، فصار النهار كأنَّه معدومٌ، إذْ نَسَبَ وجودَه إلى غير موجد، والليل كأنه لا موجود سواه، إذ جُعِل سرْمدا منسوبا إليه سبحانه فاقتضت البلاغة أن يقول: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) لمناسبة ما بين السماع والظرْف الليْليّ الذي يَصلح للاستماع ولا يَصلح للإبصار." (2)

---

1) البرهان في علوم القرآن 1/ 79.

2) المصدر نفسه 82/1.

وكذلك قوله – عزَّ وجلَّ – في الآية التي بعدها: « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (72) »[القصص: 72].

" لأنَّه لَمَّا أضاف جَعْلَ النهار سرمدا إليه صار النهار كأنه سرمدٌ، وهو ظرفٌ مضيء تُنوِّر فيه الأبصار، وأضاف الإتيانَ بالليل إلى غيره، وغيرُه ليس بفاعلٍ على حقيقة ، فصار الليل كأنه معدومٌ، إذ نُسِبَ وجودُه إلى غير موجِد، والنهار كأنه لا موجود سواه إذ جَعَل وجودَه سرمدا منسوبا إليه، فاقتضت البلاغة أن يقول (أَفَلَا تُبْصِرُونَ) إذْ الظرف مضيء صالحٌ للإبصار،وهذا من رقيق المناسبة المعنوية." [1]

فانظر كيف ختم الله– عزّ وجلّ– آية الليل بقوله: (أَفَلَا تَسْمَعُونَ) فناسب ذِكْر السمع لظرْف الليل لأنه وسيلة الإدراك فيه دون البصر، وختَم تعالى أية النهار بقوله: (أَفَلَا تُبْصِرُونَ)، لأن البصر هو وسيلة الإدراك في النهار دون السمع.

ومن طريف ما رُوي عن تَمكُّن الفاصلة في مكانها حتى إنَّ السامع ليَشعُر بها قبل النطق بها " أنَّ زيدا بن ثابت– رضي الله عنه– قال: أَملى عليَّ رسول الله– صلى الله عليه وسلم– هذه الآية « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ»[المؤمنون: 12-14].

فقال معاذ بن جبل– رضي الله عنه–: (فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) فضحك رسول الله –صلى الله عليه و سلم–.

فقال معاذ ممَّ ضحكتَ يا رسول الله ؟. قال: بها خُتِمتْ." [2]

وليس هذا بغريب، فقد كان معروفا عند العرب، وذوي الفطانة في الشعر، وأصحاب الفطر السليمة في فهْمِ القوافي في النظْم أن أوَّل البيت إذا دلَّ على معنى ما عُرِفتْ منه قافيته.

ومن ذلك أنَّ أعرابيا سمع قارئا يقرأ قوله تعالى: « وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ (38) »[المائدة: 38]، وختمها بقوله: (والله غَفُورٌ رَحِيمٌ).

فقال الأعرابي ما هذا فصيح !.

فقيل له: ليست التلاوة كذلك و إنما هي (وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)، فقال: بخ بخ، عزَّ فحَكَم، فقَطَع. [3]

ولا شكَّ أن تَمكُّن الفاصلة القرآنية هو شاهد، ودليل قاطع على الإعجاز البياني للقرآن الكريم، وأحد أسرار التعبير القرآني، قال الزركشي: " و هذا الباب يُطلعُك على سرٍّ عظيم من أسرار القرآن فاشدُد يديك به." [4]

---

1) البرهان في علوم القرآن 82/1.

2) الإتقان في علوم القرآن 129/2.

3) المصدر نفسه ص 133.

4) البرهان في علوم القرآن 79/1.

2- التوشيح.

" يسمَّى هذا النوع بالتوشيح لأنَّ الكلام نفسُه يدلُّ على آخره، نَزَل المعنى منزلة الوشاح، ونَزَل أوَّل الكلام وآخره منزلة العاتق والكشح، الذيْن يحول عليهما الوشاح، ولذا قيل فيه إن الفاصلة تُعلم قبل ذكرها." [1]

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20) »[القصص: 20].

فإنه من كان عالما بأن مقاطع فواصل هذه السورة هو حرف النون (الظالمين، المصلحين، المجرمين، القبوحين...) هَداهُ صدرُ هذه الآية (إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ) إلى معرفة الفاصلة بأنها ستكون (مِنَ النَّاصِحِينَ) لأن من كان حاله أن يأتي من أقصا المدينة مُسرعا ليحذِّر موسى- عليه السلام-، ويطلب منه الخروج حتى لا يقتله فرعون فالأكيد أنَّه من الناصحين لموسى- عليه السلام-.

ومن ذلك قوله:« فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ»[القصص: 40].

إن ما ورد في صدر الآية من كلام حول الأخْذ الشديد لقوم فرعون، ثم طرحهم ونبذهم في اليمِّ لدليلٌ على أن هذا العذاب الدنيوي هو نتيجة لظلمِ هؤلاء القوم، وطغيانهم لذلك جاءت الفاصلة دالة على ذلك (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ).

ومن أمثلة التوشيح التي وردت في سورة القصص « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) »[القصص: 44].

إن الله- عزَّ وجلَّ- خاطب نبيه محمَّدا - صلى الله عليه وسلم- في هذه الآية وأخبره بأنه لم يكن موجودا حين قضى سبحانه وتعالى الأمور إلى موسى - عليه السلام-، فالنبي إذن لم يكن موجودا وبالتالي لن يكون من الشاهدين لذلك جاءت الفاصلة (وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ).

وتأمَّل قوله -عزّ وجلّ-: « فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ(67)» [القصص: 67].

فإن من كان حالُه في الدنيا مؤمنًا عاملاً للصالحات أكيد أنه يوم القيامة يكون من الفائزين المفلحين فجاءت الفاصلة دالة على ذلك (فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ).

---

1) البرهان في علوم القرآن 79/1

3- التصدير.

هذا هو النوع الثالث من علاقة الفاصلة بما قبلها "وهو أن تكون لفظة الفاصلة بعينها تقدَّمت في أوَّل الآية ويُسمَّى أيضا ردُّ العَجُز على الصدْر." [1] ، أو هو أن يتقدّم لفظة الفاصلة بمادَّتها في أوَّل صدر الآية أو أثنائها. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: « إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ »[القصص: 76].

فقد جاء آخر الآية (الْفَرِحِينَ) موافقا لآخر الكلمة في الصدر وهو (لَا تَفْرَحْ).

ومن ذلك قوله تبارك وتعالى: « أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (48) » [القصص: 48].

فقد توافق آخر الآية (كَافِرُونَ) مع أول كلمة في الصدر و هي (أَوَلَمْ يَكْفُرُوا).

ومن ذلك قوله تعالى: « قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ »[القصص: 33].

وقوله- عزَّ وجلَّ-: « إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ(56) »[القصص: 56].

فانظر كيف تكرَّرت لفظة الفاصلة (الْمُهْتَدِينَ) مرّتين في أوّل صدر الآية (تَهْدِي)، وفي وسطه (يَهْدِي).

ومن التصدير كذلك قوله تعالى: « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ »[القصص:77].

ومن ذلك قوله- عزَّ وجلَّ- « فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) »[القصص: 81]..

و من ذلك قوله: « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (84) »[القصص: 84].

4- الإيغال.

وهو نوع من أنواع علاقة الفاصلة بما قبلها، حيث تنفرد الفاصلة هنا بمعنى جديد " لأنَّ المتكلّم قد جاوز المعنى الذي هو آخذ فيه، وبلغ إلى زيادة على الحدِّ يُقال: أوْغل في الأرض الفلانيَّة إذا بلغ مُنتهاها، فهكذا المتكلّم إذا تمّ معناه تعدَّاه بزيادةٍ فيه فقد أوْغل." [2]

---

1) الفاصلة في القرآن، محمد الحسناوي، دار عمار للنشر و التوزيع، عمان الأردن، ط 2/1421هـ- 2000م، ص 289

2) المصدر نفسه 1/96-97

وكثيرا ما يستشهد علماء البلاغة بقوله تعالى: « إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (80) »[النمل: 80].

يقول صاحب البرهان: " فإنَّ المعنى تمَّ عند قوله تعالى: (لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ)، ثمَّ أراد أن يُعْلمنا تمام الكلام بالفاصلة فقال (إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ)، وقد يُظنُّ أن (إِذَا وَلَّوْا) تُغني عن (مُدْبِرِينَ)، ولكن التوَّلي قد يكون بجانب دون جانب بدليل الآية « أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ »[الإسراء: 83]، ولا شك أنه سبحانه لَمَّا أخبر عنهم أنهم صمٌّ لايَسمعون أراد تتميم المعنى بذكر تولِّيهم في حال الخطاب، ليَنفيَ عنهم الفهْم الذي يحصل في الإشارة، فإن الأصمَّ يَفهم بالإشارة ما يَفهم السميع بالعبارة، ثمَّ إن التولِّي قد يكون بجانب مع لحاظه بالجانب الآخر، فيَحصُل له إدراك بعض الإشارة، فجعل الفاصلة (مُدْبِرِينَ) ليُعْلِم أن التولِّي كان بجميع الجوانب، أوصار من ورائه، فخَفيتْ عن عينه الإشارة، كما صُمَّت أذُناه عن العبارة فحَصَلتْ المبالغة عن عدم الإسماع بالكليَّة." [1]

ومن الإيغال الذي ورد في سورة القصص قوله تعالى:« وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ»[القصص: 7].

إن المعنى- والله أعلم- قد تمَّ عند قوله تعالى: (إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) لأن أمَّ موسى- عليه السلام- بعد أن خافت عليه من الذبح أمرها الله- عزَّ وجل- أن تُلقي به في اليم، ولا تخاف عليه من الهلاك، كما نهاها سبحانه على أن لا تحزن على فعلتها هذه.

ولكن كيف لا تخاف ولا تحزن، وقد طرحت وليدها بيديها في اليم ؟.

فجاء الردُّ من القوي العزيز(إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ) أي سنردُّه إليك حتما، وجاء التعبير القرآني بأداة التوكيد (إنَّ) للدلالة على ثقة المتكلم وهو الله عزّ وجلّ- بالوفاء بالعهد الذي قطعه على نفسه، ثم بعد ذلك أراد الله تعالى أن يُعلمنا أن الأمر لا يتوقَّف عند إرجاع موسى- عليه السلام- إلى أمه بل هناك ما أعظم من ذلك وهو أنه سيجعله من المرسلين، فحصل بذلك الوفاء بالوعد بإرجاع موسى- عليه السلام- إلى أمه مع زيادة البشارة بالرسالة.

ومن ذلك قوله- عزَّ وجلَّ-: « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ »[القصص: 23].

إن الظاهر من الآية- والله أعلم- أن المعنى تمَّ عند قوله تعالى: (لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ)، وكان هذا جواب ابنتي شعيب- عليه السلام- لموسى عليه السلام لَمَّا سألهما عن سبب عدم سقيهما الغنم، وتأخُّرهما عن القوم، والظاهر أن الكلام ينتهي هنا، لكن ابنتي شعيب- عليه السلام- زادتا عبارة (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)

---

1) البرهان في علوم القرآن، 1 | 96، 97.

فما فائدة هذه الزيادة يا ترى ؟.

إن عبارة (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) جاءت- والله أعلم- لزيادة معنى آخر جميل وهو أن الفتاتين أرادتا أن تُخبرا موسى- عليه السلام- أنهما لَم تَخرُجا للعمل طواعيَّة بل هي الحاجة الملحَّة لأنهما البنتان الوحيدتان لشيخ كبير عاجز عن العمل، وبذلك تدفعان التوهُّم الذي قد يخطر ببال موسى- عليه السلام- وهو كيف لفتاتين تَخرجان لسقْي الغنم، ومزاحمة الرجال على ذلك، وهذا ليس من أخلاق المرأة العفيفة الطاهرة.

فجاءت عبارة (وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ) لتدفع هذا التوهُّم و تبيِّن لموسى- عليه السلام- حقيقة الأمر.

ومن لطيف ما يُروى في كتب الأدب من تأثير الإيغال في نفس السامع، مارُوي عن مسلم بن الوليد في وصف تأثير الخمر في شاربها.

إِذَا مَا عَلَتْ منَّا ذُؤَابَةُ شَـــارِبٍ تَمَشَّتْ بِهِ مَشْىَ المقَيَّ فِي الوَحْـــلِ

فكلمة (المقيَّد) تمَّ بها المعنى، ولكنه أوغل فيه بقوله (في الوحل) توكيدا له، وكان هارون الرشيد يُكثر التعجب منه ويقول قاتله الله ما كفاه أن جعله مقيَّدا حتى جعله في الوحل.[1]

هذه هي الأنواع الأربعة التي تربط الفاصلة القرآنية بما قبلها من الآية.

وأحسب بعد، وإن لم تُحطْ هذه الدراسة بكل فواصل سورة القصص- فذلك ما يحتاج إلى دراسة إحصائية شاملة، وبحث مستقل- إنني وفّقت في الوقوف على بعض مزايا هذه المفْرَدة المشبَعة بالإعجاز، وجلوْت طرفا من مظاهر الإعجاز البياني في سورة القصص.

---

1)من أسرار التعبير القرآني (الفاصلة القرآنية) ص 43.

الفصل الثاني

الإعجاز في الأساليب

أسلوب المحاورة

القصـــــــة

الالتفـــــات

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أسلوب المحاورة في سورة القصص

إنّ القرآن الكريم كتاب يهدي للتي هي أقوم، جعله الله نورا مبينا للباحثين عن الحقيقة، وسداً منيعاً أمام حملات الكفر والشرك المسعورة، وقد سلك القرآن الكريم أوضح المسالك وأحسنها لبناء العقيدة الصحيحة، وإنشاء الفكر السليم، واستعمل في ذلك أرقى الأساليب لمواجهة الخصوم، ومحاربة الضلال والفساد.

ويُعَدّ أسلوب المحاورة أحد تلك الأساليب القرآنية التي أعجزت العرب، وأفحمت المعاندين منهم، فما هي المحاورة ؟ وما هي خصائصها ومميزاتها التي جاءت في سورة القصص؟.

أولا: المحاورة في القرآن الكريم مفهومها وخصائصها.

1- مفهوم المحاورة:

يُعرِّف علماء اللغة المحاورة " أنّها مراجعة الكلام، يُقال حاورته أي راجعته الكلام، وتحاور القوم أو الجماعة راجعوا الكلام بينهم، فمادَّة المحاورة تدور حول الرجوع "[1].

فالمحاورة إذن هي مُجرَّد مراجعة الكلام بين المتكلمين، ولا تلزم صورةُ الخصومة فيها، وإنّما يغلب عليها صورةُ الكلام المتبادل بين الطرفين في أسلوب لا يُقصد به الخصومة أو لا يُراد به بالضرورة الاتجاه إلى الخصومة، وعلى هذا الأساس يمكن أن نُفرِّق بين المحاورة والجدال الذي يعني اللّدد في الخصومة، وما يكون في نحو ذلك من صور تدور حول التخاصم بالكلام والتعصب للرأي.

وهذه التفرقة بين مدلولي الكلمتين إنّما استقاها اللغويون من تَتبُّع الاستعمال العربي للفظتين"ومن استعمال القرآن الكريم في قوله تعالى:(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) [المجادلة:1].

فحديث المرأة عن زوجها كان خصومة ولذلك جاء التعبير حينئذ (تُجَادِلُكَ)، ولكن حديثها مع النبي- صلى الله عليه وسلم- كان مراجعة الكلام ليس إلاّ، ولذلك كان تعبيره (تَحَاوُرَكُمَا). "[2]

لكن ليس معنى هذا أنّ استعمال القرآن الكريم للفظ المحاورة كان دائما خاليا من الخصومة، بل هناك آيات جاء فيها لفظ الحوار مقرونا بالخصومة واللّدد، فقد قال تعالى- في قصة صاحب الجنتين حكاية عن الكافر-:(فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا) [الكهف:34].

فردَّ عليه صاحبه المؤمن (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا) [الكهف:37].

---

1) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط:2، 1985م، ص14، وانظر لسان العرب مادة (حور) 2 | 33

2) المرجع نفسه، ص15.

فمع استعمال القرآن الكريم للفظ الحوار في الآيتين إلاّ أنّ طابع الخصومة بادي بين الطرفين.

إذن فمراجعة الكلام التي نُسمّيها محاورة موجودةٌ في كل أنواع الحديث الذي يتبادله الطرفان، سواء صحبتْه خصومة أم لم تصاحبه، وحينئذ يكون لفظ المحاورة أشمل وأوسع من لفظ الجدل، لذلك إذا جاء لفظ الجدل في هذا المبحث فهو يدخل تحت معنى الحوار.

2- القرآن الكريم والحوار.

إنّ القرآن الكريم كتابٌ جاء ليهدي الناس للوصول إلى الحق، وإلى أن يسلكوا الطريق الصحيح الموصل إليه، وهو طريق الحوار، حتى لا يضلُّوا فيسلكوا بادئ ذي بدْءٍ طريق القوّة دون منطق، لذلك نجده بنى كل قضاياه المصيرية- من توحيد، وإثبات نبوة، وبعث...- على أسلوب المحاورة للإقناع بهذه القضايا "وهكذا كان طبيعيا أن يتعرَّض القرآن إلى ذِكْر الجدل ليُبيِّن مضمونه ويحدِّد وسائله وأبعاده، فهو عند هذه الطائفة مناقشاتٌ هادئة تتوجَّه إلى العقل، وتطالبه بالنظر والتدبر، وتخاطب الحواس تدعوها إلى الاستخدام فيما حولها من كون وأنْفسٍ للوصول إلى تقرير الحق." (1)

إنّ القرآن الكريم لا يجعل من القوّة سبيلاً قطُّ إلى التعامل مع المخالفين، وإنّما يجعلها عقوبة للمصرِّين على الباطل بعد سطوع نور الحق، لتكُون هي الأخرى وسيلة إلى إعادة الضالّين إلى الحق " ولا تَعارُض بين القتال[القوّة]، والجدال بالتي هي أحسن[المحاورة]، ولا يُغني أحدهما عن الآخر، ولا يمكن أن يَصلُح أحدهما في موضع الآخر، فالمدْفع لا يُسكته إلا المدفع، والإقناع لا يكون بالإكراه، وقد طبَّقهما النبي- صلى الله عليه وسلم- بدقّة، وعمل بهما كلٌ لِما خُلق له. " (2)

إنّ أسلوب المحاورة هو الأسلوب الذي بنى عليه القرآن الكريم كلى قضاياه- كما ذكرنا سابقا- حتى إنّ الله- عزّ وجلّ- اتّخذ من ذاته العليَّة مثلا في المحاورة، فلا يَفرض قوّته ولا قدرته مع أنّه غير مُراجَع فيهما، وإنّما يبسط حواره قبل قوّته، و يضرب لنا- سبحانه وتعالى- أمثلة كثيرة عن ذلك، كحواره مع الملائكة حين يَتقبَّل منهم في منطق الحوار، ما يُشبه أن يكون إنكارا، واعتراضا منهم على خلق آدم- عليه السلام- في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:30].

وكحواره- عزّ وجلّ- مع بعض البشر مثل حواره مع إبراهيم- عليه السلام-، والذي بدا كأنّه غير موقنٍ بالبعْث كلّ اليقين فسأل ربه تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: 260].

و لكنّ ربَّهُ لم ينكر عليه ذلك و إنما يحاوره قائلا:﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ

---

1) الجدل في القرآن الكريم، محمد التومي، شركة الشهاب، الجزائر، ص11.

2) المرجع نفسه، ص12.

فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) [البقرة: 260].

ويحاور نوحا – عليه السلام– الذي دعا ربَّه أن يُنْجي فلذة كبده من الغرق، ولكنَّ الله تعالى يحاوره ليُبيِّن له الحقَّ واضحا جليا في غير لُبْس قبل أن يُنذره ويُحذِّره (وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [هود 45-47].

وهكذا نرى أنَّ الله– عزَّ وجلَّ– رغم قوَّته وجبروته حاور الملائكة والبشر بل وحتَّ إبليس حاوره تعالى رغم أنَّه عصى أمره بالسجود لآدم (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ) [الأنعام 12-18].

" إنَّ الله– عزَّ وجلَّ– حاور جميع خلقه[إنسهم وجنَّهم وملائكتهم] مع وضوح قُوَّته و قدرته على أن يجعل كلَّ شيء يمضي كما يريد ، لكنَّه يريد أن يُعلِّم الناس– فيما يُعلِّمهم– أنْ يلجأوا إلى المحاورة قبل لجوئهم إلى القوَّة مهما مَلكوا من وسائل القوَّة، ومهما كان خلاف مخالفيهم، وكأنَّه سبحانه يقول: هل تملكون من القوة مثل ما أملك؟ وهل بلغ مخالفة مخالفيكم ما بَلَغُه إبليس إيَّاي؟ ومع ذلك فإني اتَّخذ المحاورة و الحجَّة سبيلا إلى تبيان الحق و إقراره." (1)

من هنا ندرك مدى أهميَّة أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، و أنَّه من الوسائل المهمَّة التي اتَّخذها التعبير القرآنيُّ سبيلا لتحقيق أهدافه في إصلاح حياة الناس العَقَدية والسلوكية.

3– خصائص أسلوب المحاورة في القرآن الكريم.

لقد أَوْلى القرآن الكريم أسلوب المحاورة أهمية كبيرة باعتبارها وسيلة من وسائل إقناع الخصم، والإقناع أساس الإيمان إن لم يكن الإيمان نفسه، وأيُّ دين أو مذهب لا بُدَّ لاعتناقه من اقتناع تامٍ.

---

1) أسلوب المحاورة ، عبد الحليم حنفي، ص 28.

ولعلّ احتلال أسلوب المحاورة مرتبة مرموقة، وعناية التعبير القرآني بها عناية خاصّة راجعٌ إلى الخصائص الفنيَّة التي تَميَّز بها الحوار القرآني والتي يمكن إبرازها فيما يلي:

أ- التنوع

إنّ المتَتَبِّع لمحاورات القرآن الكريم يجدها لم تقتصر على نوع واحد من القضايا الكبرى في حياة الناس، بل اشتملت كل أوْجه الحياة دينيةً كانت أو اجتماعية أو سياسية أو عقدية أو خلقية أو غيرها، ومعنى هذا أنّ المحاورة في القرآن الكريم لم تأتِ عَرَضا، و لم يَستدْعها سياقٌ أو غرضٌ معين، وإنَّما هي غرضٌ أساسٌ من أغراض القرآن الكريم، وأسلوبٌ محددٌ من أساليبه التي يَهدف بها إلى تحقيق أغراضه الشاملة لكل جوانب الإصلاح عامَّة، سواء كانت فردية أم جماعية " لذلك وجب أن يكون القرآن، وهو الحجَّة الكبرى فيه من الأدلَّة و المناهج ما يُقْنع الناس جميعا على اختلاف أصنافهم و تباين أفهامهم ، وتفاوت مداركهم، ووجب أن يكون أسلوبه الفكري والبياني، بحيث لا يَعلو على مدارك طائفة بعْد بيان النبي- صلى الله عليه و سلم- وأصحابه الذين تلقوا من النبي- صلى الله عليه وسلم- علْم القرآن وبيانه، ويجد العلماء فيه غذاء نفسيا واعتقاديا، وخُلُقيا، وصلاحا إنسانيا، بل يصل الجميع إليه، يجد فيه المثقف بُغْيته، والفيلسوف طلبه، والعامَّة من الشعوب دواءَ نفوسهم، وشفاء قلوبهم، والحقَّ المبين الهادي لهم الذي يأخذ بأيديهم إلى العزَّة والرفعة." [1]

ب- الاعتماد على العقل

وهو اتِّجاه واضح في كلّ المحاورات القرآنية، وطبيعةُ هذا الاعتماد أنّ أسلوب المحاورة يتَّجه إلى إبراز الحجَّة والمنطق العقلي، ويتابع التسلسل المنطقي مهما بلغ من صوَر الافتراضات التي تتنافى مع أُسُس القرآن " حتىَّ إنَّنا نجد الله تبارك وتعالى يوجِّه نبيّه- صلى الله عليه و سلم- في حواره مع المشركين إلى أن يفترض لهم أنّ هناك آلهة أخرى مع الله، ثم يحاورهم كيف تكون النَّتيجة (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) [الإسراء: 42].

و هكذا نجد أسلوب المحاورة في القرآن يعتمد على الحجج العقلية المجرَّدة- أثناء المحاورة- البعيدة عن التأثّر بأيّ مؤثر أو عامل خارجي، وهو أقصى ما يمكن أن يطلبه أو ينتظره مُفكّر يَدَّعي الحرية في فكره، أو باحث يَدَّعي التجرُّد من التعصب و الانحياز." [2]

وقد ضرب إبراهيم- عليه السلام- أمثلة باهرة في هذا المجال، خاصَّة في حواره مع المشركين الذين كانوا يَعبدون الكواكب حين افترض معهم في حواره أنَّه يعبد كوكبا مثلهم، ثم تَدرَّج معهم في الاستدلال العقلي على بُطْلان هذه الآلهة حتىَّ وصل بهم إلى الإله الحق.

---

1) المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ص 37.

2)أسلوب المحاورة في القرآن ، ص 30.

قال تعالى: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَا . هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ الَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (78) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (79)) [الأنعام 76-79].[1]

" إنّ القرآن الكريم قد أعطى العقل المكانة اللائقة به فقد نَوَّه به في العديد من السياقات إلى حد أنّه وصف الذين لا يُعْمِلون عقولهم بالأنعام أو أضلُّ، ولكنْ ينبغي أنْ يَنْصبَّ العمل العقلي في ميدان الظواهر الكونية، و في أُطُر الأنفس وما حولها." [2]

إنّ غرض التجرُّد من أيِّ مؤثر في محاورات القرآن الكريم واعتمادها على الحجج العقلية فيه معنى كبير وعميق، وذو دلالات واضحة منها تمجيدُ الإسلام للعقل، ومنها ثقة الإسلام في رسوخ مبادئه وموافقتها لكلِّ العقول السليمة.

جـ- إنصاف الخصم

ومن السِّمات الواضحة في محاورات القرآن المحافظة على حقِّ الخصم من كل وجه، وسواءٌ أكان المحاور الذي يُمثِّله القرآن شخصا مؤمنا عاديا، أم كان نبيا من الأنبياء بل حتى وإن كان الله- عزَّ وجلَّ- نفسُه فالأمر واحد في المحاورة و هو إبراز حقِّ الخصم و إنصافه، ونَلْحظُ أنّ أوضح النواحي التي رعاها منهج القرآن وأنّها من حق الخصم ما يأتي:

1- التجرُّد من المؤثِّرات والاحتكام إلى حَكَمٍ يرتضيه الطرفان، فأمَّا التجرُّد من المؤثِّرات فمثاله أنْ يُحاور مؤمنٌ كافرا في إثبات وجود الله تعالى، فلو قال المؤمن للكافر أنا مؤمنٌ بوجود الله تعالى ثمّ قال أي شيء بعد ذلك فليْست هذه محاورة بل هي إلزام للخصم أو محاورة فاشلة منذ البداية لأنّه أعْلن مخالفته لخَصمه في أوَّل خطوة من طريق المحاورة.

وكذلك لو قال له: قال الله تعالى كذا أو قال الرسول- صلى الله عليه وسلم- كذا، كان هذا كذلك غير سليم لأنّ الخصم لا يؤمن أصْلا بالله تعالى ولا برسوله الكريم "وإنّما المحاورة المنطقية السليمة أن يتجرَّد كل من الخصميْن أثناء المحاورة من عقيدته افتراضا وهذا ما رعاه القران الكريم في كلِّ محاورته بحيث يَنطلق مع خصومه من نقاط مشتركة يَتَّفق عليها الطرفان ثم يقيم عليهم الحجَّة." [3]

---

1) انظر تفاصيل هذه المحاورة في التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور 7|210.

2) الجدل في القرآن، محمد التومي، ص83.

3) أسلوب المحاورة في القرآن، عبد الحليم حفني ص32.

وانظر مثلا إلى إبراهيم- عليه السلام – لَمّا افترض مِن قومه أنَّه مشرك مثلهم يَعبد كوكبا كما يعبدون، ثمّ أقام عليهم الحجَّة بأدلّة عقلية على زيف كل هؤلاء الآلهة ووصل بهم إلى ضرورة عبادة الإله الحق " وعند توجيه الله تعالى نظر المجادَل إلى الحقائق من غير اتِّجاه إلى إلزام من أوَّل أمْرٍ أو بعد إلزامه وإفهامه يكون تَصْريف البيان، ومناحي التأثير، وتكون العبارات التي تخاطب العقل والوجدان، وتمسُّ مواطن الإحساس، وتتنوَّع المناهج وتتضافر المعاني، وللألفاظ جِدَّتُها وطلاوتُها...ويَختلف الاتجاه إلى مواطن الاستدلال وينابيعه فمرَّة يكون الاستدلال بردِّ المسائل إلى أمور بديهية معروفة...وأحيانا يَضرب الله الأمثال ليُقَرِّب الحقائق ويُدْنيها...وأحيانا يُوجِّه نظر الناس إلى المخلوقات وإلى الكوْن ممَّا يدلُّ على قُدْرة الصانع وعِلْم المبدع." (1)

وأمَّا الاحتكام إلى قاضٍ يرتضيه الطرفان فذلك أمر طبيعي أنْ يَحتكم الطرفان إلى قاضٍ يرتضيانه ليَحْكم بينهما، ولكنْ هذا إنَّما يحدث في الخصومات الدنيويَّة، أمَّا الخصومات الدينية العَقَدية فلا يُتَصوَّرُ فيها قاضٍ مُرتضى من الطرفين، لأنَّ القاضي إمَّا كافر وإمَّا مؤمن وليس بينهما وسط، ولذلك لم يكن هناك حَكَمٌ في الخصومات الدينية إلاّ العقل لأنَّه هو القَدْر المشترك المتَّفق عليه وعلى حقائقه بين الناس جميعا لذلك نجد القرآن الكريم يُرَكِّز دائما في محاوراته على جعْل العقل هو الحَكَمُ.

" إنَّ الجدال الهادف والمفيد هو ما كان موضوعيا... والموضوعية لا تَتوفَّر إلاّ بانعدام وسائل الضغط، وعوامل الإكراه، حتى يتمكن العقل المجرَّد بما تَحقَّقت له من حرِّية، أنْ يَفْحص، ويُحلِّل، ويَتتَّبع، ويُجَرِّح، ويُعَدِّل، وإذا لم تَتوفر الحرِّية تكون أحكامه قاصرة... ونتائجه غير موثوق بها." (2)

2- حماية الخصم أثناء المحاورة، فهما يَبلغ الخصم المحاور من الضُّعْف في رأيه أو في كيانه نجدُه في محاورة القرآن الكريم مَحْميا لا يناله أدنى أذى، ولا تسْفيه، ولا تَحقير، فلا يوصف الخصم بأنَّه مخطئٌ إلاّ بعد انتهاء المحاورة وإقامة الحجَّة عليه " إذْ لا بدَّ من التقيُّد بالقول المهذَّب والبُعد عن الطَّعن و التجريح و احتقار الرَّأي الآخر مهما كُنتَ جازما بخطئه، وقد أرشدنا الله إلى هذا بقوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت 46]." (3)

إنَّ الإساءة إلى الخصم قبْل انتهاء المحاورة ظلمٌ له، ولذلك نجد الخصم في المحاورات القرآنية مَصونا من الأذى حتَّ يَصدُر عليه الحُكْم، ومثال ذلك حوار القرآن لأُبَيٍّ بن خَلَفٍ الذي جاء للنبي- صلى الله عليه و سلم- مُدَّعيا إنكاره مقدرة الله- عزَّ وجلَّ- على بعْث الموتى، لكنَّ الله- عزَّ وجلَّ- وجَّه نبيه الكريم إلى محاورته في غير إيذاء، بل فيما يُشْبه عتاب الوُدِ والتَّقرُّب ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ

---

1) المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، ص385.

2) الجدل في القرآن، محمد التومي، ص68.

3) بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم، موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، ط:2، 1416هـ- 1996م، ص209.

خَصِيمٌ مُبِينٌ (77) وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (78) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (79)) [يس:77- 79].

3- إعلان المساواة مع الخصم، وهي درجةٌ أعْلى من حماية الخصم من الأذى " حيث نَلمس في محاورات القرآن الكريم إشعارا بقيمة الخصم، وبمساواته مع مُحاوِره فيما يتعلّقُ بهذا الحوار وهذا أقصى ما يُمكن منحه من عدالة للخصوم." (1)

ومثال ذلك أنَّه مع اليقين بأن النَّبي- صلى الله عليه وسلم- على حقٍّ، وأنَّ محاوريه من كفار قريش على باطل إلاّ أنَّ الله- عزَّ وجلَّ- يُوَجِّهه إلى افتراض التجرُّد من ذلك كله وإشعارهم بالمساواة معه في صورة أنَّه لا يَعْلم من هو المهتدي ومن هو الضَّال (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (24)) [سبأ:24].

د- الرفق بالخصم المهزوم

وحديثُنا هنا عن مرحلة ما بَعْد انتصار القرآن، أو مَنْ يُمثِّل الحقَّ في التعبير القرآني وهزيمة خصمه.

وهنا نجد أنَّ القرآن الكريم في مُعظم محاوراته يرفق بالخصم في كلِّ الأطوار، ففي طوْر المحاورة نفسها رأينا كيف يرفق القرآن الكريم بالخصم ويحميه حتى تنتهي المحاورة، ثم تُعْلن النتيجة بانتصار الحق، وفي هذه الحالة يكون من حق الخصم العادي أن ينال من خصمه ولو في معرض الإشادة بنصره هو " أمَّا أسلوب القرآن فنَلْحَظ فيه التركيزَ على إعلان النتيجة وإبرازها لأنها محور الخصومة وإعلانها في صورة الإعلام والنَّشْر الذي يهدف أن يكون في أوسع نطاق مُمْكن، لأنَّ نتائج محاورات القرآن هي الهدف المقصود وهي الدين نفسه، أمَّا ذاتُ الخصم فنَحُسُّ أنَّ محاورات القرآن لا تهدف إلى النَّيل منه وإيذائه حتى بعد هزيمته." (2)

ويَرجع ذلك- والله أعلم- إلى أنَّ القرآن الكريم لا يُعْنى كثيرا بالأشخاص كَثُروا أو قَلُّوا إلاّ بمقدار اعتراضهم طريق الحق ونشْر الدعوة، وإيذاء الرسل وأتباعهم- كما هو حال فرعون وأَبي جهل وغيرهم..- أمَّا أشخاصهم ذاتها أو خصومتهم نفسها فالقرآن الكريم أكبر من أن يوليها اهتماما كبيرا لذلك نجد مُهاجمته لأشخاص مُعَيَّنين راجعٌ لاعتراضِهم طريق الدعوة إلى الله.

هـ- تحديد الهجوم

ليس معنى ما سبق أنَّ المحاورات القرآنية كلُّها رِفْقٌ بالخصم لأنَّ الذي يَلتزم الرفْق بخصمه في جميع الأحوال ليس أهلا للفوز، ولكنَّ القويَّ حقًّا من يَملك الحكمة في معالجة خصمه وخاصَّة في الحوار بالذات، وعلى الأخصِّ في حوار الدعوة إلى الدين الحق، فالداعية الناجح لا يُغْفِل جانب الرفق بالخصم بهدف كَسْبه والتأثير على عواطفه ومشاعره وهذا جانب مُهِمٌّ في المحاورة، ولكنْ هناك جانبا آخر تقتضيه طبيعة الخصام من حيث هو، وهو جانب القوّة حتى يحس الخصم بأن مُحاوِرَه رغم لِينه و رِفْقه به فإنَّه يملك من القوة ما يكفي للقضاء عليه

---

1) أسلوب المحاورة في القرآن، ص 33.

2) نفسه، ص 36.

وهذا الإحساس له أهميَّة كبيرة في التأثير النفسي على الخصم تمهيدا لتحقيق ما يهدف إليه الطرف الأقوى.

إنَّ " الجدال بالتي هي أحسن[أي الحوار] لا يَصلحُ استعماله مع من لا يُقَدِّر حقَّه، ولا يَعرف قيمته، فإذا كان المقابِل ممن لم تكن غايته الكشْف عن الحقيقة، ومعرفةُ الصواب من الخطأ، بل كان همُّه التشبُّث فيما هو عليه، ورَفْض ما عداه بما أتيح له من الأساليب الخسيسة كالفُحْش في القول، والغِلْظة في المعاملة، فإنَّه من الحكمة أنْ تقابله بما هو مكافئ، أو أشدَّ و إلاَّ سيزداد عُتُوًّا وعِناداً، قال المراغي في هذا الصدد " فمثل هؤلاء لا ينفع فيهم إلا الغلظة. " (1)

وعموما محاورات القرآن الكريم اشتملت في أغلب أحوالها على الجانبين، جانب الرفْق والموادعة وجانب إظهار القوّة في أيّ صورة يراها التعبير القرآنيُّ مناسبة للمقام ولشخصية خصمه.

" وبهذا تكون محاورات القرآن الكريم قد استخدمت جانبيْ القياد أو فَرْعي العَنَان فبعض الناس يؤثِّر فيه اللِّين، وبعضهم تؤثِّر فيه الشِّدة ولكنْ إذا اجتمع الأمران يكونان في قمَّة التأثير، والجَمْع بينهما يحتاج إلى حكمة ومَنْ أوْلى بهذه الحكمة من أسلوب القرآن الكريم." (2)

إنَّ خصائص أسلوب المحاورة في القرآن الكريم دليلٌ على عظمة وشموليّة المنهج الذي رعاه القرآن في الدعوة إلى الحق فهيَّأ لذلك أنْسب الوسائل و أفْضل ظروف النَّجاح، وقد بلغ في ذلك أقصى قِمم النَّجاح، والواقع التاريخي شاهد على ذلك.

ثانيا: في جناية الغرور.

بَعد أن عرفنا مفهوم المحاورة وأهمَّ خصائصها في القرآن الكريم، نتناول في هذا المطلب أنموذجا لمحاوراته التي تتعلق بالجانب السلوكي.

قال تعالى:(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (77) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (78) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (79) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (80) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ

---

1) أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، ص 40.

اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (81) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (82) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.)

[القصص: 76-83].

عناصر المحاورة

1- الموضوع

إنّ موضوع المحاورة يتعلّق بشخصية قارون وما أصابه من الغرور وتكبُّر بالمال و الجاه الذي أنعم الله عليه بهما، والقرآن الكريم في دِقّته البالغة يعرض علينا- رغم الإيجاز- شخصية قارون بتاريخها كلّه من البداية إلى النهاية.

فقارون كان من القوم موسى- عليه السلام- فقد قيل أنه ابن عمٍّ موسى- عليه السلام- وقيل بل عمُّه وكان حَسَن الصورة، كما كان من علماء بني إسرائيل، ونعبير القرآن بأنّه من قوم موسى يَحتمل مجرَّد القرابة، أي أنّه كان قريبه نَسَبا ولم يكن مؤمنا، ويَحْتمل أنّه كان مؤمنا من أتباع موسى المؤمنين، ثمّ أفسدته النعمة فخرج من رحاب الإيمان مُؤْثرا الدنيا على الآخرة، مُتَناسيا فضل الله عليه، وخرج على قومه في زينته فخورا، فنصحه الناصحون من قومه، فلم يأْبَهْ بهم وتمادى في غروره وبغْيه فانتهى به الحال إلى أنْ خسف الله به وبداره الأرض.[1]

2- أطراف المحاورة ومواقفهم

اشترَكَ في هذه المحاورة أكثر من طرفين، ورغم أنّ موقف بعض الأطراف كان متقاربا- كموقف المؤمنين وموقف العلماء من قوم قارون- إلاّ أنّ هذا التقارب لا يُلغي بعض الفوارق الهامَّة-كما سنرى- ولذلك سنَعرض كلاً منها على حِدة، وأمّا الأطراف بصفة عامَّة فنعرضها بالترتيب الذي ساقته الآيات، مع بيان موقف كلّ طرف.

أ-موقف قارون

يظهر موقف قارون ويَبْرُز بداية من تكبُّره على قومه، وإفساده في الأرض بعد أن أنعم الله عليه بالمال الكثير.

" لو ظلّ قارون كما هو على حاله الأولى ولم يتغيَّر سواءٌ أكانت حالةَ إيمانٍ أم حالةَ كفرٍ، لم يكن يُعْنى القرآن بشأنه ويتَّخذه مثلا، فما أكثر الكافرين الأغنياء وما أكثر المؤمنين الأغنياء كذلك، ولكنَّ القرآن لا يُعْنى بالحديث عن الأفراد منهم لأنّ كلاَ الحالين ليس غريب، أمّا الغريب الذي يَستحقُّ أن يُتَّخذ عبرة، فهو تَحوُّل الإنسان من حالة إلى حالة أخرى مُسْتغلا نعمة الله فيما هو شرٌّ." [2]

---

1) انظر التحرير والتنوير، 20| 174، 175، والكشاف، 3| 434، والتفسير المنير، 10| 527 وما بعدها.

2) أسلوب المحاورة في القرآن، عبد الحليم حفني، ص214.

لقد صوَّرت الآيات القرآنية تَغيُّر حال قارون، وساقتْ ذلك في شكل أجوبة لأسئلة مفترضة على النَّحو الآتي:

السؤال الأوَّل: ماذا كان من حال قارون؟ والجواب أفسدته النعمة فبغى على قومه (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ).

السؤال الثاني: ما النِّعمة التي أفسدته؟ والجواب (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ) " أي أعطيناه من الأموال الوفيرة، والكنوز الكثيرة ما يَثقُل على الجماعة أصحاب القوَّة حَمْل مفاتيح خزائنه لكثرتها وثقلها فضلا عن حمْل الخزائن والأموال، والآية تصوير لِما كان عليه قارون من كثرة المال والغِنى والثَّراء." (1)

السؤال الثَّالث: ما مظاهر إفساد النِّعمة لقارون؟ والجواب أنَّ هناك عدَّة مظاهر بدتْ منه، وهي التي كانت السَّبب المباشر للمحاورة.

أوَّلها: البغي على قومه والاعتداء على حقوقهم، وثانيها: ضُعفُه أمام سلطان المال والجاه حتَّ سيطر عليه الغرور والخيلاء، وثالثها: استغلاله ما أنعم الله به عليه من مال وجاه في الإفساد في الأرض.

السؤال الأخير: ما كان موقف قارون بعد أنْ نصحه النَّاصحون من قومه؟ والجواب أنه تناسى فضل الله عليه ونسب كلَّ شيء إلى عِلْمِه وقوَّته (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) .

ب- موقف المؤمنين

إنَّ الذي بدا من قارون كان مُنكَرا واضحا يجب على المؤمنين الصادقين أن ينهوْه عنه، وقد قاموا بذلك فعلا ، ولكنَّهم حتَّ لا يُشعِروا قارون أنَّهم يَلتمسون أخطاءه وحدها، أرادوا أن يكونوا له ناصحين، فنصحوه في صورة الأمر بالمعروف، فجمعوا بذلك بين الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر في النِّقاط الآتية:

1- نَهُوا قارون عن الفرح الشديد (لَا تَفْرَحْ) ، هذا السلوك النَّابع من ضعْف النَّفس أمام النِّعمة، فمن صفات النضْج والاكتمال في المرء أنْ يستطيع الثبات أمام المثيرات، فلا تضْعف نفسه في حال الرَّخاء، ولا في حال الشدَّة، وضعْف النفس في حال الرَّخاء والنعمة يتمثَّل في شدَّة الفرح الذي يُسيطر على النفس فيُخرجها عن حدِّ الاعتدال إلى التكبُّر والخُيلاء، وأمَّا ضعْفها في حال الشدَّة فيَظهر في شدَّة الحُزْن الذي يُخرجها عن حدِّ الاعتدال كذلك ويوقعها في اليأس والقنوط، وقد وجَّهنا القرآن الكريم إلى هذا الاعتدال في قوله تعالى: (لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (23)) [الحديد:23].

إنَّ المؤمنين من قوم قارون أنكروا عليه الفرح الذي يَجُرُّ صاحبه إلى الغرور والخيلاء فقالوا له: (لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ).

---

1) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط:4، 1402هـ- 1981م، 3|445، 446.

" والفرح يُطلق على السرور كما في قوله: (وَفَرِحُوا بِهَا) في يونس، ويُطلق على البطر والازدهاء، وهو الفرح المفرط المذموم... والفرح المنهيُّ عنه هو المفْرَط منه، أي الذي تَمحضَّ للتعلّق بمتاع الدنيا ولذّات النفس به لأنّ الانكباب على ذلك يُميت من النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة... فحُذِفَ المتعلقُ بالفعل لدلالة المقام على أن المعنى لا تفرح بلذّات الدنيا مُعْرِضا عن الدين والعمل للآخرة.

و قد أُشير إلى بيان المقصود تعضيدا لدلالة المقام بقوله (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ) أي المفْرِطين في الفرح فإنّ صيغة (فَعِل) صيغة مبالغة مع الإشارة إلى تعليل النهْي، فالجملة علّة للتي قبلها، والمبالغة في الفرح تقتضي شدّة الإقبال على ما يُفْرح به وتَستلزم الإعراض عن غيره فصار النهْي عن شدّة الفرح رمزا إلى الإعراض عن الجدّ والواجب في ذلك. " (1)

2- حاولوا الرفْق بنفسيَّة قارون من باب الدعوة إلى الله بالحكمة، فطلبوا منه أن يؤدِّي حقَّ الله في ماله، فصاغوا هذا المطلب في ثلاث نقاط أساسية، أوَّلاها: تذكيرُه بأنّ كلّ ما يَملك هو في الأصل ملْكٌ لله (آتَاكَ اللَّهُ) و ثانيها: أنّ ما ينفقُه في الخير إنَّما يدَّخره لنفسه يوم القيامة (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ) وثالثها: ألاّ يظنَّ أنَّهم يريدونه أنْ ينصرف عن الدنيا بالكلّية، بل طلبوا منه أنْ لا ينسى نصيبه من الدنيا لأنّ ترْك الدنيا كُلّية ليس من متطلبات الإيمان (وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا).

يقول سيِّد قطب معلقا على هذه الآية: " وفي هذا يتمثّل اعتدال المنهج الإلهي القويم، المنهج الذي يُعلّق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يحرمه أنْ يأخذ بقسْط من المتاع في هذه الحياة بل يحضُّه على هذا ويكلّفه إيَّاه تكليفاً، كي لا يَتزَهَّد الزهْد الذي يُهمل الحياة ويضعفها... وهكذا يحقّق هذا المنهج التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكّنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة التي لا حرمان فيها ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة." (2)

3- تدَّرجوا بقارون في رِفْق إلى درجة أسمى مطالبين منه أنْ يراعيها حتىَّ يبلغها، وهي تذكيره بأنّ الله – عزّ وجلّ- جعله في وضْع أحسن من غيره، و هذا إحسان منه تعالى فالواجب عليه أنْ يُحسن هو كذلك إلى الناس كما أحسن الله إليه (وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ).

" أي وأحسن إلى خَلْقه كما أحسن الرَّبُّ إليك، وهذا أمر بالإحسان مطلقا بعد الأمر بالإحسان بالمال، ويَدخل فيه الإعانة بالمال والجاه، وحسْن اللقاء، وحسْن السمعة، أي أنه جمع بين الإحسان المادي، والإحسان الأدبيِّ والخُلُقي." (3)

4- عودتهم إلى أسلوب النهي، فطلبوا من قارون أن لا يبغي الفساد في الأرض (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ).

---

1) التحرير و التنوير، 178/20.

2) في الظلال القرآن، 2711/5.

3) التفسير المنير،529/10.

" وعطف (وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ) للتحذير من خلْط الإحسان بالفساد فإنَّ الفساد ضدُّ الإحسان، فالأمر بالإحسان يقتضى النهي عن الفساد وإنَّما نصَّ عليه لأنَّه لَمّا تعدَّدت موارد الإحسان والإساءة فقد يَغيب عن الذهن أنَّ الإساءة إلى شيء مع الإحسان إلى أشياء يُعتبر غيرُ إحسان." (1)

ثمَّ همْ نَسبوا كراهية هذا الخُلُق إلى الله فقالوا: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ)، و كأنَّهم يقولون له: لسْنا نحن الذين نَضيق بإفسادك في الأرض وإنَّما هو رب العالمين الذي يَكره ذلك، فَعليْك أنْ تخشى الله و تتَّقه.

ج- موقف قارون النظري

بَعْد أنْ سمع قارون ما طلبه المؤمنون منه، حاول أنْ يُلْغي كلَّ ما طلبوه، بمحاولة هدْم الأساس الذي بنى عليه المؤمنون كلامهم و مطالبهم- كما ذكرنا- فهُمْ قد بَنُوا كلامهم على أنَّ هذا المال الذي عند قارون إنَّما هو هِبَة من الله، وبناء على هذا يجب مراقبة الله فيه و أداء حقِّه، والإحسان كما أحْسَن الله إليه، و لكنَّ قارون يرى غير ذلك فهو يرى أنَّ المال الذي عنده ليس هِبَة من الله تعالى، و إنَّما هو نتيجة عِلْمه وجهده (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي).

أيْ " إنَّما أوتيت هذا المال استحقاقا على عِلْمي الذي طَوَّع لي جمْعه وتحصيله، فمالَكُم تُمْلون عليَّ طريقةً خاصةً في التصرُّف فيه، وتتحكَّمون في مِلْكيتي الخاصة، وأنا إنَّما حَصلْت على هذا المال بجهدي الخاص، واستحْققْته بعِلْمي الخاص." (2)

وما دام الأمر كذلك فلا يترتَّب عليه شيءٌ ممَّا طلبه منه المؤمنون، وفي هذا مُغالطة وتَمْويه كبير من قارون، فإنَّ العِلْم والجهد لا يُحقِّقان لصاحبهما شيئا حتَّى بأذن الله- عزَّ وجلَّ- بذلك، وحتَّى لو افترضنا أنَّ المال كان نتيجة مباشرة العِلْم والجهْد الذي بذلَه قارون، فإنَّ العِلْم نفسه والجهد، وكلَّ الصفات التي تُؤهِّل الإنسان لتحصيل المال هي هِبة من الله، ولكنَّ قارون حاول هدْم هذا الأساس الذي بَنَى عليه المؤمنون كلامهم بهذه المغالطة، أو بهذا التجاهل ولذلك نجد التعبير القرآنيَّ يَرُدُّ عليه بالتجاهل أيضاً، فيتجاهل ادِّعاء قارون أنَّ المال من عِلْمه وجهده، و لم يُحاوره في مَصْدره بل اتَّجه مباشرة إلى مصير هذا المال (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ).

" وكأنَّ الله – عزَّ وجلَّ- يقول لقارون إذا كان حقًّا عِلْمك وجهدك هما اللذان أكْسباك هذا المال، فهل يستطيع هذا العِلم والجهد أنْ يَمنعا مالك من الهلاك؟ فإنْ خَفيْت عليك الإجابة فإنَّ في أخبار السابقين الذين أهلكهم الله مع كونهم أقوى منك فيما تدَّعيه، وأكْثر جمْعاً الإجابةَ الشافية الكافية." (3)

---

1) التحرير و التنوير، 180/20.

2) في ظلال القرآن، 2712/5.

3) أسلوب المحاورة في القرآن، ص 217.

د- الجواب العملي

كأنّ قارون لم يكْتَف بالردِّ الكلامي على محاوريه، وإنّما أراد أنْ يُبيِّن لهم أنّه يتكلّم مِن واقع وأنّ هذا الواقع في رأيه أبلغ من الكلام فأراد أن يبيِّن لهم مدى تمكُّنه من ماله وجاهه، وأن لا سلطان لأحد عليه فيما يملك، بالإضافة إلى محاولة إظهاره ما يَتحدَّى به المؤمنين من مظاهر الغنى والجاه والنفوذ، كما حاول في الوقت نفسه أنْ يَسْخر من كلام ناصحيه، فَحَشَد كل ما لديه من أسباب الثراء والجاه والنفوذ في موكب مَهيب لم يَشهد الناس قبله مثله (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ).

وجملة (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ) " عطْف على جملة (وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ) إلى آخرها مع ما عُطِف بها وتعلّق بها، فدلّت (الفاء) على أنّ خروجه بين قومه في زينته بعد ذلك كلّه كان من أجْل أنّه لم يقصر عن شيء من سيرته و لم يتّعظ بتلك المواعظ، ولا زمناً قصيرا بل أعقبها بخروجه هذه الخرْجة المليئة صَلَفا وازدهاء، فالتقدير: قال إنّما أوتيته على عِلم عندي فخرج، أي رفض الموعظة بقوله وفعله، وتَعْدية (خَرَج) بحرف (على) لتَضْمينه معنى النزول إشارةٌ إلى أنّه خروج متعالٍ مُترفِّعٍ، و(في زينته) حال من ضمير(خرج). " [1]

هـ – موقف العامّة من الناس

وعامّة الناس هم الذين يمثّلون التفكير السطحي، ويتناولون الأمور من جانبها الأقرب والأيسر ويَحْكمون على الأشياء مِن سطْحها الظاهر، وليس لهم المقدرة على الغوْص فيما وراء هذا الظاهر، وهُمْ عادة يمثّلون الغالبية العظمى في كلّ المجتمعات، وقد أشار إليهم التعبير القرآني (الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا)، " والذين قوبلوا بالذين أوتوا العِلْم كان المعنيُّ بهم عامّة الناس، وضعفاء اليقين الذين تُلْهيهم زخارف الحياة الدنيا عمّا يكون في مطاويها من سوء العواقب فتَقْصر بصائرهم عن التدبُّر إذا رأوا زينة الدنيا، فيَلْهفون عليها ولا يتمنَّوْن غير حصولها، فهؤلاء وإنْ كانوا مؤمنين إلاّ أنّ إيمانهم ضعيف، فلذلك عَظُم في عيونهم ما عليه قارون من البذخ فقالوا: (إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) أي أنه لذو بخْت وسعادة. " [2]

إنّ العامّة من قوم قارون لمّا رأوه في زينته وثروته انصبَّ تفكيرهم على حبِّ الدنيا ومتاعها، وسيْطرت على كلّ واحد منهم أمْنية أن يكون له مثل ما لقارون، فقد بهرَهم حظُّ قارون (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)، فلم يكن لهؤلاء العامّة من إيمان المؤمنين الكافي، ولا من تفكير العلماء الدقيق ما يجعلهم يفكّرون قليلا ويَنظرون ما وراء هذه المظاهر الخدّاعة التي فَتنتهم وسيطرت عليهم.

---

1) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 10 | 182، 183.

2) المرجع نفسه، 10 | 183.

و- موقف العلماء

إنّ أهمَّ ما يميِّز العالم عن غيره أنْ يكون لديه فكر مستقل ولو نِسْبيا، يستطيع أنْ يزن به الأمور، وأن يتعمَّق فيما وراء السطح الظاهر للأشياء، فهو يملك القدرة على بحث الأمور ذاتها ثمَّ يستطيع أن يوازن بينها، ثمَّ بعد ذلك يستخلص منها الحقيقة، أونتيجة يمكن أن توصله إلى الحقيقة، وعلماء قوم قارون كانوا من المؤمنين، وكانت الحقيقة واضحةً في عقولهم- وقد أشار إليهم التعبير القرآني (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ)- لذلك فَزِعوا فزعا واضحا لمّا رأوا عامَّة المجتمع متهافتة على ما لقارون من مال وزينة، ومُعْجبين بذلك، بل وجعلوه أُمْنيةً وغايةً يتمنَّوْن بلوغها، وقد عَبَّر العلماء عن فزعهم، وإنكارهم على العامَّة بقولهم: (وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) وكلمةُ (وَيْلَكُمْ) " أصلها الدعاء بالهلاك، ثمَّ استُعملت في الزجْر والردْع والبعْث على ترْك ما لا يُرتضى." [1]، وهي هنا تفيد المعنى الأخير، بالإضافة إلى أنَّها توحي بفزع العلماء، وقلَقهم مما يرون من تصرفات العامَّة.

وكلمةُ (وَلَا يُلَقَّاهَا) قال فيها المفسرون: " لا يُوَفَّق لها، والضمير في (يُلَقَّاهَا) إلى ما يعود ؟ فيه وجهان أحدهما: إلى ما عاد عليه قوله تعالى:(آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا) يعني هذه الأعمال لا يؤتاها إلاَّ الصابرون، والثاني: قال الزجَّاج: يعني ولا يُلَقَّى هذه الكلمة وهي قولهم (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ) إلاَّ الصابرون على أداء الطاعات والاحتراز عن المحرَّمات، وعلى الرضا بقضاء الله في كلّ ما قسَم من المنافع والمضار." [2]

إنَّ فزَع العلماء لم يكن لمجرَّد تمنِّي العامَّة أن يكون لهم مثْل ما لقارون فيما تُوحي إليه الآية الكريمة (يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ) لأنَّ هذا ليس ممنوعا " فالممْنوع هو تمنِّي ذات ما يملكُه الغير لأنَّ هذا التمنِّي إنْ كان في النفس كان حسدا، فإنْ نفَّذه صاحبه أصبح عدوانا على ملْك الغير، وكلاَ الأمرين الحسد والعدوان إثْم، ومُنْكر لكنَّ العامَّة لم تَقَع في هذين المحظوريْن، وإنَّما كل ما في الأمر أنَّها تمنَّت أن يكون لها مثْل ما لقارون وهو ما يعرف بالغبطة و هو أمر مباح. " [3]

وقد يُقال إذن كيف يُنكر العلماء على العامَّة في شيء مباح؟.

والجواب - والله أعلم- أنَّ العلماء كانوا في غاية الدقَّة في فَهْم حقائق الأمور فهُمْ وإن أظهروا فزعا واضحا في قولهم (وَيْلَكُمْ) إلاَّ أنَّهم لم ينكروا على أُمْنية القوم في ذاتها لأنَّها شيء مباح، وإنَّما جعلوها مُفاضلة بين أمانيِّ القوم و ثواب الله يوم القيامة (ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا).

فالعلماء إذن أفزعهم إقبال العامَّة من الناس على الدنيا ونسيانهم ثواب الآخرة، لذلك ذكَّروهم بهذه الحقيقة بأنَّ ما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وكانوا يتَّقون.

---

1) الكشَّاف، 437/3.

2) التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، محمد الرازي فخر الدين، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط:1، 1425هـ - 2005م، 523/9.

3) أسلوب المحاورة في القرآن، ص 219.

هذا من جهة ومن جهة أخرى نجد أنّ العامّة هم الغالبية في المجتمع وتمنّيهم بهذه الصورة يدلُّ على سيطرة المظاهر على نفوسهم، ومجتمعٌ تَتحكّم فيه مظاهر الدنيا مجتمعٌ أجوف لا خير فيه، ولا مستقبل له، بل هناك أخطر من ذلك أثار فزع العلماء هو أنّ قارون لم يكن رجلا صالحا وإنّما استغلّ ما أتاه الله في الفساد والبغي وتمنّي غالبية المجتمع أن يكونوا مثْله معناه أنّه مجتمعٌ يتّجه نحو الفساد ومُشْرفٌ على الهاوية.

إنّ العلماء رغم قلّتهم إلاّ أنّهم يُشكّلون الطرف الإيجابيَّ في المحاورة لدقّة فَهْمهم، وبُعْد نظرهم لذلك استطاعوا أن يُدركوا خطورة الأمانيّ المسيطرة على القوم و يُدركوا سوء المستقبل لقومٍ تتملّكهم هذه النزْعة.

" وهكذا وقفتْ طائفةٌ منهم أمام فتنة الحياة الدنيا وقفة المأخوذ المبهور المتهاوي المتهافت، ووقفتْ طائفةٌ أخرى تسْتعلي على هذا كلّه بقيمة الإيمان والرجاء فيما عند الله، والاعتزاز بثواب الله، والتَقَتْ قيمة المال وقيمة الإيمان في الميزان، وفي كل زمانٍ ومكانٍ تسْتهْوي زينة الأرض بعض القلوب، وتبْهر الذين يريدون الحياة الدنيا ولايتطلّعون إلى ما هو أكْرم منها، فلا يَسألون بأيِّ ثمن اشترى صاحب الزينة زينته؟ ولا بأيِّ الوسائل نال ما نال من عَرَض الحياة؟ من مالٍ أو منصبٍ أو جاهٍ، ومن ثمّ تتهافتُ نفوسهم وتتهاوى كما يتهافت الذباب على الحلوى ويتهاوى، أو يسيل لعابهم على ما في أيدي المحظوظين من متاع، غير ناظرين إلى الثمن الباهض الذي أدُّوه، ولا إلى الطريق الدنِس الذي خاضوه، ولا إلى الوسيلة الخسيسة التي اتّخذوها.

فأمّا المتّصلون بالله فلهم ميزان آخر يُقيِّم الحياة، وفي نفوسهم قِيَمٌ أخرى غير قِيَم المال والزينة والمتاع وهُمْ أعلى نَفْسا وأكبر قلْبا من أن يتهاووا ويتصاغروا أمام قِيَم الأرض جميعاً...وهؤلاء هُم (الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) العِلْم الصحيح الذي يُقوِّمون به الحياة حقَّ التقويم. " (1)

3- النتيجة و الأثر:

فأمّا النتيجة الكبرى فكانت (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) وفي هذه النتيجة الحاسمة نقاط مهمّة.

أ- حلول الهلاك الذي حذّر الله- عزَّ وجلَّ- منه قارون في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً) فخَسف الله- عزَّ وجلَّ- الأرض بقارون وبداره التي كانت مَظهر جاهه ومَصدر ثروته ليَكُون عقابا له وعبْرة لغيره.

" إنّ قارون لمّا بَطر وعَتا خَسف الله به وبداره جزاءاً على علوِّه وبَطره، و(الفاء) تدلُّ بذلك لأنّ الفاء تُشْعر بالعلِّيَّة. " (2)

ب- في هذه النتيجة الحاسمة إظهارٌ لقوّة الله -تبارك و تعالى- وأنّه لا أحد يُجير إذا حلّ غضبه - عزَّ وجلَّ-

---

1) في ظلال القرآن، 2713/5.

2) تفسير الرازي، 5232/9.

(فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ)، " أيْ ما أغنى عنه ماله ولا حاشيته، ولا دَفعوا عنه نقمة الله ونكاله، ولا كان هو في نَفْسه منتصِرا لها فأصبح لا ناصر له من نفسه ولا من غيره. " [1]

جـ- إظهارٌ لضعف كل قوَّة - مهما بلغتْ- أمام قوَّة الله تعالى فلم يُغْنِ عن قارون شيء ممَّا يَمْلك حين نَزَل به قضاء الله (وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ).

وأمَّا الأثر الذي ترتَّب على هذه النتيجة من مواقف أطراف المحاورة فقد كان أوْضح ما يكون في نفوس الذين خُدِعوا بمظاهر الحياة، وسيْطرت على نفوسهم زينة قارون وماله، فهؤلاء كانوا أَسْرع الناس تَأثُّرا بما حلَّ بقارون، ليس لأنَّهم كانوا أعْمق إيمانا من غيرهم ولا أشدَّ إدراكا لمضمون العبْرة، بل لأنَّهم أحسُّوا بشيء من الذنْب أو تأنيب النفس على أمانيِّهم السابقة، ومن ثمَّ فإنَّ هذا الإحساس بَعَث في نفوسهم الخوْف من أن يَحلَّ بهم ما حلَّ بقارون لأنَّهم وإنْ لم يشاركوه واقعا فقد شاركوه نفسيا برضاهم عمَّا يَفعل، وإعجابهم بما يملك (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) [القصص: 82].

إنَّ كلمة (وَيْكَأَنَّ) " عند الأخْفش مُركَّبة من ثلاث كلمات (ويْ) وكاف الخطاب و(أَنَّ) فأمَّا (ويْ) فهي اسم فاعل بمعنى أعْجبْ، وأمَّا الكاف فهي توجيه الخطاب تنبيها عليه مثل الكاف اللاحقة لأسماء الإشارة، وأمَّا أَنَّ فهي(أَنَّ) المفتوحة الهمزة أخت(إنَّ) المكسورة الهمزة فما بعدها في تأويل مصدر هو المتعجَّب منه فيُقدَّر لها حرف جرٍ مُلتزَمٌ حذْفه لكثرة استعماله وكان حذفه مع (أَنَّ) جائزا فصار في هذا التركيب واجبا وهذا الحرف هو اللاَّم أو (مِنْ) فالتقدير: أعْجبْ يا هذا من بسْط الله الرزق لمن يشاء. " [2]

إنَّ من كلام العامة ورَدِّ فعلهم تبدوا المعاني الآتية:

1- الندم على انخداعهم بمَظهر قارون و زينته وأنَّهم تمنَّوا مكانه.

2- بدأوا يَفهمون حكمة الله في توزيع الرزق بين عباده بدرجات متفاوتة (يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ).

3- أثَّر في نفوسهم الخوف بأنْ يَحلَّ بهم مثلُ ما حلَّ بقارون فدفَعهم هذا الخوف إلى الإيمان بالله، وقَرَّبهم من معرفة الله و الإحساس بفضله في عدم مؤاخذتهم على أمانيِّهم وانصراف نفوسهم إلى التهافت على مظاهر الدنيا وإعراضهم عن نصيحة العلماء لهم.

4- من الواضح أن العامَّة لم يكونوا من النوع الذي يستجيب للحسنى وتأثَّر فيه الموعظة "وإنَّما كانوا من النوع الذي يَخضع لسلطان التهديد والوعيد، فقد أجهد العلماء أنفسهم لتبصيرهم لكن دون جدوى و ما إنْ

---

1)التفسير المنير، 536/9.

2) التحرير و التنوير، 187/20.

أحسُّوا بالخوف والعذابُ يحلُّ قريبا منهم حتى عادوا إلى الحق والإيمان مُسْرعين." [1]

4- العبرة

إنّ المحاورة بملابساتها حافلةٌ بمواضع العبرة والموعظة ومن أبرز هذه المواعظ.

أ- أنّ النفس الكريمة الخيِّرة لا تُفسدها النعمة، ولا تضعف أمام المغريات والمثيرات ولذلك دعا الإسلام إلى ثبات النفس فلا تنساق وراء النعمة وتنسى المنْعم ولا تنهار تحت وطأة البلاء، فقرَّر القاعدة العظيمة في قوله تعالى: ﴿لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 23]، ولكنْ نفس قارون كانت أضعف من أن تتحمَّل نعم الله عليها وتؤدّي شكرها.

ب- الغرور بالنعمة منْ أقصر السبُل المؤدِّية إلى زوال هذه النعمة كما كان حال قارون.

جـ- لا ينبغي الاغترار بالمظاهر والأعراض الزائلة، بل يجب التماس ما هو خيرٌ و أبقى عند الله- عزَّ وجلَّ- وهي الجنة والدار الآخرة.

" إنّ الثراء ليس آية على رضا الله فهو يُوسّع الرزق على من يشاء من عباده ويُضيِّقه لأسباب أخرى غير الرضا والغضب ولو كان دليلَ رضاه ما أخذ قارون هذا الأخْذ الأليم العنيف إنَّما هو الابتلاء الذي قد يَعْقبه البلاء."[2]

د- الأمر بالمعروف والنهي عن المنْكر صفة بارزة في حياة المؤمنين تظهر جليًّا في مواجهة كلّ مُنْكر وكلّ جور عن الصواب.

هـ- أَجملَ القرآن الكريم كلّ هذه العِبر في قوله تعالى تعقيبا على أحداث المحاورة: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[القصص:83].

" إنّ الفوز بالدار الآخرة وبجنَّة النعيم لا يكون إلاّ لمن قَمع في نفْسه شهوة العلوِّ في الأرض والفساد، لأنّ الاشتغال بأحد الأمرين والحصول عليه لا يتلاءم مع الأخر مطلقا، لذلك جعل الله – عزَّ وجلَّ -نَيْل الآخرة مقابلا لعدم إرادة العلوِّ ولا الفساد في الأرض و هذا لا يكون إلا لعباد الله المتَّقين." [3]

بَعْد هذا العرض لمحاورةٍ من محاورات القرآن الكريم نَخلص، إلى أنّ أسلوب المحاورة هو أحد أساليب التي وظّفها القرآن الكريم في إظهار الحقِّ ودحْض الباطل، وقد تسنَّ لنا الوقوف على بعض مظاهر إعجاز هذا الأسلوب في سورة القصص التي كانت رُكْنا شديدا آوى إليه النبي- صلى الله عليه و سلم- وصحابته الكرام في تلك المرحلة الصعبة من مراحل الدعوة.

---

1)أسلوب المحاورة في القرآن، ص 222.

2) في ظلال القرآن ،2713/5.

3) أسلوب محاورة القرآن، ص239.

أسلوب القصة في سورة القصص

ذكر العلماء أن من وجوه إعجاز القرآن الكريم إخباره عن الغيوب الماضية من قصص الأمم البائدة، وأنباء الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم، التي لم يكن النبي- صلى الله عليه وسلم- يعلمها هو ولا قومه من قبل أن يتزّل عليه القرآن.

قال الباقلاني: " والوجه الآخر ماعليه القرآن من قصص الأوّلين، وسيَر الماضين، وذِكْرُ ماشجر بينهم، وكان في أعصارهم مما لايجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السيَر ودرْسُه لها وعنايته بها ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها، مع العلم أن النبي- صلى الله عله وسلم- لم يكن يتلو كتابا ولايخطّه بيمينه، وأنه لم يكن ممن يُعرف بدراسة الكتب ومجالسة أهل السيَر والأخذ عنهم ولا لقي إلا من لقوه، ولا عَرف إلامن عرفوه، وأنهم يعرفون دأبه وديدنه، ومنشأه وتصرفه في حالة إقامته بينهم ... فدل ذلك على أن المخبِر له عن هذه الأمور هو الله سبحانه، علاّم الغيوب فهذا وجه من وجوه إعجاز القرآن." (1)

والقصص القرآني معجز من ناحيتي الشكل والمضمون، فمن الجانب الشكلي فإن مجيء القصص في قالب لغوي بديع لا قِبَل للبشر به، طمس ببيانه قرائح البلغاء، وأعجز ببلاغته الخطباء والشعراء، لَممَّا يشهد بأعجاز القرآن وسموّه، ومن جانب المضمون يعتبر الإخبار عن الغيب الصادق معجزة باهرة.

وقد امتن الله- عزَّ وجلَّ- على نبيه الكريم حين قال له: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) [يوسف:3]، فالقصص القرآني مفضَّل على جنس القصص البشري كلّه لِما تضمّن من آيات الإعجاز، ولاريب أن معرفة هذا الإعجاز في أسلوب القصص القرآني لا يتم إلا عن طريق الوقوف على مظاهر هذا الاعجاز، ولعل استكشاف هذه المظاهر في سورة القصص يتطلب الإجابة عن الأسئلة التالية:

- إلى أي نوع من أنواع القصة تنتمي قصص سورة القصص ؟.
- ما هي أغراضها وأهدافها ؟.
- ماهي خصائصها الفنية ؟.

أولا: أنواع القصة القرآنية في سورة القصص.

ذكر الدارسون أن في القرآن الكريم عدّة أنواع من القصص، ففيه من ناحية البناء الموضوعي القصة التارخية، والقصة الواقعية، والقصة التمثيلية، وفيه من ناحية العرض وأسلوب الأداء القصة الطويلة، والقصة القصيرة،

---

(1) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط:1، 1407هـ- 1987م، ص186، 187.

وقصة المشاهد والحوار، وقد جَمعت هذه الألوان بين الخصائص الفنية وبين تحقيق الغرض الذي سيقت القصة من أجله، بل إن الخصائص الفنية خاضعة خضوعا كاملا ومطوَّعة تماما لتحقيق هدف القصة كما سيأتي بيانه.

لقد قص الله- عزَّ وجلَّ- على نبيه الكريم محمد -صلى الله عليه وسلم- في سورة القصص قصتين، إحداها من قصص تاريخ النبوات والرسالات وهي قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون، وقد جاءت مفصَّلة بعض الشيء، والأخرى من أخبار الأمم السابقة وهي قصة قارون مع قومه.

فمن ناحية البناء الموضوعي تندرج القصتين ضمن القصة التاريخية بما أوْردت من أخبار الأمم البائدة وأنباء الماضي السحيق " والتاريخ في قصص القرآن ليس غاية لذاته وإنما هو مصدر للوقائع والأحداث والأشخاص والعبر، يؤخذ منه بالقدر الذي يفي بتحقيق هدف القصة، ومن الزاوية التي تتحقق مع ذلك الهدف.

ومن هنا نرى كثيرا من القصص قد أغفل مقوِّمات التاريخ من زمان ومكان وشخوص، وسواء أجاءت القصة بمقوِّمات التاريخ، أم جاءت غُفلا منها فهي قصة تاريخية مستمدة من صميم الواقع التاريخي وليس لونا من الأساطير ولا ضربا من الخيال." [1]

أما من ناحية العرض وأسلوب الأداء فقد جاءت قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون طويلة تعرض فصولا كثيرة من حياة موسى- عليه السلام- في صراعه مع الطاغية فرعون، وأما قصة قارون فقد جاءت قصة قصيرة على شكل مشاهد قصيرة يغلب عليها طابع المحاورة.

"والقصة القصيرة هي التي تتناول قطاعا صغيرا من الحياة [كغرور وتكبر قارون] أو حادثا كبيرا من أحداثها فتَعرض في صورة سريعة قويَّة تعبيراتٍ مركزة مشعَّة، ومهمَّتها الإيحاء السريع والتأثير القوي لتبليغ غايتها في أقصر وقت ومن أقرب طريق." [2]

وقد وردت قصة موسى- عليه السلام- في إحدى وأربعين آية [من الآية 3 إلى الآية 43] حيث تعرَّضت للحديث عن موسى- عليه السلام- قبل أن يولد ثم ذكرت ظروف ولادته وإلقائه في اليم، والتقاطه من آل فرعون، وإرضاعه ونشأته في بيت فرعون ثم قتله للقبطي خطأ، ونُصح أحد الصالحين له بالخروج من مصر وتوجُّهه إلى مدين وزواجه هناك ثم عودته وأهله إلى مصر بعد عشر سنوات، وإبلاغه بالرسالة من الله رب العالمين وتأييده بالآيات وذهابه إلى فرعون ودعوته وقومه إلى التوحيد وانتهت بغرق فرعون وقومه ونجاة موسى - عليه السلام- وبني إسرائيل.

وأما قصة قارون مع قومه فقد جات كما ذكرنا قصيرة فيها سبع آيات [من الآية 76 إلى الآية 82] بدأت بتكبر قارون بماله على قومه وبغيه عليهم، ومرَّت بنصح المؤمنين له، ثم خروجه على قومه في زينته وانبهار العامة

---

1) منهج القصة في القرآن، محمد شديد، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1404هـ- 1984م، ص35.

2) المرجع نفسه، ص42.

من الناس به وتقريع العلماء لهم، وانتهت بخسف الأرض به وبداره، وندم العامة على أمانيهم الباطلة والعودة إلى ربهم.

وقد جاءت قصة قارون في شكل حوار ومشاهد سريعة، وقصة الحوار والمشاهد هي التي " تعتمد في طريق العرض على المشاهد، وفى طريقة التعبير على الحوار، وفي تنسيق الحوادث على أبرز المواقف، تاركة بين المشاهد الكثير من التفصيلات التى تعمل فيها الذاكرة أو يتصوّرها الخيال، وقُدرة القرآن الكريم على تجسيم المعاني وتصوير الخواطر وبراعته فى العرض والأداء، وإعجازه فى التعبير المركّز القصير المشعّ بالإيحاءات تبعث الحياة في هذا اللون من القصص، وتحوّله إلى صورة حيّة وشخوص متحرّكة ومشاهد نابضة بالحياة." (1)

ثانيا : أغراض القصة القرانية فى سورة القصص.

استخدم القرآن الكريم أساليب معجزة في العرض والأداء والتعبير لتحقيق أغراض نبيلة لها أهميّتها في الكون والحياة، وما أسلوب القصة القرآنية إلا أداة هُيِّئت لخدمة أهداف القرآن الأصيلة، ولذلك هي " ليست عملا فنيّا مستقلا في موضوعه ولا طريقة عرضه، وإدارة حوادثه، كما هوالشأن في القصة الفنيّة الحرّة التى ترمى إلى أداء غرض فني مجرد، وإنما هي وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة التي تهدف إلى تحقيق هدفه الأصيل، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شيء، والقصة إحدى وسائله لإبلاغ هذه الدعوة وتثبيتها، شأنها فى ذلك شأن مشاهد القيامة وصوَر النعيم والعذاب، وشأن الأدلة التي يسوقها على البعث وعلى قدرة الله، وشأن الشرائع التي يفصّلها والأمثال التى يضربها إلى آخر ما في القرآن من موضوعات." (2)

ومن مظاهر إعجاز التعبير القرآني فى أسلوب القصة أن يمزج بين الغرض الدينى والغرض الفني، ويُؤلّف بينهما، فترى القصة القرآنية تخاطب حاسة الوجدان الدينية بلُغَة الجمال الفنية، وهذه الطريقة تُهيِّئ النفوس لاستجابة الخطاب، وتُعدُّ المتلقّي لتقبُّل الفكرة التي ترمي إلى بنائها القصة.

إن استقصاء كل أغراض القصة القرآنية من الأمور التى يعسرحصرها- لكثرة هذه الأغراض وتشعّبها- لكنني سأحاول هنا أن أثبت أهمها وتوضيحها بما يتماشى مع هدفي في هذا المبحث وهو الاطّلاع على مظاهرالإعجاز في أسلوب القصة القرآنية، وتميّزها على القصة الفنية الأدبية، فكان من أهم أغراض القصة في سورة القصص ما يلى:

1- إثبات الوحي والرسالة:

"حين جاء محمد- صلى الله عليه وسلم- بهذه القصص الرائعة عن الأنبياء قبله بهذا البيان والتفصيل المحكم وهو النبي الأمي الذى لم يتتلمذ على يد أحد من أحبار اليهود ولا رهبان النصارى أو سواهم، كان بذلك يقدِّم أعظم دليل على أن ما يأتي به وحي إلهي." (3)

---

1) المرجع السابق، ص44.

2) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص119.

3) مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبد الفتاح طبارة، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط:7، 1989م، ص24.

والمشركون من أهل مكة أدرى الناس بحال محمد-صلى الله عليه وسلم- وبأنه كان أميًّا لايقرأ ولا يكتب، وقد لبث فيهم عمرا من قبل أن يوحى إليه، فما عَلِموه عارفا بأنباء الأمم التي مضت في التاريخ، ولاعهدوه ممن يختلف إلى العلماء والحكماء من أهل الكتاب فأنى له بهذه القصص التي لم يطّلع على بعضها إلا خاصّة أهل الكتاب ؟.

والقرآن الكريم ينبِّه على هذه النقطة في أعقاب بعض القصص، أو في بدايتها أو في أثنائها ليبيِّن أن هذه الأخبار ما كانت لتُفترى من دون الله، ولكنها وحي من رب العالمين وتصديق الكتاب لا ريب فيه.

قال تعالى في بداية قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [قصص: 3].

إن وصف الله- عزَّ وجلَّ- نبأ موسى عليه السلام مع فرعون الذي سيتلوه على محمد- صلى الله عليه وسلم- بأنه حقٌّ لا مرية فيه لدليل على أن هذا القرآن ليس من صناعة النبي- صلى الله عليه وسلم- ولا من تأليفه ولا دخل له في أي شيئ من أسلوبه ومنهجه وإنما هو مبلِّغ عن الله ما يتلقاه بواسطة جبريل عليه السلام.

وقال سبحانه في نهاية القصة: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: 44].

يقول صاحب التحرير والتنوير: " لَمَّا بطلت شبهتهم [أي المشركين] التي حاولوا بها إحالة رسالة محمد - صلى الله عليه وسلم - نُقل الكلام إلى إثبات رسالته بالحجة الدامغة، وذلك بما أَعْلمه الله به من أخبار رسالة موسى- عليه السلام - مما لا قِبَل له بعلمه لولا أن ذلك وحي إليه من الله تعالى، لهاذا تَخلَّص من الاعتبار بدلالة الالتزام في قصة موسى- عليه السلام- إلى الصريح من إثبات نبوة محمد - صلى الله عليه وسلم -.

وجيء في الاستدلال بطريقة المذهب الكلامي، حيث بُنِيَ الاستدلال على انتفاء كون النبي- صلى الله عليه وسلم- موجودا في المكان الذي قضى الله فيه أمر الوحي لموسى- عليه السلام - لينتقل منه إلى أن مثله ما كان يعلم ذلك إلا عن مشاهدة لأن طريق العلم بغير مشاهدة له مفقود منه ومن قومه إذ لم يكونوا أهل معرفة بأخبار الرسل كما كان أهل الكتاب، فلمّا انتفى طريق العِلم المتعارف لأمثاله تعيَّن أن طريق علمه هو إخبار الله تعالى إياه بخبر موسى." (1)

إن لم يكن هذا القصص وحيا من عند الله تعالى لنبيه الكريم، فمن أين جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - ؟ هل يمكن أن يكون قد علم به عن طريق أهل الكتاب ؟.

---

1) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 20/ 129، 130.

إن أهل الكتاب أنفسهم من اليهود كانوا قد شوَّهوا سيرة أنبيائهم، ونسبوا إليهم من الأعمال والأحداث ما يتعارض مع خُلُق النبوة، فجاء القران الكريم بالحق في شأنهم وطهَّر سيرتهم من إفك أتباعهم الكافرين.

2- تثبيت قلب الرسول- صلى الله عليه وسلم- على الحق وتسليته.

إن تلك الفترة العصيبة التي أُنزلت فيها سورة القصص(الفترة المكية) على محمد- صلى الله عليه وسلم-كانت حافلة بشتى أنواع الأذى تعرَّض لها المصطفى الكريم وأصحابه، والمشركون لم يدَّخروا جهدا في فتنة المؤمنين وإذائهم، فكان في فسحة تلك القصص البديع إيناس للنبي- صلى الله عليه وسلم- وتثبيت لقلبه "وما لجأ القرآن إلى القصص أسلوبا إلا لطمأنة الرسول- صلى الله عليه وسلم - وتوطيد أسلوبه البلاغي الآخر فكان القصص خطابا عن الماضي مؤازرا خطاب الحاضر، ولمحة عن الأمس تشدُّ عضد اليوم ورسالته." (1)

وتحقيق هذا الغرض من الأهداف الأساسية التي رمت إليه سورة القصص، فقد بدأت مباشرة بعرض قصة موسى- عليه السلام- وكيف كان مستضعفا هو وقومه لكنه بتأييد الله- عزَّ وجلَّ- انتصرعلى عدوه، ومكَّن الله له في الأرض، فكان من هدف القصة التاريخية أن تقدِّم للنبي- صلى الله عليه وسلم- رصيدا من تجارب إخوانه الرسل والأنبياء عليهم السلام، وأن تقدِّم للجماعة المؤمنة صُوَرا صادقة لأحداث الدعوة وجهاد المؤمنين وما لاقُوا من متاعب وما صادفوا من محن، وما قام في سبيل دعوتهم من عقبات، وما بذلوا من جهود وما تحلَّوا به من صبر وثبات حتى تم لهم النصر والثبات في نهاية المطاف.

وقد صرَّح القرآن الكريم في سورة هود بالهدف من قصص القرآني فقال - عزَّ وجلَّ- :(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) [هود: 120].

"وتثبيت فؤاد الرسول- صلى الله عليه وسلم - زيادةٌ في يقينه ومعلوماته بما وعده الله، لأن كل ما يعاد ذكره من قصص الأنبياء وأحوال أممهم معهم يزيده تذكُّرا وعلما بأن حاله جارٍ على سنن الأنبياء، وازداد تذكُّرا بأن عاقبته النصر على أعدائه وتُجدِّد تسليته على مايلقاه من التكذيب، وذلك يزيده صبرا." (2)

3-الإنذار والاعتبار

إن القرآن الكريم ليس كتاب قصص تُحكى للتسلية، إنما هو دستور أمة وكتاب دعوة وإنذار واعتبار، فلابد للإنسان أن يستفيد منه خاصّة في القصص التي تحكي هلاك الظالمين والمعاندين ونصرة المؤمنين.

إن عرض مصائب الذين خلوا دليل على سنة الله المطَّردة في إهلاك الظالمين ونصر المؤمنين، وبرهان على قدرة الله تعالى وبطشه كما قال - عزَّ وجلَّ- عن فرعون وقومه:(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ

---

1) البنية السردية في القصص القرآني، طول محمد، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر،ص 111.

2) التحرير والتنوير، 8| 192.

(41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (42) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [القصص:40-43].

يقول صاحب الظلال: " وهكذا تنتهي قصة موسى- عليه السلام - وفرعون في هذه السورة شاهدة بأن الأمن لايكون إلا في جانب الله، وأن المخافة لا تكون إلا في البعد عن الله، ذلك حين تدخل يد القدرة سافرة متحدِّية للطغيان والطغاة، حين تصبح القوة فتنة يعجز عن صدها الهداة، وهي المعاني التي كانت الجماعة المسلمة الصغيرة المستضعفة في مكة في حاجة إلى الاطمئنان إليها، وكان المشركون والمستكبرون في حاجة إلى تدبّرها ...وهكذا يجيء القصص في القرآن مادة لتربية النفوس [ووسيلة للإنذار والاعتبار] وتقدير الحقائق وسُنن الوجود (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)." [1]

وقال الله- عزَّ وجلَّ- عن قارون: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ) [القصص : 81].

قد بين الله- عزَّ وجلَّ- أن العقاب العادل الذي حلَّ بالظالمين وعذاب الاستئصال الذي طال فرعون وقومه وطال المتكبر المغرور قارون كان بسبب ظلمهم لأنفسهم أولا ثم بظلمهم للآخرين.

وفي هذه الآيات تحذير شديد لمشركي العرب من أهل مكة وغيرها أن يصيبهم مثلُ ماأصاب فرعون وجنوده، أو أصاب قارون.

4- بيان إعجاز القرآن .

إن استعمال القرآن الكريم لأسلوب القصة- إضافة إلى كونها تفننا في الكلام - يدل على إحاطة القرآن بمتطلبات النفس البشرية التي تتُوق إلى تنويع أساليب الخطاب، وتتشوَّق لسماع الأخبار والحكايا، كما أن التنقّل من أسلوب إلى أسلوب في الموعظة والنصيحة يُنمِّي رغبة النفس في السماع وينفي عنها الملل والسأم.

لقد" تعرَّض القرآن للقصة الطويلة والقصة القصيرة، مع مرعاة الحبكة اللغوية والخصائص الفنية وعدم الإخلال بما تساق من أجله، واقرأ في ذلك أصحاب الجنة في سورة (ن)، وكذلك أصحاب الجنتين في الكهف ... فإنك واجد روعة البلاغة وفصاحة البيان وإبراز الهدف الذي تساق من أجله القصة.

تأخذ العبرةَ بوضوح وأنت واجد نفسك مشدود إلى هذا الأسلوب الذي عجزت الإنسانسة في مختلف عصورها أن تقترب من بيانه أو تصل إلى حقائقه ... وما من قصة وضعها البشر وتُليَتْ مرّة بعد مرّة إلا وصَدَّ الناس عنها، أما القرآن فكلمّا تكرّر يحلو لسامعه وتقترب نفس تاليه منه فتروي ظمأها وتنير نفسها وتتأصل معاني

---

1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 5 | 2695، 2696.

جديدة في أفكارها (صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)." [1]

وقد جاء هذا الأسلوب لتحقيق غرض هام من أغراض القصص القرآني وهو بيان علوٍّ منزلة القرآن البلاغية، وتفوُّق أساليبه البيانية، فهذا الأسلوب الجديد الذي سلكه القرآن لم يكن معهودا لدى العرب وكان لبلاغته الأثر العميق في نفوس أهل اللسان " وهو من إعجاز القرآن إذ لا ينكرون أنه أسلوب بديع، ولا يستطعون الإتيان بمثله إذ لم يعتادوه... فكان من مُكمِّلات عجز العرب عن المعارضة." [2]

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا الموضوع " أن القرآن يتصرَّف في حكاية أقوال المحكي عنهم فيصوغها على مايقتضيه أسلوب إعجازه لاعلى الصيغة التي صدرت فيها، فهو إذا حكى أقوالا غير عربية صاغ مدلولها في صيغة تبلغ حد الإعجاز بالعربية، و إذا حكى أقوالا عربية تصرَّف فيها تصرفا يناسب أسلوب المعبَّر مثل مايحكيه عن العرب فإنه لايلتزم حكاية ألفاظهم بل يحكي حاصل كلامهم، و للعرب في حكاية الأقوال اتّساع مداره على الإحاطة بالمعنى دون التزام الألفاظ، فالإعجاز الثابت للأقوال المحكيَّة في القرآن هو إعجاز للقرآن، لا للأقوال المحكيَّة." [3]

بالإضافة إلى ذلك فإننا نجد في القصة القرآنية من بديع النظم ورونق الأسلوب، وجمال الصورة ما شهد له تعالى في قوله: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ)[يوسف:3].

5- تربية النفوس.

هناك مشاركة وجدانية من سامع القصة أو قارئها لأشخاصها، ويزيد انفعال النفس بالمواقف البطولية والثبات على المبدأ والإنسان يتابع أشخاص القصة ويدسُّ نفسه على مسرح الأحداث ويتخيّل لو كان مكان هذا أو ذاك مايكون موقفه ؟ وهل هذا الموقف يكفي أم كان عليه فعل الأكثر ؟ ويظل يوازن بين نفسه وبين أبطال القصة وهو في حالة من النشوة، وذلك لأن سحر القصة في النفوس قديم قِدَم البشرية، وسيظل معها ويشدُّ انتباهها.

ولعلّ قصة قارون مع قومه دليل على ما قُلته، فإن قارئ هذه القصة أو سامعها يجد نفسه دون أن يشعر قد اقتحم مسرح الأحداث، وبدأ يتخيّل نفسه ماذا سيكون مَوقفه لو كان مكان قارون، هل ستضعف نفسه كما ضعفت نفس قارون أمام نعم الله عليه ؟ أم أنه سينتصر على نفسه ويؤدي حقّ الله فيما أنعمه عليه، ثم يضع نفسه مكان العامة من قوم قارون التي بهرتها زينة قارون، ثم يتحوَّل إلى موقف العلماء، وهكذا يظل يتنقّل بين شخصيات القصة ويحاول أن يبحث عن المواقف المناسبة لكل شخصية في القصة.

---

1) أهداف القصة في القرآن الكريم، منصور الرفاعي عبيد، دار العرفان للطباعة، القاهرة، ط:1، ص35، 36.

2) التحرير والتنوير، 1|66.

3) المرجع نفسه، 1|120، 121.

لهذا كانت القصة لونا من ألوان التربية لِما لها من تأثير ساحر على القلوب، والقرآن الكريم استخدم القصة لتربية النفوس وترقيق الوجدان وإيقاظ العواطف الطبيعية في الإنسان، وتهيئة النفوس لأخذ العبرة وتلمُّس الموعظة.

إن القصة القرآنية سجل حافل بجميع التوجيهات الدينية فهو يعرض للنفس البشرية بنوعيها:

أ- الشخصية النظيفة الواثقة في نفسها، الثابتة بإيمانها المعتمدة على ربّها التي تَصْلح أن تكون قدوة في التفكير والالتزام بالمنهج والتمسك بالمبدأ كما هو الحال بالنسبة لشخصية موسى- عليه السلام - أو بالنسبة للعلماء من قوم قارون.

ب- الشخصية المنحرفة الظالمة لنفسها ولغيرها، كما هو حال قارون وفرعون.

جـ- كما أنّا نجد القرآن الكريم يعرض للنفس البشرية بكل ما فيها من لحظات الضعف البشري مع تكراره التوجيه والإرشاد لعل الإنسان يترع إلى الخير ويفيق من نزغات الشطان ويعود إلى حزب الرحمن كما هو حال العامة من قوم قارون.

ثالثا: خصائص ومميزات القصة القرآنية في صورة القصص.

إن أسلوب القصة القرآنية- كغيره من أساليب القرآن- أسلوب معجز، بهر العرب وأوقفهم على حقيقة أن هذا الكتاب ليس من وضع البشر، وأنه غير مُمْكن لأي مخلوق معارضته أو الإتيان بمثله، لأنه كتاب إلهي أَحكم آياته ثم فصَّلها الحكيم الخبير الذي وسع كل شيء علما.

ولعلّ معرفة منهج القصة القرآنية والاطلاع على خصائصها الفنية ومميزاتها هي التي تفتح لنا أبواب الدخول إلى حدائق القرآن الكريم، وتمنحنا تذكرة السياحة في روضات قصصه العبقات، فكلٌّ من يُدرك مميزات هذا المنهج ويقف على خصائصه يتجلّى له مظاهر الإعجاز فيه، فيزداد إيمانا على إيمانه بعظمة هذا النور المبين وكماله وجلال قدره.

فماذا عن منهج القصة القرآنية ؟ وما أهم خصائصها التي ارتقت بها معارج الجمال الفني ومقامات الإعجاز ؟.

اختصّ القرآن الكريم بمنهج فريد في قصصه، إذ نجد القصة القرآنية تختلف اختلافا واضحا عن القصة الفنية الأدبية التي يزاولها البشر في إبداعهم، سواء أكان هذا الاختلاف في الموضوع أم في طريقة العرض أم في التعامل مع عناصر القصة وكيفية توظيفها، ولعل مَردَّ هذا الاختلاف هو البوْن الشاسع بين ما تهدف إلى تحقيقه كل من القصتين، فإن اختلاف الهدف يؤدي إلى اختلاف وسائل تحقيقه.

إن القصة الفنية عمل فني مطبوع بطابع القصور البشري في التعامل مع الأحداث وصياغتها وفي عرض وتصوير المشاهد، وفي توظيف الشخصيات والحوار ...

أما القصة القرآنية- إضافة إلى طابع الكمال الرباني الذي يُتوِّجها- فتهدف إلى خدمة أغراض نبيلة أصيلة، وهي

أغراض دينية بحتة، وما الأسلوب القصصى إلا أحد الأساليب الفنية التى استعملها القرآن للدعوة والهداية والتذكير كما قال- عزَّ وجلَّ-: (فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) [الأعراف: 176].

1- الخصائص الفنية للقصة القرانية:

وددت قبل التعرف على مظاهر وآثار خضوع القصة القرآنية فى سورة القصص للأغراض الدينية التعرُّف أوَّلا على أهم الخصائص الفنية للقصة القرانية، والمقصود بالخصائص الفنية هي" التى تُحقِّق الغرض الديني للقصة عن طريق الجمال الفني، وإذ أن هذا الجمال يجعل ورودها إلى النفس أيسر ووقوعها فى الوجدان أعمق، والبحث على هذا النحو يتناول أربع ظواهر فنيّة لها حساب معلوم في الدراسة الفنية للقصة الحرة في عالم الفنون." [1]

أ- تنوع طريقة العرض.

في سورة القصص استخدم القرآن الكريم أكثر من طريقة لعرض القصتين- قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقصة قارون- فنجد تنوُّعا في طرائق إدارة الحوار وتناول الأحداث ورسم الشخصيات وتصوير المواقف، وهذا التنوع لا يأتي اعتباطا، وإنما يقتضيه المقام ويطلبه الغرض العام للقصة.

" ومما ينبغي التركيز عليه في أمر القصص القرآني أن من سنّته الحكيمة عدم محاولة استيفاء العناصرفي موقف واحد، بل هي مُوَزَّعة التوزيع الذي يترك في كل موقف أثره المنشود... ومن أسرار ذلك أن تكون النفس مشوَّقة إلى استيفاء بعض العناصر، فتدرك جانبا منها في مقام وجانبا آخر في مقام آخر، وهكذا حتى تستكمل القصة جميع عناصرها ويبلغ الأمر مبلغه من المعاني المنشودة التي يستهدفها القرآن الكريم في قصصه، ومن هنا كنَّا نرى عنصر الأحداث هو البارز في الأقاصيص التي يقصد منها التخويف والأنذار [كقصة قارون التي كان التركيز فيها على حادثة الخسف وماتبعها من نتائج]، وعنصر الأشخاص وهو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها الافاضة والإيحاء وإلى تثبيت قلب النبي- صلى الله عليه وسلم- ومن اتبعه من المؤمنين [كقصة موسى- عليه السلام- مع فرعون وكيف نجّى الله المؤمنين وأهلك الظالمين] وعنصر الحوار هو العنصر البارز في الأقاصيص التي يقصد منها الدفاع عن الدعوة الإسلامية [كالمحاورة التي دارت بين قارون والمؤمنين من قومه]." [2]

ومن الطرائق المختلفة للابتداء في عرض القصة أن " تُذْكر عاقبة القصة ومغزاها ثم تبدأ القصة بعد ذلك من أوَّلها وتسير بتفصيل خطواتها وذلك كقصة موسى عليه السلام في سورة القصص. "[3] وهي تبدأ هكذا (طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)

---

1) التصوير الفني في القرآن، ص148.

2) بحوث في قصص القرآن، السيد عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتب اللبناني، بيروت لبنان، ط:1، 1972م، ص80، 81.

3) التصوير الفني في القرآن، ص149.

إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) [القصص: 1-6].

ثم بعد ذلك يبدأ الحديث عن تفصيلات قصة موسى- عليه السلام- من ذِكرٍ لمولده ورضاعته ونشأته وبلوغه أشده وقتله القبطي...

فكأن هذه المقدّمة التي كشفت الغاية من القصة كانت تمهيدا مشوّقا لمعرفة الطريقة التي حقّق الله بها النصر لأوليائه وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، وفي الوقت نفسه دمَّر أعداءه وأراهم ماكانوا يحذرون.

ومن الطرائق التي عُرضت بها قصة موسى- عليه السلام- في سوة القصص أنها بدأت من حلقة ميلاد البطل، فقد كانت القصة تبدأ غالبا في السوَر الأخرى من حلقة الرسالة حيث يقف الإيمان القويّ في وجه الطغيان الباغي، ثم ينتصر الإيمان وينخذل الطغيان في النهاية.

في سورة القصص بدأ عرض القصة " منذ أوَّل حلقة في القصة- حلقة الميلاد- ولا تبدأ مثل هذا البدء في أيَّة سورة من السوَر الكثيرة التي وردت فيها، وذلك أن الحلقة الأولى في قصة موسى- عليه السلام- والظروف القاسية التي وُلد فيها، وتجرُّده في طفولته من كل قوّة ومن كل حيلة، وضعف قومه واستذلالهم في يد فرعون... ذلك كلّه هو الذي يؤدّي هدف السورة الرئيسي ويبرز يد القدرة سافرة متحدّية تعمل وحدها بدون ستار من البشر، وتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربة مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر، وتنصر المستضعفين الذين لاحول لهم ولا قوّة، وتُمكّن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية، وهو المعنى الذي كانت القلة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيفائه." [1]

ب- تنوع طريقة المفاجأة:

إن عنصر المفاجأة من أهم عوامل نجاح القصة في تأدية أغراضها، وقد وظّف القرآن الكريم هذا العنصر توظيفا عجيبا ومعجزا حيث نجد بعض القصص يتطور فيها اللوْن الحدثي من المألوف إلى طبيعة تُبطل القاعدة المعروفة وتخرق الناموس، ومن أحسن الأمثلة على ذلك ما جاء في سورة القصص من قصة قارون التي وُظِّفت فيها حادثة الخسف كعنصر مفاجئ (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) هكذا بسرعة كبيرة.

إن حادثة الخسف كانت أمرا غير مألوف بتلك الصورة عند البشر، لم يصدّقه العامة من الناس بل وتفاجأ به العلماء من قوم قارون فصار هذا الحدث هو الشطر الخارق في السرد القصصي القرآني.

---

1)في ظلال القرآن، 5| 2676.

وقد تأتي المفاجأة بطريقة أخرى غير متوقّعة تماما، ففي قصة موسى- عليه السلام - لما رأى نارا وطلب من أهله أن يمكثوا ربما أتاهم بجذْوة من النار، وبينما موسى- عليه السلام — يقترب من النار شيئا فَشَيئا تدخل على مسرح الأحداث مفاجأة، لم تكن منتظرة وهي تكليم الله - عزَّ وجلّ- لموسى عليه السلام ، فهذه المعجزة غيَّرت مسار القصة وآذنت ببدء حلقة جديدة من حلقات القصة (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (29) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) [القصص : 29-30].

وقد تأخذ المفاجأة منحى آخر عجيبا، فبينما نتابع حلقة من حلقات قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون إذ بالسياق القرآني ينتقل بنا في سرعة خاطفة ويطوى الزمن طيا ليعرض لنا مشهدا من مشاهد القيامة (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) [القصص 39- 41].

إن " من إعجاز القرآن أن يجعل من مشهد القيامة حلقة مُتمِّمة للقصة قُرِّبت فيها الجنة للمتقين، وكُشفت فيه الجحيم للمشركين، فهذا هو الجزاء الحق، والمصير المحتوم وكأنما هو حاضر مشهود تنظر إليه العين وتراه." (1)

جـ - ترك الفجوات بين المشاهد.

ثالث الخصائص الفنية في عرض القصة القرآنية تلك الفجوات بين المشهد والمشهد التي يتركها تقسيم المشاهد وقصُّ بعض المناظر بحيث " تُترك بين كل مشهدين أو حلقتين فجوة يملؤها الخيال ويستمتع بإقامة القنطرة بين المشهد السابق والمشهد اللاحق، وهذه طريقة متَّبعة في جميع القصص القرآني على وجه التقريب." (2)

وهذه ميزة بديعة من مزايا القرآن الكريم في أسلوبه القصصي، فهو يحذف من القصة كل ما يُمْكن أن يستحضره الخيال من أحداث لأنه لازم طبيعي لِما تُلي من القصة " وعلى طريقة القرآن في عرض القصة يقسِّمها إلى مشاهد، ويجعل بينها فجوات فنيّة يملؤها الخيال فلا يفوت القارئ شيء من الأحداث والمناظر المتروكة بين المشهد والمشهد مع الاستماع الفنيّ بحركة الخيال الحيّة." (3)

---

1) منهج القصة في القرآن، ص17.
2) التصوير الفني في القرآن، ص154.
3) في ظلال القرآن، 5| 2680، 2681.

ويمكن أن نلحظ هذه الخاصية في قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون، قال تعالى: (فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (13) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) [القصص: 13-14].

لقد أخبر الله تعالى أنه ردَّ موسى- عليه السلام- الرضيع إلى أمه سليما معافى ثم " يسكت السياق بعد هذا عن السنوات الطوال ما بين مولد موسى- عليه السلام- والحلقة التالية التي تُمثِّل شبابه، واكتماله فلا نَعلم ماذا كان بعد ردِّه إلى أمه لترضعه ولا كيف تربَّى في قصر فرعون، ولا كيف كانت صلته بأمّه بعد فترة الرضاعة، ولا كيف كان مكانه في القصر أو خارجه بعد أن شبَّ وكبر إلى أن تقع الأحداث التالية في الحلقة الثانية، ولا كيف كانت عقيدته، وهو الذي يُصنع على عين الله ويُعدُّ لوظيفة في وسط أهل فرعون وكهنته...يسكت السياق عن كل هذا ويبدأ الحلقة الثانية مباشرة حين بلغ أشده واستوى فقد آتاه الله الحكمة والعلم وجزاه جزاء المحسنين." (1)

وفي مشهدا آخر من قصة موسى- عليه السلام- لما عرض عليه شعيب- عليه السلام- أن يزوجه إحدى ابنيته على أن يعمل عنده ثماني أو عشر سنوات (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) [القصص :27].

وهنا يسدل الستار ثم يرفع من جديد لنلتقي بموسى- عليه السلام- وأهله بعد مُضي عشر سنوات لعرض حلقة جديدة من حياته عليه السلام، وتبدأ بمشهد جديد في قوله تعالى: (فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ) [القصص:23]

إن الفجوة الزمنية- والمقدَّرة بعشر سنوات- التي تركها التعبير القرآني ما بين إسدال الستار ورفعه مرة أخرى هي مدة ليست هيِّنة من حياة موسى- عليه السلام-، لكن السياق القرآني سكت عنها وذلك- والله أعلم- أن الأحداث التي رافقت هذه المدّة من حياة موسى- عليه السلام- وهو في مدين أحداثٌ عادية يُمكن لأي شخص عادي أن يعيشها لذلك أغفلها القران الكريم.

د- خاصية التصوير الفني.

وظّفت القصة القرآنية هذه الأداة لرسم المشاهد والحوار وإدارة الأحداث بطريقة مميّزة، حيث يتمّ بواسطتها إحياء الشخوص وإضفاء الحركة على المشاهد، وتجسيد الانفعالات وتقديم صورة محسَّة متخيّلة للذهن عن مجرى

---

1) المرجع السابق، 5| 2877.

الأحداث.

إن قدرة القرآن الكريم على تجسيد المعانى وتصويرالخواطر وبراعته فى العرض والأداء يبعث الحياة فى القصص ويحوِّله إلى صوَر حيّـــة وشخوص متحركة ومشاهد نابضة بالحياة.

والتصوير الفني في القصة القرآنية ألوان وأنواع " لون يبدو في قوَّة العرض والإيحاء، ولون يبدو في تخييل العواطف والإيحاءات، ولون يبدو في رسم الشخصيات وليست هذه الألوان منفصلة ولكن أحدها يبرز في بعض المواقف ويظهر على اللونين الآخرين فيُسمَّى باسمه أما الحق فإن هذه اللمسات الفنية تبدو في مشاهد القصص جميعا." (1)

ومن أحسن الأمثلة على فنيّات التصوير وتقنيات عرض المشاهد وتجسيد الأحداث ما نجده فى المشهد الثالث من قصة قارون، فبعدما تحدّث التعبير القرآني في المشهد الثاني من القصة عن بلوغ فتنة زينة قارون ذروتها لَمَّا خرج على قومه وتهافت ضعاف النفوس عليها، جاء المشهد الثالث من القصة أين تتدخّل يد الله- عزَّ وجلَّ - لتضع حدا لهذه الفتنة وهذا التكبر وترحم الناس الضعاف من إغراءها وتحطّم الغرور والكبرياء تحطيما (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)[القصص، 81]

" هكذا في جملة قصيرة، وفي لمحة خاطفة (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ) فابتلعته وابتلعت داره، وهو في بطن الأرض التي علا فيها واستطال فوقها جزاء وفاقا وذهب ضعيفا عاجزا لاينصره أحد ولاينتصر بجاه أو مال.

وهَوَت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس وردَّتهم الضربة القاضية إلى الله وكَشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والضلال وكان هذا المشهد الأخير (وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) [القصص: 82].

وقفوا يحمدون الله أنه لم يستجب لهم ما تمنَّوه بالأمس ولم يؤتهم ما آتى قارون، وهم يرون المصير البائس الذي انتهى إليه بين يوم وليلة وأدركوا أن الثراء ليس آية على رضى الله على عباده... فلو كان دليلا على ذلك ما أُخذ قارون هذا الأخذ الشديد العنيف إنما هو الابتلاء الذي قد يعقبه البلاء، وعلموا أن الكافرين لايفلحون، وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ولكن اغتراره بماله ونسبته ذلك إلى علمه جعلهم يسلكونه في عداد الكافرين ويرون في نوع هلاكه أنه هلاك الكافرين، ويسدل الستار على هذا المشهد وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل يد القدرة السافرة، وقد رجحت قيمة الإيمان في كفّة الميزان، ثم يأخذ الله- عزّ وجلّ- في التعقيب في أنسب

---

1) التصوير الفني في القرآن، ص156.

أوان (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)."[1]

2- آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني.

جمعت القصة القرآنية بين الخصائص الفنية وبين الغرض الديني الذي سيقت له، وكانت هذه الخصائص مطوّعة تطويعا كاملا وخاضعة خضوعا تاما لتحقيق أهداف القصص القرآني في الدعوة والإصلاح والتربية، وقد ترك خضوع الخصائص الفنية للغرض الديني أثره وبصماته على شكل ومضمون القصة ومن أبرز هذه الآثار:

أ- التكرار

لقد كان أوّل أثر لهذا الخضوع أن ترِد القصة الواحدة في معظم الحالات مكرّرة في مواضع شتى، ولكن هذا التكرار لا يتناول القصة كلها غالبا إنما هو تكرار لبعض حلقاتها ومعظمه إشارات سريعة لموضع العبرة فيها، أما جسم القصة كلّه فلا يُكرّر إلا نادرا لمناسبات خاصّة في السياق.

وحين نقرأ هذه الحلقات المكرّرة ملاحظين السياق الذي وردت فيه نجدها مناسبة لهذا السياق تماما في اختيار الحلقة التي تُعرض هنا أو تعرض هناك وفي طريقة عرضها كذلك، ويجب أن نَذْكر دائما أن القرآن الكريم كتاب دعوة دينية، وأن التناسق بين حلقة القصة التي تُعرض والسياق الذي تُعرض فيه هو الغرض المقدَّم، وهذا يتوفّر دائما ولا يخلُّ بالسمة الفنيّة إطلاقا.

على أن هناك ما يشبه أن يكون نظاما مقرَّرا في عرض الحلقات المكرّرة من القصة الواحدة يتضح حين نقرأ السوَر بحسب ترتيب نزولها " فمعظم القصص تبدأ إشارة مقتضبة، ثم تطول هذه الإشارات شيئا فشيئا، ثم تُعرض حلقات كبيرة يُكوِّن مجموعها جسم القصة وقد تستمر الإشارات المقتضبة فيما بين عرض هذه الحلقات الكبيرة عند المناسبات حتى إذا استوفت القصة حلقاتها، عادت هذه الإشارات هي كل ما يُعرض منها."[2] وتُعدُّ قصة موسى- عليه السلام- في القرآن الكريم خير مثال على هذا النظام، إذ أنها أكثر القصص تكرار في القرآن الكريم، فهي من هذه الوجهة تعطي فكرة كاملة عن هذا التكرار.

لقد وردت قصة موسى- عليه السلام- في القرآن الكريم في حوالي ثلاثين موضعا، وجاءت متسلسلة حسب ترتيب النزول كما يلي:[3]

1- في سورة الأعلى (السورة الثامنة في ترتيب النزول) إشارة قصيرة (إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى)[الأعلى:18،19]، وإشارة قريبة منها في سورة النجم في الآية الثالثة والعشرون.

---

1) في ظلال القرآن، 5| 2713، 2714.

2) التصوير الفني في القرآن، ص129.

3) انظر تفصيل ذلك في كتاب التصوير الفني في القرآن، ص129 وما بعدها.

2- في سورة الفجر (السورة العاشرة في ترتيب النزول) إشارة إلى فرعون دون ذكر موسى- عليه السلام- قال تعالى: (وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (10) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (11) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (12) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ) [الفجر:10-13]، وإشارة قريبة منها في سورة البروج في الآية السابعة والعشرون.

3- في سورة الأعراف (السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب النزول) بدأ التفصيل الأوّل للقصة في معرض قصص مشترك مع نوح وهود ولوط وشعيب- عليهم السلام-، اتّحدتْ فيه صيغة الدعوة إلى الله، واتحدت صيغة تكذيب الأقوام لرسلهم والعقاب الذى أخذ المكذبين.

وقد بدأت القصة هنا برسالة موسى وهارون- عليهما السلام- إلى فرعون وملئه ثم تواصلت حتى خبر اختيار موسى- عليه السلام- سبعين رجلا لميقات ربه وغَشْيتهم بالجبل لَمَّا طلبوا رؤية الله جهرة وإفاقتهم.

4- ثم ترد إشاراتان للرسالة والتكذيب وإهلاك المكذبين في قصص مشترك في سورة الفرقان (الثانية والأربعون في ترتيب النزول) والأخرى في سورة مريم (الرابعة والربعون في ترتيب النزول).

5- و في سورة طه (السورة الخامسة والأربعون في ترتيب النزول) يبدأ تفصيل آخر للقصة، يبدأ من حلقة أسبق من حلقة الرسالة التي ذُكرت في سورة الأعراف تلك هي رؤية موسى- عليه السلام- للنار من جانب الطور (وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى)[طه:9-13].

وبعد أن يُكلّف بالذهاب إلى فرعون يحاور ربّه ليرسل معه أخاه هارون يشدُّ أزره ويكون له وزيرا، فيُذكّره الله -عزَّ وجلَّ- بنعمته عليه في مولده وردِّه إلى أمه في إشارة سريعة، ثم تسير القصة كما سارت في سورة الأعراف مع حذف آيات الجراد والقمّل والدم والضفادع، وعهد فرعون لبني إسرائيل ونكْثه، ومع زيادة حلقة وهي أن السامريّ هو الذي صنع العجل وتفصيل قصة صُنْعه، ويُذكر الميعاد بسرعة ويُغفل الميقات.

6- وفي سورة الشعراء (السورة السابعة والأربعون في ترتيب النزول) تبدأ القصة من حلقة الرسالة وتسير في الخطوات التي سارت عليها من قبل، وتصل إلى حلقة الخروج ولكنها تزيد هنا أمرين: الأول أن موسى- عليه السلام- قتل رجلا من القبط فهو يخشى على نفسه أن يؤخذ به، و الآخر ذكر انفلاق البحر كالطوء العظيم.

7- ثم يُذكر في سورة النمل (السورة الثامنة والأربعون في ترتيب النزول) حلقة التكذيب والعقاب مجملة مع قصص آخر مشترك.

8- في سورة القصص (السورة التاسعة والأربعون في ترتيب النزول) تبدأ القصة من أوّل حلقة فيها من مولد موسى- عليه السلام- إبّان اضطهاد فرعون لقومه ثم وضعه- عليه السلام- في التابوت والقائه في اليم والتقاطه

من آل فرعون وتحريم المراضع عليه، وطلب أمه من أخته أن تقصَّ أثره، وعثورها عليه وعودته لأمه، ثم بلوغه أشده وقتله القبطي محاولة للدفاع عن الإسرائيلي، ثم نُصح أحد الصالحين له بالهروب وخروجه إلى مدين والتقاؤه ببنتي شعيب- عليه السلام- وسقيه الغنم لهما، وإعجاب إحداهما بخصاله وحضّها أبيها على استخدامه وعمله عند شعيب- عليه السلام- عشر سنوات، ثم زواجه ثم عودته بأهله إلى أرض مصر ورؤيته النار وهو في الطريق وهي الحلقة التي تبدأ منها القصة في سورة طه ثم تسير تفاصيل القصة تماما كما في سورة طه بزيادة واحدة وهي تهكم فرعون بموسى- عليه السلام- في قوله لهامان (فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) [القصص:13].

وتنتهي القصة بغرق فرعون وقومه ونجاة موسى- عليه السلام- ومن معه من المؤمنين.

9- ثم بعد ذلك تُعرض القصة في شكل إشارات كما هو الحال في سورة الاسراء (السورة الخمسون في ترتيب النزول) وفي سورة يونس (السورة الحادية والخمسون في ترتيب النزول)، وفي سورة هود (السورة الثانية والخمسون في ترتيب النزول)، وفي سورة غافر (السورة الستون في ترتيب النزول).

10- وفي سورة الكهف (السورة التاسعة والستون في ترتيب النزول) تُعرض حلقة جديدة من حياة موسى عليه السلام- وهي مقابلته لعبد من عباد الله الصالحين أوتى من لدن الله علما وهو الخضر عليه السلام.

11- ثم يأتي تفصيل آخر للقصة في سورة البقرة (السورة السابعة والثمانون في ترتيب النزول) في معرض تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، ومقابلتهم هذه النعم بالجحود، وهنا تُعرض حلقة جديدة وهي حلقة البقرة التي أمر الله بني إسرائل بذبحها فجعلوا يتلكّأون ويسألون عن صفاتها ويتمحّلون فيها حتى استنفذوا المعاذير، حينئذ ذبحوها وما كادوا يفعلون.

ثم جاءت إشارة أخرى سريعة للقصة في سورة النساء (السورة الثانية والتسعون في ترتيب النزول)إشارة طلب بني إسرائيل من موسى- عليه السلام- أن يروا الله جهرة.

12- وفي سورة المائدة (السورة الثانية عشر بعد المائة في ترتيب النزول) تُذكر حلقة جديدة وهي حلقة وقوف بني إسرائيل على أبواب الأرض المقدسة (فلسطين) لكنهم لم يدخلوها (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ) [المائدة : 22]

فحكم الله- عزَّ وجلَّ- عليهم بسنوات التِّيه، وتركهم هناك في التيه أربعين سنة، وهذه آخر حلقة من قصة موسى- عليه السلام- ذُكرت في القرآن الكريم.

هذه قصة موسى- عليه السلام-كما وردت في سوَر القرآن مرتّبة حسب ترتيب النزول، ومن خلال الاستعراض السابق نجد أن الحلقات الأساسية لم تكرّر تقريبا، وإذا كُرِّرت حلقة منها جاءت بشيء جديد في تكرارها، وعلى هذا ندرك أن ليس في القصص القرآني ذلك التكرار المطلق الذي يخيل لقارئ القرآن أوّل مرة.

إن من أهداف القرآن الكريم تذكير الغافلين وإزاحة الغشاوة عن بصائرهم، ومن شأن تكرار القصص أن يخدم هذا الغرض الديني العظيم-كما هو شأن قصة موسى عليه السلام مع فرعون- وهناك مقاصد أخرى لتكرار القصص القرآني نذكر منها: [1]

- رسوخها في الأذهان بتكريرها.
- ظهور بلاغة الأسلوب القرآني، فإن تكرير الكلام في الغرض الواحد من شأنه أن يَثقل على البليغ، فإذا جاء اللاَّحق إثر السابق مع تفننٍ في المعاني باختلاف طرائق أدائها من مجاز، واستعارات، وكناية وتفننٍ في الألفاظ وتراكيبها بما تقتضيه الفصاحة وسعة اللغة فذلك وجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم.
- أن تلك القصص تختلف حكاية القصة الواحدة منها بأساليب مختلفة، ويُذكر في بعض حكايا القصة الواحدة ما لم يذكر في بعضها الآخر، وذلك لأسباب:

- تجنُّب التطويل في الحكاية الواحدة فيُقتصر على موضع العبرة منها في موضع، ويذكر الآخر في موضع آخر فيحصل من متفرِّق مواضعها في القرآن كمال القصة أو كمال المقصود منها، وفي بعضها الآخر ماهو شرح لبعض.
- أن يكون بعض القصة المذكور في موضع مناسبا للحالة المقصودة من سامعها.

ب- الإيجاز

يلاحظ أن القصص القرآني نسج نظمه على أسلوب الإيجاز ليكون شبهُه بالتذكير أقوى وقُرْبه من الوعظ أدنى، ولذلك نجد من مميزاته طيُّ ما يقتضيه الكلام الوارد، والتركيز على موضع العبرة من القصة " إن السرد في بعض القصص القرآني لم يورد المكان ولم يجر له ذكرا، لأنه ليس هناك ما يدعو إلى ذلك، فقد تكون ما تحمله القصص هذه فكرة عامة، مما يَجْمُل معها التجريد لإلقاء درس في الكون الفسيح الرحب الذي هو جماع الأمكنة." [2]

" أما الأشخاص وصفاتهم في القصص القرآني فيلاحظ أن القرآن الكريم يذكر من الأسماء ما تدعو إليه حاجة القصة حتى تترك أثرها في نفس القارئ أو السامع، ولا يُسرف في ذلك البيان حتى لا تفتر روعته... ولكنه يمثِّل للقارئ أو السامع صوَرا حية تهز المشاعر في دائرة الشخصيات التي تدور حولها أحداث القصة... ويتطلب ذلك في القصص القرآني بالذات أن تكون الأشخاص كائنة في الوجود، ومعروفة ومستيقنة من القارئ والسامع." [3]

---

1) التحرير والتنوير، 1| 68، 69.
2) البنية السردية في القصص القرآني، طول محمد، ص48.
3) بحوث في قصص القرآن، السيد عبد الحافظ عبد ربه، ص65.

جـــ- بث العبر والعظات

" وكان من أثر خضوع القصة القرآنية للغرض الديني أن تمزج التوجيهات الدينية بسياق القصة قبلها وبعدها وفي ثناياها كذلك." [1]

ومن ذلك التنبيه الذي جاء في ختام قصة قارون، الدال على أن عقاب الله عادل، وأنه لا يؤخذ القوم إلا بعد الإنذار والإعذار، مع بيان قدرة الله- عزَّ وجلَّ- وشديد بطشه والتخويف من مصير الظالمين، قال تعالى:(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[القصص:83، 84].

انتهت قصة قارون وجاء التوجيه الرباني ليضع موازين القسط ليجعل الدار الآخرة " التي تَحدَّث عنها الذين أوتوا العلم، العلم الحق يُقَوِّم الأشياء وقيمتها الحقيقية، تلك الدار الآخرة العالية الراقية البعيدة الآفاق، تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا... فلا يقُوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء بأنفسهم، ولا يهجس في قلوبهم الاغترار بذواتهم والاعتزاز بأشخاصهم وما يتعلق بها." [2]

هذه أهم آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني، ولعل جَمع القصة القرآنية بين الخصائص الفنية والغرض الديني على هذا النحو الذي رأينا في سورة القصص من أهم ما يشهد بالإعجاز والتفوق لهذا الكتاب الذي لا تطيقه قدرات الأدباء ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

---

1) التصوير الفني في القرآن، ص139.

2) في ظلال القرآن، 5|2714.

أسلـــــوب الالتفـــــات

استعمل القرآن الكريم أساليب بيانية بديعة، أثبتتْ للعرب ومن دونهم تفوُّقه في البلاغة والبيان إلى حد الإعجاز، وأسلوب الالتفات من الأساليب التي تَظهر فيها البراعة البيانية وقدرة المتكلم على صوغ الخطاب والتفنن فيه، وقد استخدم القرآن هذا الأسلوب ببراعة فائقة معجزة، فما هو الالتفات ؟ وماهي أنواعه الواردة في سورة القصص؟.

أولا: مفهوم الالتفات وفوائده.

1- مفهوم الالتفات.

عرَّفه ابن المعتز في كتابه (البديع) بقوله: " هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار وعن الإخبار إلى المخاطبة وما يشبه ذلك، ومن الالتفات الإنصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر." (1)

وهذ التعريف أوْسع وأعمُّ من الذي قدَّمه قدامة بن جعفر، إذ اقتصر تعريفه على المعنى الثاني الذي ذكره ابن المعتز، جاء في كتاب (نقد الشعر) " ومِنْ نُعوت المعاني الالتفات، وبعض الناس يسمِّيه الاستدراك، وهو أن يكون الشاعر آخذا في معنى فكأنه يعترضه إما شك منه أو ظن بأن رادًّا يرُدُّ عليه قوله أو سائلا يسأله عن سببه فيعود راجعا على ما قدَّمه." (2)

وعرَّفه القزويني بأنه: " التعبير عن معنى من المعاني بطريقة من الطرق الثلاثة التكلم والخطاب والغيبة بعد التعبير عنه بطريق آخر منهما." (3)

وسُمِّي بذلك لأنه مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، فهو يقبل بوجهه تارة كذا وتارة كذا، وكذلك يكون هذا النوع من الكلام خاصة، لأنه يُنتقل فيه من صيغة إلى صيغة، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب إلى غير ذلك من أنواع الالتفات.

وسُمِّي أيضا " شجاعة العربية لأن الشجاعة الإقدام، وذلك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورَّده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام فإن اللغة العربية تختص به دون غيرها من اللغات." (4)

---

1) البديع، أبو العباس عبد الله بن المعتز، تحقيق د محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ص152.

2) نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط:3، ص146.

3) الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، مراجعة بهيج الغزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1988م، ص 65.

4) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم وتحقيق أحمد صرفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط:2، 1983، 2|158.

2- شروطه

يذكر العلماء أن للالتفات شرطا واحدا يتَّفق عليه معظمهم، وهو أن يكون المنتقَل إليه والمنتقِل عنه واحدا. قال السيوطي: " شرط الالتفات أن يكون الضمير في المنتقَل إليه عائدا في نفس الأمر إلى المنتقِل عنه وإلاّ يلزم أن يكون في (أنت صديقي) التفات." (1)

ومعنى ذلك" أن يكون ضمير المخاطب- مثلا- المتنقِل عنه هو نفسه يعود لمن جرى عليه الحديث بعد ذلك بأسلوب الغيبة- أي المنتقَل إليه- فإذا تخالفا و لم يتطابق الضميران- الخطاب والغيبة أو الغيبة والمتكلم- لم يُعدَّ الأسلوب التفاتا بل هو كلام عادي كقول القائل: أنا زيد وأنت عمرو، ونحن رجال وأنتم رجال ...ونحو ذلك." (2)

ويذكر بعض العلماء شرطا آخر للالتفات وهو أن يكون فى جملتين أي الانتقال يكون بين كلامين مستقلين، قال الزركشي: " وفي هذا الشرط نظر، فقد وقع في القرآن الكريم مواضعُ الالتفاتُ فيها وقع فى كلام واحد، وإن لم يكن بين جُزأي الجملة." (3)

3- فوائـــــــده

جاء القرآن الكريم على أساليب العرب فى الخطاب، وقدكانوا يكثرون من أسلوب الالتفات فى كلامهم لما فيه من فوائد بيانية، ونحن واجدون فى كتاب الله هذا النوع من طرائق البيان على أدقّها وأعظمها فوائد ولطائف.

قال الزمخشرى عند ذِكره للالتفات فى سورة الفاتحة: " وذلك على عادة افتنانهم فى الكلام [أي العرب] وتصرُّفهم فيه، ولأن الكلام إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذاك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد وقد تختص مواقعه بفوائد." (4)

من هذا القول نخلص أن للالتفات فوائد عامة، وأخرى خاصة، فمن الفوائد العام: (5)

– التفنُّن في الكلام، والتنقُّل من أسلوب إلى أسلوب لِما في ذلك من اتساع مجاري الكلام، وتسهيل الوزن والقافية، وقد قال البيانيون أن الكلام إذا جاء على أسلوب واحد وطال حسن تغيير الطريقة.

–تطرية السامع واستدراجه، وتجديد نشاطه وصيانة خاطره من الملل والضجر بدوام الأسلوب الواحد على سمعه كما قيل:

لايُصْلِح النفْسَ إذا كانت مُصرَّفةً إلاّ التنَقُّلُ من حَالٍ إلى حالِ

---

1) الإتقان في علوم القرآن، 2|157.

2) الالتفات، د التيجاني بوربقة، مجلة جامعة الزيتونة (حولية علمية إسلامية تصدر عن جامعة الزيتونة بتونس)، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، القصبة تونس، 1414هـ- 1994م، العدد3، ص47.

3) البرهان في علوم القرآن، 3|331، 332.

4) الكشاف، 1|14.

5) البرهان في علوم القرآن، 3|324.

وأما فوائد الالتفات الخاصّة فتختلف باختلاف محالّه ومواقع الكلام فيه على ما يقصده المتكلّم. [1]

وسندرك بعض تلك الفوائد عند الحديث عن أقسام الالتفات الواردة في سورة القصص.

ثانيا: أقسام الالتفات وضروبه.

للالتفات في أساليب العرب ست صوَر وهي:

الصورة الأولى: الانتقال من التكلم إلى الخطاب

الصورة الثانية: الانتقال من التكلم إلى الغيبـــة

الصورة الثالثة: الانتقال من الخاطب إلى التكلم

الصورة الرابعة: الانتقال من الخطاب إلى الغيبة

الصورة الخامسة: الانتقال من الغيبة إلى التكلم

الصورة السادسة: الانتقال من الغيبة إلى الخطاب

وهذه الصوَر توجد في سورة القصص ماعدا الصورة الأولى، والصورة الثالثة.

1- الانتقال من التكلم إلى الغيبة.

القسم الأول من أقسام الالتفات هو الانتقال من التكلم إلى الغيبة، وفائدته " أن يَفهم السامع أن هذا نمط المتكلم وقصده من السامع حضر أو غاب، وأنه ليس في كلامه ممن يتلوَّن أو يتوجه ويبدي في الغيبة خلاف ما يبديه في الحضور." [2]

ومن هذا الضرب قوله تعالى: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: 13]. والأصل (لتعلم أن وعدنا حق) فانتقل التعبيرمن المتكلم (فَرَدَدْنَاه) إلى الغيبة (وَعْدَ الله) وهذا إيذانا بأن من خصائص الألوهية الوفاء بالوعد، وعُلِّق الوفاء بالوعد باسم الجلالة (الله) المتضمِّن لجميع أسمائه الحسنى لتعلم أم موسى- عليه السلام- أن القوة التي ردَّت إليها وليدها هي من عند الله تعالى.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: 30] إلى قوله: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[القصص: 33].

---

1) البرهان في علوم القرآن، 3| 325.

2) الاتقان في علوم القرآن، 2| 109.

فقد التفت المولى تبارك وتعالى من التكلم في قوله: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) إلى الغيبة في قوله: (مِنْ رَبِّكَ) والأصل (ذلك برهانان منّي)، وذلك والله أعلم أن الله- عزَّ وجلَّ- لَمَّا كلّم موسى- عليه السلام- أوّل مرّة لم يكن عليه السلام يَعلم أن الذي يكلّمه هو رب العالمين، فلما أراه الله- عزَّ وجلَّ- الآيتين الدالتين على كمال قدرته وعظمته وهما من صفات الربوبية، وشاهد موسى- عليه السلام- الآيتين واستقر الأمر في نفسه انتقل التعبير ليؤكد لموسى- عليه السلام- أن الذي فعل هذا إنما هو رب العالمين لذلك قال: (بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ) ولم يَقل منِّي.

ومن ذلك قوله جلَّ ثناؤه: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ)[القصص: 46].

لقد التفت التعبير القرآني من ضمير المتكلم في قوله تعالى: (إِذْ نَادَيْنَا) إلى الغيبة في قوله: (مِنْ رَبِّكَ) والأصل (منَّا)، وذلك أن النبي- صلى الله عليه وسلم- لم يكن بجانب الطور لَمَّا نادى الله- عزَّ وجلَّ- موسى عليه السلام، وما سجَّل في وقتها تفاصيل هذا النداء، ولكنها رحمة الله بقوم محمد- صلى الله عليه وسلم- أن قصَّ عليهم تلك الأنباء الدالة على صدقه عليه السلام فيما يدعوهم إليه لينذرهم لعلهم يتذكرون.

فالعدول من التكلم إلى الغيبة وتعليق الرحمة بالربوبية فيه حجَّة واضحة على أهل مكة بأن الذي قصَّ هذه القصص على محمد- صلى الله عليه وسلم- هو الرب المستحقُّ للعبادة وحده.

ومن ذلك قول سبحانه وتعالى: (وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (53) أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ)[القصص: 53، 54].

فقد انتقل التعبير القرآني من التكلم (إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ) إلى الغيبة (أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ) وهذا تعظيما لشأن هؤلاء النصارى الذين آمنوا بمحمد- صلى الله عليه وسلم- وبالقرآن واطّمأنت له قلوبهم ورأوا فيه الحق، لذلك عبَّر عنهم القرآن باسم الإشارة (أولائك) للدلالة على عظيم شأنهم ورفعة منزلتهم عند الله فأعطاهم أجرهم مرتين لأنهم آمنوا بنبيِّهم الذي أُرسل إليهم أوّل مرّة وآمنوا بمحمد- صلى الله عليه وسلم-.

ومن ذلك قوله تعالى: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)[القصص: 81].

انتقل التعبير القرآني من التكلم (فَخَسَفْنَا) إلى الغيبة في قوله تعالى: (يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) والأصل (من دوننا) ذلك والله أعلم أن الله- عزَّ وجلَّ- أخبرنا أن قارون لم تكن له فئة لتنصره لَمَّا نزل به عذاب الله تعالى

-رغم جاهه وماله وعلمه- فانتقل من التكلم إلى الغيبة للدلالة على عظمته وجبروته وأنه لايعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

2- الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.

الضرب الثاني من ضروب الالتفات هو الانتقال من الخطاب إلى الغيبة ومثاله قوله تعالى:(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[القصص:9].

التفت التعبير القرآني من ضمير المخاطب في قوله: (قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ) إلى الغيبة في (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

إن سرَّ هذا الالتفات والله اعلم " أن فرعون وملأه كانوا حريصين كل الحرص على قتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل مخافة أن يكون على يد هذا المولود زوال ملك فرعون، لكن هاهي ذي القدرة الإلهية تتحداهم وتقتحم بموسى- عليه السلام- وهو طفل رضيع قلب امرأة فرعون بعدما اقتحمت به حصن فرعون، لقد حَمتْه بالمحبة ذلك الستار الرقيق الشفَّاف لا بالسلاح ولا بالجاه ولا بالمال." [1]

فيا لحماقة فرعون وجنوده يُعدُّون العدَّة ويرسلون العيون والجلادين لقتل كلّ مولود ذكر من بني إسرائيل ظنًّا منهم أن ذلك سيحمي ملك فرعون، ولكن هاهي القدرة الإلهية تتحداهم وتسخر منهم (وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ).

3- الانتقال من الغيبة الى التكلم.

النوع الثالث من أنواع الالتفات هو الانتقال من الغيبة إلى التكلم، ومثاله قوله تعالى: (فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)[القصص: 30].

انتقل التعبير القرآني من الغيبة في قوله (نُودِيَ) إلى التكلم في قوله: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) وذلك أن موسى - عليه السلام- لَمَّا وصل ورأى النار مشتعلة في الشجرة، سمع النداء من الله- عزّ وجلّ- لكنه كان يجهل مَصدر هذا النداء لذلك بُني الفعل للمجهول (نُودِيَ)، ثم بعد ذلك عدل التعبير القرآني إلى ضمير المتكلم فقال تعالى: (إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) إيذانا منه بأنه رب العالمين الذى تنقاد الأشياء جميعا لأمره، وهذا حتى تهدأ نفس موسى- عليه السلام- ويطمأنّ قلبه ويدرك أنه في حماية الله رب العالمين.

ومن ذلك قوله تعالى: (وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ)[القصص:59].

فقد انتقل التعبير القرآني من الغيبة (وَمَا كَانَ رَبُّكَ) إلى ضمير المتكلم (كُنَّا مُهْلِكِي) وذلك للاهتمام و إخبار الله

---

1) في ظلال القرآن، 5|2728.

- عزَّ وجلَّ- عن نفسه بأنه لا يعذِّب القرى إلا بعد أن يبعث لهم الرسل تقيم عليهم الحجة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[القصص:74-75].

انتقل التعبير القرآني من لفظ الغيبة (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ) إلى لفظ التكلم (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا) وذلك للتدليل على عظمة الله- عزَّ وجلَّ- والاهتمام والإخبار عن نفسه تعالى بأنه يوم القيامة يقيم الحجَّة على عباده ويفْصل بينهم فيما كانوا فيه يختلفون.

4- الانتقال من الغيبة إلى الخطاب.

النوع الرابع من أنواع الالتفات هو الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، وفائدة هذا النوع حثُّ السامع وبعثه على الاستماع حيث أَقبل عليه المتكلم وخصَّه بعنايته واهتمامه.

ومن هذا النوع قول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾[القصص: 31].

فقد انتقل الخطاب من الغيبة (فَلَمَّا رَآهَا) إلى الخطاب (يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) وذلك أن موسى- عليه السلام لَمَّا ألقى عصاه وتحوَّلت إلى حيَّة تسعى تملَّكه الخوف والهلع وولَّى هاربا جاءه الخطاب المباشر من الله تعالى (يامُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ) فكان لهذا الالتفات الأثر في تهدئة موسى عليه السلام و طمأنته.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ (59) وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[القصص: 59-60].

لقد انتقل الكلام من الغيبة (وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ) إلى الخطاب (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ) وذلك أن الله- عزَّ وجلَّ- لَمَّا تحدَّث عن القرى وأنه لا يُهلك أهلها إلا إذا كانوا ظالمين، وأنه لا يُهلكهم إلا بعد بعث الرسل يقيمون عليهم الحجَّة، انتقل بعد ذلك إلى خطاب أهل مكة (وَمَا أُوتِيتُمْ) للدلالة على أنه من كان حاله منهم مثل حال أهل القرى بعد أن أتاه الله زينة الحياة الدنيا فإنه يستحقُّ ما استحقَّه هؤلاء من الهلاك،" وفائدة ذلك أن يضع المستمع والقارئ في قلب الحدث، ويُصوِّر المشهد تصويرا حيًّا، فبينما نسمع حكاية ماضية عن القرى الظالمة إذ بنا أمام خطاب مباشر لأهل مكة، وفي هذا الالتفات إقبال على المخاطب لعله يستجيب." [1]

---

1)في ظلال القرآن، 5 | 2734.

ثالثا: ما يقرب من الالتفات.

هناك أنواع أخرى تتنوَّع فيها أساليب الخطاب، وينتقل فيها من أسلوب إلى آخر يصنِّفها العلماء في دائرة مايقرب من الالتفات لشبهها به ومن أهمها:

1- الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.

يقرب من الالتفات نقْل الكلام من خطاب الواحد إلى خطاب الجمْع ومن ذلك ما ورد في سورة القصص قوله تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) [القصص: 9].

لقد انتقلت امرأة فرعون من خطاب فرعون وحده في قولها: (قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ) إلى خطابه هو وحاشيته ومن يحيط به (لاَ تَقْتُلُوهُ) وهذا والله أعلم لتُقيم الحجَّة على الجميع، وتنهاهم عن هذا الفعل القبيح - وهو قتل الذكور من بني إسرائيل- فقد نَسبتْ فِعْل القتل للجميع لتُقرِّر حقيقةً وتُبطل الوهم الذي يتذرَّع به الجلاَّدون بأنهم ليسوا هُم من يقتل الأولاد بإرادتهم و إنما هي أوامر سيِّدهم فرعون، وأنهم عباد مأمورون، ظنًّا منهم أن ذلك يعفيهم من المسؤولية ويُسقط عنهم تبعات هذا الجرم، فلذلك انتقلت امرأة فرعون من خطاب زوجها إلى خطاب الجميع بما فيهم الجلاَّدين لتبيِّن لهم خطأ هذا التصوَر فنسبت فعل القتل للجميع (لا تَقْتُلُوهُ) لأنهم إن فعلوا ذلك كانوا مشاركين لفرعون في جريمته.

2- الانتقال في الكلام من زمن إلى آخر.

يقرب من الالتفات أيضا الانتقال من الماضي أو المضارع أو الأمر إلى زمن آخر وذلك في أشكال متعددة منها:

أ - الانتقال من الماضي إلى الأمر.

ومثال ذلك قوله تعالى: (فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)[القصص: 7].

جاء الفعل (خِفْتِ) في الماضي يحكي حالة الخوف التي تملَّكت قلب أم موسى- عليه السلام- لَمَّا خافت عليه من جنود فرعون، ثم انتقل التعبير القرآني من الماضي إلى الأمر فيما يشبه التفاتا في قوله: (فَأَلْقِيهِ) وهذا أمر من الله تعالى لأم موسى عليه السلام و هو يدلُّ على قوة وثقة المتكلم بنفسه- وهو الله عزَّ وجلَّ- وأنه سبحانه على علم بما يفعل، لذلك لَمَّا أمرها بأن تلقي وليدها في اليم والظاهر أن إلقاءه فيه هلاك طمأنها بقوله: (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ) فكان لهذا الالتفات الأثر في تثبيت قلب أم موسى عليه السلام.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[القصص: 16].

إن موسى- عليه السلام- لَمَّا قتل القبطي خطأ شعر بالذنب وتوجَّه إلى الله- عزَّ وجلَّ- واعترف بذنبه فقال: (إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي) وهو بذلك قد ألقى نفسه أمام الحضرة الإلهية، فشعر بحاجة ماسَّة إلى مغفرة ربه لذلك انتقل من حال الاعتراف إلى حال الدعاء فجاء الفعل (فَاغْفِرْ لِي)، فجاءت الإجابة مباشرة (فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ).

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: 40].

إن الله- عزَّ وجلَّ- لَمَّا قصَّ على نبيه محمد- صلى الله عليه وسلم- قصة موسى عليه السلام مع فرعون وأخبره بالنهاية المؤلمة التي آل إليها فرعون وجنوده جاء بالفعل الماضي (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ) ثم بالفعل(فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ) ليصوِّر له في سرعة أحداث هذه النهاية، وهنا تنتهي أحداث القصة لكن التعبير القرآني وفي شبه التفات يتحوَّل من الزمن الماضي إلى مخاطبة محمد- صلى الله عليه وسلم- (فَانْظُرْ) يامحمد (كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ) لتُحذِّر منها قومك المعاندين.

ب- الإنتقال من المستقبل إلى الماضي.

وفائدة هذا الانتقال تقريب زمن المستقبل، ومثال ذلك ما جاء في سورة القصص في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: 71].

لقد انتقل التعبير القرآني من زمن المستقبل (وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي) إلى زمن الماضي (رَآدُّوهُ)، وذلك أن الله عزَّ وجلَّ لَمَّا أمر أم موسى عليه السلام أن لا تخاف ولا تحزن على وليدها بعد أن تلقي به في اليم كان من المفروض أن تكون طمأنتها بجملة (سنرده إليك)، لكن التعبير عدل عن هذا وقال تعالى (إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ) وذلك للدلالة على قوة الله عز وجل وأنه سيردُّ موسى عليه السلام حتما إلى أمه.

لقد عبَّر عن هذه البُشرى بالفعل الماضي كأنَّه تعالى ردَّه إلى أمه وانتهى الأمر، " والفائدة في الفعل الماضي إذا أخبر به عن المستقبل الذي لم يوجد أنه أبلغ وأعظم موْقفا." [1]

---

1) البرهان في علوم القرآن، 1 | 337.

جـــ-الانتقال من الماضي إلى المضارع.

وفائدة هذا الانتقال استحضار الحالة الماضية وجعلها كأنها حاضرة واقعة، وذلك أبلغ وأوقع في النفس، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[القصص: 4].

لقد انتقل التعبير القرآني من الماضي (عَلَا) إلى المضارع (يَسْتَضْعِفُ، يُذَبِّحُ) وهذا- والله أعلم- ليُحضِر صورتَيْ الاستضعاف والتذبيح البشعتين التي كان فرعون يمارسها على شعب بني إسرائيل، ويقرِّبها في أذهان السامعين كأنها ماثلة أمامهم، " والفائدة في المستقبل إذا أخبر به عن الماضي لتتبيَّن هيئة الفعل باستحضار صورته ليَكون السامع كأنه شاهد." [1]

هذا هو الالتفات، وهذه أهمُّ الأشكال التي تقرب منه أختم بها هذا الفصل وأنتقل إلى الفصل الأخير لمعرفة المزيد من النفائس والكنوز الذي حوَتها السورة في الأداء التعبيري والعرض التصويري والتأثير الساحر.

---

1) البرهان في علوم القرآن، 337/1.

الفصل الثالث

الإعجاز في الأداء و العرض و التأثير

الإعجاز في الأداء

الإعجاز في العرض

الإعجاز في التأثير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أولا: تنوُّع طرائق الأداء التعبيرى واستيفاء القرآن الكريم لها.

إن اختلاف طرائق التعبير القرآني وتنوُّعها أمر يستوْجبه اختلاف الغرض المراد تحقيقه من عملية تقديم المعاني وإيصالها إلى أذهان المتلقّين، فإذا كان الغرض من التعبير أو توجيه الخطاب هو إقناع المخاطب بفكرة معيَّنة فلا بدَّ من اتخاذ الأسلوب المباشر فى التعبير وسيلة لذلك، مع مراعاة دقّة النظم والتأليف، وتجنُّب الفضول من الكلام، وأما إذا كان الهدف هو إثارة مشاعر النفْس، ولمس العواطف بُغية إحداث تأثير وجدانى يحقّق الاستجابة اللازمة لدى المخاطبين، فلا بدَّ من استعمال أسلوب تعبيرى غير مباشر، يعتمد على رسم الصوَر وعرض المشاهد " وحين يأتي أسلوب يتكفّل عرض الحقائق اليقينة والبرهنة عليها، من أجل إحداث اليقين فى نفوس المخاطبين، ويتوخَّى في الوقت نفسه تبصيرهم بما ينفع ويضر، مستخدما أسلوب الإقناع القائم على دقة النظم، وإحكام النسج وسلامة انتقاء الألفاظ، ثم يَعرض ذلك عرضا تصويريا فنيًّا رائعا دون مبالغة أو تخييل يخرج به عن الحق والواقع، ودون تكلُّف يفسد للنص جماله، أو يُخضع مضمونه لشكله، وإنما تَشعر النفْس معه كأن المقام اقتضى ذلك والمعنى هو الذى ساق إليه، فحين يأتي أسلوبٌ هذه خصائصه، يأخذ من كل أسلوب أجمل ما فيه وأدقَّ ما فيه، ثم يصوغ ذلك كله صياغة تبهر النفس، وتأخذ بمجامع القلوب، صياغة ترقى إلى قمة القمم فى البلاغة وروعة البيان، وسِحر العرض والتصوير والدقّة في التعبير، دقّةٌ تبتعد عن التفاهات وتنأى به عن التناقض أو مجانبة الحقائق، فإن أسلوبا هذه خصائصه لابدَّ أن يكون مما يَعجز أي إنسان- مهما بلغ حظه من ملكة الفصاحة والبيان- أن يأت بمثله." [1]

وقد تفرَّد القرآن الكريم- دون سواه من أساليب الأداء البشري- باستيفائه لجميع أنواع الأداء التعبيرى، وتوفُّره عليها مجتمعة، فجاء بما يبهر النفس ويذهل العقل، وتلك حقيقة يدركها أكثر من غيره كل من خبِر فنون التعبير، أو من كان له بصر بالأداء الفني والصناعة الأدبية.

إن البيان القرآنى قد جاء مُقدَّرا على حاجة النفس البشرية أحسن تقدير، فلا نحسّ ونحن نتلوه بتخمة الإسراف ولا بمخمصة التقتير، تراه يؤدِّي لك المعنى فى صورة نقية وافية لايشوبها شيء غريب عنها، ووافية لايتخلّف عنها شيء من عناصرها الأصلية، أو لواحقها الكمالية.

---

1) المدخل إلى دراسة الإعجاز القرآنى، دراسة تنظيرية، د مجيد عبد الحميد ناجى، مجلة كلية الدعوة الاسلامية، ، طرابلس، الجماهيرية الليبية ، 13، 1996م ، ص 155.

"ضعْ يدك حيث شئت من المصحف وعُدَّ ما أحصتْه كفُّك من الكلمات عدًّا ثم احْصِ عِدَّتها من أبلغ كلام تختاره خارجا عن الدفتين وانظر نسبة ما حواه هذا الكلام من المعاني إلى ذلك، ثم انظر كم كلمة تستطيع أن تسقطها، أوتبدلها من هذا الكلام دون إخلال لغرض قائله ؟ وأيُّ كلمة تستطيع أن تسقطها أو تبدلها هناك ؟ فكتاب الله تعالى كما يقول ابن عطية: (لونُزِعت لفظة ثم أدير لسان العرب للفظة أحسن منها لم يوجد، بل هو كما وصفه الله (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ). " [1]

ثانيا: خصائص ومميزات الأداء التعبيرى فى سورة القصص.

الميزة الأولى: القصد فى اللفظ والوفاء بحق المعنى.

وهذه ميزة عجيبة امتاز بها الأداء القرآني فهو يجمع بين القصْد فى اللفظ، والوفاء بحق المعنى في الوقت نفسه، فهذان نهايتان متباعدتان كلٌّ من حاول أن يجمع بينهما وقف حائرا كما يقف الزوج بين ضرَّتين متخاصمتين لايستطيع أن يَعدل بينهما دون ميل لإحداهما على الأخرى.

" فالذى يَعمد إلى ادِّخار لفظه وعدم الإنفاق منه إلا على حدّ الضرورة لا ينفكُّ من أن يحيف على المعنى قليلا أو كثيرا... والذى يَعمد إلى الوفاء بحقِّ المعنى وتحليله إلى عناصره، وإبراز كلِّ دقائقه بقدْر ما يحيط به علمه وما يؤدِّي إليه إلهامه لا يجد بُدًّا من أن يَمدَّ في نَفَسه مدًّا لأنه لايجد فى القليل من اللفظ ما يشفي صدره، ويؤدّي عن نفسه رسالتها كاملة." [2]

وإن سرَّك أن ترى كيف تجتمع هاتان النهايتان على تمامهما بغير فترة ولا انقطاع فاسمع معي إلى قوله عزَّ وجلَّ: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ)[القصص: 4].

إن عبارة (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) جاءت تعليلا لجملة (عَلَا فِي الْأَرْضِ)، وعلى الرغم أنها جاءت قليلة المبنى إلا أنها تحمل من المعاني الشيء الكثير، فهي تؤكد لمعنى تَمكّن الإفساد من فرعون، ذلك أن فِعله هذا اشتمل على مفاسد عضيمة. [3]

المفسدة الأولى: التكبُّر والتجبُّر فإنه مفسدة نفسيَّة عظيمة تتولَّد منها مفاسد جمَّة من احتقارٍ للناس واستخفافٍ بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبثِّ عداوته فيهم، فإذا انظَمَّ إلى ذلك أنه وليُّ أمرهم وراعيهم كانت صفة الكبر مقتضية سوء رعايته لهم والاجتراء على دحض حقوقهم وتسخير من استطاع منهم لخدمة أغراضه مع معاملتهم

---

1) النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز، دار العلم الكويت ،ط :7، 1413 هـ ـ 1993م ،ص 112.

2) المرجع نفسه، ص 100.

3) انظر التحرير والتنوير،20 | 68 ومابعدها.

بالغلظة، فهذه الصفة هي أهمُّ المفاسد وجِماعُها ولذلك قُدِّمت على ما يذكر بعدها (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ).

المفسدة الثانية: أنه جعل أهل المملكة شيَعا، وفرَّقهم أقساما وجعل منهم شيَعا مقرَّبين منه، وجعل بعضهم بِضدِّ ذلك، وذلك فساد في الأمة لأنه يثير بينها التحاسد والتباغض ويجعل بعضها يتربّص الدوائر ببعض.

المفسدة الثالثة: أنه يستضعف طائفة من أهل مملكته وهم بنو اسرئيل فيجعلها محقّرة مهضومة الجانب لامساواة بينها وبين فرق أخرى ولاعدل في معاملتها بما يعامل به الفرق الأخرى، في حين أن لها من الحق في الأرض مالغيرها لأن الأرض لأهلها وسكانها الذين استوطنوا ونشأوا فيها.

المفسدة الرابعة: أنه يذبِّح أبناءهم أي الذكور منهم، وقَصْده من ذلك أن لايكون لبني إسرائيل قوَّة من رجال قبيلتهم حتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة.

المفسدة الخامسة: أنه يستحي النساء أي يستبقي حياة الإناث من الأطفال حتى يكبرن ويصرن نساء بدون رجال، فيصبحنّ بغايا وفي هذا إيذاء نفسي كبير لبني إسرائيل.

فانظر كيف جمع القرآن هذا المعنى الكثير في هذا اللفظ الوجيز.

ومن سمات القرآن الكريم التي لها علاقة وطيدة بما نحن بصدده أنه " يعبِّر عن قضايا ومدلولات ضخمة في حيِّز يستحيل على البشر أن يعبِّروا فيه عن مثل هذا الغرض، وذلك بأوسع مدلول و أدقِّ تعبير وأجمله وأحياه أيضا مع التناسق العجيب بين المدلول والعبارة والإيقاع والظلال والجو." [1]

ومن ذلك قوله تعالى: (وهو وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [القصص: 70].

لقد جمعت هذه الأية أربع قضايا كبرى، وطوَت الزمان منذ خلق السماوات والأرض إلى يومٍ يرجع الناس فيه إلى ربهم، فقد تحدثت عن:

1- توحيد الله- عزَّ وجلَّ- وهي القضية الكبرى والحقيقة التي قامت عليها السماوات و الأرض (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) أي هو المتفرد سبحانه بالربوبية وبالألوهية، فلا رب سواه ولا معبود بحق إلاّه.

" وقوله (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) خبر ثاني عن ضمير الجلالة [هو] وفي هذا الخبر الثاني زيادة تقرير لمدلول الخبر الأول، فإن اسم الجلالة اختص بالدلالة على الإله الحق إلا أن المشركين حرَّفوا، وأثبتوا الإلهية للأصنام مع اعترافهم أنها إلهية دون إلهية الله تعالى فكان من حقّ النظر أن يُعلَم أن لا إله إلا الله، فكان هذا إبطالٌ للشرك بعد إبطاله بحكاية تلاشيه عن أهل ملّته يوم القيامة بقوله: (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ)." [2]

---

1) في ظلال القرآن ، سيد قطب ، 3 / 1787 .

2) التحرير و التنوير ، الطاهربن عاشور ، 20 /167.

2- الثناء الجميل على الله تعالى وأنه وحده من يستحقُّ الحمد والشكر، وهو المحمود على جميع ما يفعله في الدنيا وفي الدنيا والآخرة (لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ) " وتعريف الحمد تعريف الجنس المفيد للاستغراق أي له الحمد كله." (1)

3- أن الحُكم النافذ في كلِّ شيء لله تعالى، فلا معقِّب لحكمه، وهو القاهر فوق عباده (وَلَهُ الْحُكْمُ)وتقديم شبه الجملة (له) للاختصاص.

4- أن مآل جميع الخلائق هو الرجوع إلى الله تعالى فيجزي كل عامل بعمله، ولاتخفى عليه منهم خافية في الأرض ولا في السماء (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

ومن دلائل إعجاز الأداء التعبيري أن ترسم الألفاظ القليلة صوَرا ومشاهد كثيرة، وأن تَحتشد في تعبيرٍ وجيزٍ معانٍ عميقة، وأن تُغني عن سرد قصة- تتطلَّب تجهيز قوافل الجُمل والعبارات- كلماتٌ معدودة.

ومثال ذلك قوله- عزَّ وجلَّ- : (قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) [القصص:26].

وأريد هنا أن أركِّز على كلمتي (القَوِيُّ، الْأَمِينُ) حيث تزدحم المعاني و تتسابق المدلولات المتنوَّعة إلى الذهن.

لماذا يا ترى وصفت بنت شعيب- عليه السلام- موسى عليه السلام بالقوة والأمانة، واختارت هاتين الصفتين بالذات دون غيرهما من الصفات.

يقول صاحب اللتفسير المنير: " وَصَفته بأفضل صفات الأجير: القوَّة في القيام بالأمر، والأمانة في حفظ الشيء، ومَصدر هاتين الصفتين ماشاهدت من حاله، قال أبوها وما علمك بذلك؟ قالت: إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال، وإني لَمَّا جئت معه تقدَّمت أمامه فقال لي: كوني من ورائي، فإذا اختلف عليَّ الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق لأهتدي إليه." (2)

فأي أداء في التعبير البشري بوسعه الارتقاء إلى هذا المقام المقدَّس، وكل القرائح في حضرته شموع يَزري بها ضوء النهار.

الميزة الثانية: البيان والإجمال.

وهذه عجيبة أخرى تجدها في القرآن الكريم ولا تجدها فيما سواه، ذلك إن الناس إذا عمدوا إلى تحديد أغراضهم لم تتسع للتأويل، وإذا أجملوها ذهبوا إلى الإبهام، أو اللُّبس أو إلى اللغو الذي لا يفيد، ولا يكاد يجتمع لهم هذان الطرفان في كلام واحد.

---

1) التحرير و التنوير، الطاهر بن عاشور ،168/20.

2) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د وهبة الزحيلي، دار الفكر دمشق، ط:2، 1424هـ- 2003 م، 10|448.

" وتقرأ القطعة من القرآن فتجد في ألفاظها من الشفوف، والملاسة والإحكام والخلوّ من كل غريب عن الغرض ما يسابق به مغزاها إلى نفسك دون كدٍّ خاطر ولا استعادة حديث كأنك لا تسمع كلاما ولغات بل ترى صوَرا وحقائق ماثلة، وهكذا يُخيَّل إليك أنك قد أحطت به خُبْرا ووقفت على معناه محدودا، هذا ولو رجعت إليه كرَّة أخرى لرأيتك منه بإزاء معنى جديد، غير الذي سبق إلى فَهْمك أوَّل مرة، وكذلك...حتى للجملة الواحدة أو الكلمة الواحدة وجُوها عدَّة كلُّها صحيح أو محتمل للصحة، كأنما هي فصْلٌ من الماس يعطيك كل ضِلع منها شعاعا فإذا نظرتَ إلى أضلاعه جملة بَهرتْك بألوان الطيف كلّها فلا تدري ماذا تأخذ عينك وماذا تدع، ولعلك لو وكّلْت النظر إلى غيرك رأى منها أكثر مما رأيت، وهكذا تجد كتابا مفتوحا مع الزمان يأخذ كلٌ منه ما يُسِّرَ له، بل ترى محيطا مترامي الأطراف لاتحدُّه عقول الأفراد ولا الأجيال." [1]

ألم تر كيف وسِع كلَّ الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول والفروع ؟ وكيف وسِع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها فى القديم والحديث ؟ وهو على لِينه للعقول والأفهام صلبٌ متين " لايناقض بعضه بعضا ولا يتبدَّل، يحتَجُّ به كلُّ فريق لموْقفه ويدَّعيه لنفسه وهو في نفسه فوق الجميع." [2]

إن النص القرآني الواحد" يحوي مدلولات متنوِّعة متناسقة فى النص، وكلُّ مدلول منها يستوفي حظَّه من البيان والوضوح، دون اضطراب في الأداء أو اختلاط بين المدلولات." [3]

ومن ذاك قوله تعالى: (قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ) [القصص :27].

انظر في كلمات هذه الآية هل ترى كلاما أبْين من هذا فى عقول الناس، ثم انظر ما في هذه الكلمات من مرونة مكّنت الفقهاء من استخراج أكثر من مسألة فقهية. [4]

المسألة الأولى: قوله تعالى: (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ) فيه دليل على جواز عَرض الولي ابنته على الرجل لخطبتها وهذه سنَّة شائعة قديمة.

المسألة الثانية: قوله:(أُنْكِحَكَ) دليل على أن النكاح إلى الوليِّ لا للمرأة لأن شعيب- عليه السلام- تولاّه، وهو رأي الجمهور وخالف في ذلك أبو حنيفة.

---

1) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص 118.
2) المرجع نفسه، ص 119.
3) فى ظلال القرآن، سيد قطب 3| 1787.
4) انظر تفاصيل هذه المسائل في التفسير المنير، 10| 450 وما بعدها، وتفسير التحرير والتنوير، 20| 106 وما بعدها.

المسألة الثالثة: قوله: (أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ) يدلُّ على أن للأب أن يزوِّج ابنته البكر البالغ من غير استئمار، وهو قول الجمهور، وقال أبو حنيفة: إذا بلغت الصغيرة فلا يزوِّجها أحد إلا برضاها لأنها، بلغت حدَّ التكليف، فأما إذا كانت صغيرة فإنه يزوِّجها بغير رضاها لأنه لا إذن لها ولارضا بغير خلاف.

المسألة الرابعة: استدل الشافعية بآية (إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ) على أن النكاح موقوف على لفظ التزويج والإنكاح فقط، وقال المالكية ينعقد النكاح بكلِّ لفظ، وقال أبو حنيفة ينعقد بكل لفظ يقتضي التمليك على التأبيد بلفظ الهبة وغيره إذا كان أشهد عليه، لأن الطلاق يقع بالصريح والكناية، فكذلك النكاح، والذى خُصَّ به النبى- صلى الله عليه وسلم- كون الزواج بلا مهر لا الزواج بلفظ الهبة.

المسألة الخامسة: قوله: (إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ) هو عرض للزواج فقط لا عقدا لأنه لو كان عقدا لعيَّن المعقود عليه.

المسألة السادسة: ذُكر في الآية من خصائص النكاح جواز عدم تعيين الزوجة، ولا حدّ أوَّل الأمر، وجَعْل المهر إجارة، فأما عدم تعيين الزوجة فالواقع أنه تم في اتفاق آخر، وإنما عُرض الأمر مجملا ثم عُيِّن بعد ذلك.

وأما ذِكر أوَّل المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه، بل هو مسكوت عنه فإما أنهما اتفاقا عليه وإلا فهو من أوَّل وقت العقد.

وأما الزواج بمنفعة الإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر أقرَّه شرعنا بدليل ماروى الأئمة الأربعة من الزواج على شيء من القرآن.

وللعلماء في هذه القضية ثلاثة أقوال: كرَّهه مالك، ومنعه الحنفية، وأجازه الشافعية والحنابلة بدليل هذه الآية.

المسألة السابعة: دلّت الآية على اجتماع عقدين هما الإجارة والزواج، وقد أجازه ابن مالك العربي على الصحيح، لأن الآية تدلُّ عليه، وقال مالك: النكاح أشبه شيء بالبيوع، فأي فَرْق بين إجارة وبيع أو بين بيع ونكاح، ومنعه ابن القاسم في المشهور وقال: لايجوز ويُفسخ قبل الدخول وبعده لاختلاف مقاصدهما كسائر العقود المتباينة.

المسألة الثامنة: قوله: (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ)، إن حرف (عَلَى) من صيغ الشرط في العقود والمشهور من مذهب مالك أن الشرط المقارن لعقد النكاح إذا كان مما ينافي عقد النكاح فهو باطل ويُفسخ النكاح قبل البناء ويثبت بعده بصداق المِثْل، وأما غير المنافي لعقد النكاح فلا يفسخ النكاح لأجله ولكن يُلغى الشرط، وقال أشهب الشرط جائز واختاره أبو بكر بن العربي وهو حق الآية.

"وظاهر الآية أيضا يحتمل أن تكون الإجارة المذكورة جُعلت مهرا للبنت ويحتمل أن المشروط التزام الإجارة لا غير، وأما المهر فتابع لِمَا يُعتبر فى شرعهم ركنا في النكاح، ويحتمل كذلك من ظاهر الآية أن موسى عليه السلام، وشعيب جعلا المهر منافع وإجارة وأن ذلك تم برضا البنت لأنها سمعت وسكتت بناء على عوائد مرعية

عندهم بأن ينتفع بتلك المنافع أبوها، ويحتمل أن يكون لولي المرأة بالأصالة إن كان هو المستحقُّ للمهر في تلك الشريعة." (1)

المسألة التاسعة: يدلُّ قوله تعالى: (عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ) على جواز ذكر الخدمة مطلقا دون بيان نوع العمل مع بيان الأجل فقط، وأجازه مالك وقال: إنه جائز ويُحمل على العرف، فلم يكن لشعيب- عليه السلام إلا رعي الغنم، وقال أبوحنيفة والشافعي لايجوز حتى يَسمع نوع العمل لأنه مجهول.

المسألة العاشرة: الكفاءة في النكاح معتبرة، واختلف العلماء هل هي في الدين والمال والحسب أو في بعض ذلك؟.

والصحيح لدى المالكية جواز نكاح الموالي للعربيات والقُرَشيات لقوله تعالى: (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ) [الحجرات :13]، وقد جاء موسى- عليه السلام- إلى شعيب- عليه السلام- غريبا طريدا خائفا وحيدا جائعا عريانا، فأنكحه ابنته لَمَّا تحقّق من دينه، ورأى من حاله وأعرض عما سوى ذلك.

المسألة الحادية عشرة: إذا اشترط وليُّ المرأة لنفسه شيئا، فقد اختلف العلماء فيما يخرجه الزوج من يده، ولا يدخل في يد المرأة على قولين: أحدهما أنه جائز والآخر لايجوز فهو حُلوان وزيادة على المهر فهو حرام.

ويؤيِّد الرأي الأوَّل ما جرى من شعيب- عليه السلام- حيث اشترط لنفسه إجارة الرعي ثماني سنين، وترك المهر مفوضا، ونكاح التفويض جائز، ويجب حينئذ مهر المثل.

المسألة الثانية عشرة: يُكتب في العقود الشروط المتّفق عليها ثم يقال: وتطوَّع بكذا فينفذ الشرط على حدة، ويُترك التطوُّع لتنفيذه مختارا على حدة، وهذا ما فعله شعيب- عليه السلام- حيث ذكر اشتراط الإجارة ثماني سنين، وترك التطوُّع لموسى- عليه السلام- وهو سنتان أخريان إن شاء.

فانظر إلى مرونة كلمات وألفاظ هذه الآية الكريمة حيث استثمرها الفقهاء واستطاعوا أن يولِّدوا منها العديد من المسائل الفقهية التي لو جُمعت لكانت كتابا صغيرا في الفقه، ومن وقف على عِلم التأويل واطّلع على مُعترك أفهام العلماء في أيِّ آية من القرآن الكريم لرأى من ذلك العجب العجاب.

وآية أخرى من آيات سورة القصص تتجسَّد فيها هذه الميزة، وذلك قوله تعالى: (اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) [القصص: 31].

إن عبارة (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) فيها من المرونة ما جعلها تحمل المعاني الكثيرة حيَّرت المفسِّرين.

يقول صاحب التحرير والتنوير: " وقوله: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) خفيَ فيه محصل المعنى المنتزع من تركيبه فكان مجال تردُّد المفسرين في تبيينه، واعتكرت محامل كلماته فما استقام محملُ إحداهما إلا وناكده محملُ

---

1) التحرير والتنوير، 20|108.

أخرى، وهي ألفاظ (جَنَاحٌ، وَرَهْبٌ) وحرف (مِنَ) فسلكوا طرائق لاتوصل إلى مستقر، وقد استُوعبت في كلام القرطبي والزمخشري، قال بعضهم: إن في الكلام تقديما وتأخيرا، إن قوله (مِنَ الرَّهْبِ) متعلّق بقوله (وَلَى مُدْبِرًا) على أن (مِنَ) حرفٌ للتعليل أي أدبر بسبب الخوف، وهذا لاينبغي الالتفات إليه إذ لاداعي لتقديم وتأخير ما زعموه على ما فيه من طول الفصل بين فعل (وَلّى) وبين (مِنَ الرَّهْبِ).

وقيل الجناح: اليد، ولا يحسن أن يكوة مجازا على اليد لأنه يفضي لتكرير مفاده (اسلك يدك فى جيبك) وحرف العطف مانع من احتمال التأكيد، وادّعاء أن يكون التكريرلاختلاف الغرض من الأول والثانى كما في الكشاف بعيد، أو يؤول بأن وضع اليد على الصدر يُذهب الخوف كما عُزِي إلى الضحاك عن ابن عباس وإلى مجاهد وهو تأويل بعيد.

وهذا ميل إلى أن الجناح مجاز مرسل مرادٌ به يد الإنسان، وللجناح حقيقة ومجازات بين مرسل واستعارة وقد وَرَدَ في القرآن الكريم وغيره فى تصاريف معانيه وليس وروده فى بعض المواضع بمعنى بقاضٍ بحمله على ذلك المعنى حيثما وقع في القرآن، ولذا فالوجه أن قوله: (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ) تمثيل بحال طائر إذا سكن عن الطيران أو عن الدفاع جُعِل كناية عن سكون اضطراب الخوف، ويكون (مِنَ) هنا للبداية، أي اسكن سكون الطائر بدلا من أن تطير خوفا وهذا مأخوذ من أحد وجهين ذكرهما الزمخشرى... والرَّهْب معروف أنه الخوف كقوله تعالى (يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا).

والمعنى انكفف عن الخوف من أمر الرسالة، وفي الكلام إيجاز وهو ما يدلُّ عليه قوله بعده: (قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ)، فقوله (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ) في معنى قوله تعالى: (فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ)." [1]

ولعل من روائع الأداء القرآني في هذا المجال أن نجد الحادثة الواحدة تنبري لخدمة أغراض شتى، يبديها النص القرآني من خلال الأداء القرآني متناسقة متلاحقة، آخذة بأسباب بعضها في وحدة وتآخي عجيبين.

فسورة القصص وهي تعرض لقصة موسى- عليه السلام- وقصة قارون كانت تهدف إلى تحقيق أغراض منها:[2]

تثبيت قلب النبي- صلى الله عليه وسلم- وتسليته، وموعظة المؤمنين بما حلّ بالأمم السابقة من الخزي والنكال، وتذكيرهم بما فيه صلاحهم وسعادتهم.

فهذه الأغراض قد تبدو متباعدة قليلا، ولكن الأداء القرآني يسكبها فى قالب واحد وكأنما- وهي المتفرّقة-

---

1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ، 113/20، 114.

2) انظر تفاصيل أغراض القصة القرآنية في الفصل الثاني، ص 84 وما بعدها.

غرض واحد، وهذه ظاهرة قرآنية بارزة " بحيث يُستشهد بالنص الواحد في مجالات شتى، و يبدو في كل مرَّة أصيلا في الموضع الذي استشهد به فيه، وكأنما هو مُصوَّغ ابتداء لهذا المجال وهذا الموضع." [1]

الميزة الثالثة: إقناع العقل وإمتاع العاطفة.

من المميزات التي امتاز بها الأداء القرآني اختصاصه بالجمع بين محاورة العقل لإقناعه، ومخاطبة الشعور لإمتاعه ذلك أن" في النفس الإنسانية قوّتين: قوَّة التفكير، وقوَّة وجدان، وحاجة إحداهما غير حاجة أختها، فأما إحداهما فتنقّب عن الحقّ لمعرفته وعن الخير للعمل به، وأما الأخرى فتسجِّل إحساسها بما في الأشياء من لذّة وألم، والبيان التامُّ هو الذي يوفّي لك هاتين الحاجتين، ويطير إلى نفسك بهذين الجناحين، فيؤتيها حظَّها من الفائدة العقلية والمتعة الوجدانية معا." [2]

" والقرآن الكريم يخاطب الكينونة البشرية بجملتها، فلا يخاطب ذهنها المجرَّد مرَّة، وقلبها الشاعر مرَّة، وحسَّها المتوفز مرَّة، ولكنه يخاطبها جملة، ويخاطبها من أقصر طريق، ويطرق كل أجهزة الاستقبال والتلقي فيها مرَّة واحدة كلّما خاطبها...وينشيء فيها بهذا الخطاب تصوُّرات وتأثّرات وانطباعات لحقائق الوجود كلّها، لاتَملك وسيلة أخرى من الوسائل التي زاولها البشر في تاريخهم كلّه أن تنشئها بهذا العمق، وبهذا الشمول وبهذه الدقّة وهذا الوضوح، وبهذه الطريقة والأسلوب أيضا." [3]

وفى سورة القصص من هذه المزيّة مايدل المتأمِّل على سموِّ الأداء القرآني، حيث يخاطب العقل والقلب معا بلسان واحد فترى فى متعة القصص وفي متعة السياحة عبر أطوار القرون وفي تصوير مشاهد الماضي، حفظا لحقّ العقل واحتراما له إذ ينال نصيبه من العبر والحكم والفوائد المعرفيّة ولا تخلو قصة من قصتيْ هذه السورة من تعقيبٍ فيه دعوة للعقل أن يتأمَّل ويستنتج، ويميِّز ويتدبَّر، بل قد يأتي تنبيه العقل في تضاعيف القصة وفي أثناء السرد كما نجده فى قصة قارون (أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) [القصص: 78].

انظر كيف جَمعت كلمات الآية في استدلالها بين خطأ اعتقاد قارون وبين التهويل والتهديد، وجاء قوله تعالى: (وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ) " تذييلا للكلام فهو استئناف وليس عطفا على (أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ) والسؤال المنفيّ في الدنيا وليس سؤالَ الآخرة، والمعنى يحتمل أن يكون السؤال عن عدم الحاجة إلى

---

1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 3|1787.
2) النبأ العظيم ، محمد عبد الله دراز ،ص 113.
3) في ظلال القرآن، سيد قطب 3| 1788.

السؤال عن ذنوبهم كناية على علم الله تعالى بذنوبهم، وهو كناية عن عقابهم عن إجرامهم فهي كناية بوسائط، والكلام تهديد للمجرمين ليكونوا بالحذر من أن يأخذوا بغتة." [3]

لقد جاء الردّ على قول قارون (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي) برهانا خطابيا شعْريا معا، فهل تجد هذا في كتب الحكمة النظرية ؟.

وفي أثناء ردِّ القرآن الكريم على المشركين، ودحض شبهتهم التي أثاروها إن هُم اتبعوا الهدى مع النبي - صلى الله عليه وسلم- لا ينسى حظّ القلب من ترقيق وتحذير وتهويل وتبكيت وتوبيخ، (وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا) فجاءهم الردُّ يطير بجناحين، جناحٌ يقنع العقل والآخر يهزُّ العاطفة ويزلزلها (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (57) وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) [القصص:57، 58].

جاء في سبب نزول هذه الآية ما أخرجه النسائي عن ابن عباس- رضي الله عنهما- (أن الحارث بن عثمان بن عامر بن نوفل بن عبد مناف قال للنبي- صلى الله عليه وسلم- نحن نَعلم أنك على الحقِّ، ولكنَّا نخاف إن اتّبعناك أن يتخطّفنا العرب من أرضنا، ونحن أكلة رأس [أي قليلو العدد] فنزل قوله تعالى: (إِنْ نَتَّبِعِ.) الآية."[2]

لقد ردَّ التعبير القرآني على شبهة المشركين هذه من ثلاثة وجوه:

الوجه الأول:

تأمين الحرم الآمن في قوله: (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) أيْ أن هذا الاعتذار كذب وباطل، لأن الله تعالى جعلهم يعيشون في بلد أمين، وحرم آمن مُعظّم منذ وُجد، فكيف يكون هذا الحرم أَمْنا لهم في حال كفرهم وشركهم، ولا يكون أَمْنا لهم إن هم أسلموا واتبعوا الحق ؟.

" والاستفهام في قوله (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ) إنكار أن يكون الله لم يُمَكِّن لهم حرما، ووَجْه الإنكار أنهم نُزِّلوا منزلة من ينفي أن ذلك الحرم من تمكين الله فاستُفهموا على هذا النفي استفهام إنكار، وهذا الإنكار يقتضي توبيخا على هذه الحالة التي نُزِّلوا لأجلها منزلة من ينفي أن الله مكّن لهم حرما آمنا." [3]

---

1)التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20| 182.

2)كتب السنن الكبرى، أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب النسائي، تقديم عبد المحسن التركي، إشراف شعيب الأرناؤوط، تخريج الأحاديث حسن عبد المنعم، بيروت، مؤسسة الرسالة، 10| 154.

3)التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20| 143.

وقد حصل في خلال الردِّ عليهم إدماجٌ للامتنان عليهم بنعمة جَمْع وجلب الثمرات " ليحْصل لهم وازعان عن الكفر: وازع إبطال معذرتهم عن الكفر وعدم الإيمان، ووازع التذكير بنعمة المكفور به وهو الله تعالى." [1]

الوجه الثاني:

تذكيرهم بإهلاك الأمم السابقة في قوله: (وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) [القصص:58].

والآية معطوفة على جملة (أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا) باعتبار ما تضمّنته من الإنكار والتوبيخ " فإن ذلك يقتضي التعريض للانتقام شأن الأمم التي كفرت بنعم الله، فهو تخويف وتهديد لقريش من سوء عاقبة أقوام كانوا في مثل حالهم من الأمن والرزق فغمطوا النعمة وقابلوها بالبطر." [2]

الوجه الثالث:

المفاضلة بين نعيم الدنيا والآخرة في قوله: (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ) [القصص:60].

لَمَّا ذكّر الله تعالى أهل مكة بالنعم التي أغدقها عليهم في قوله: (يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا) أعقبه ببيان أن كلّ ما آتاهم من نِعَمٍ كالأمن والرزق، ومن زينة كاللباس والأنعام هو متاع الحياة الدنيا وأما ما عند الله من نعيم الآخرة هو خير وأبقى لئلاّ يظنُّوا أن ما هم فيه من الأمن وسعة الرزق هو الغاية المطلوبة فلا يطلبوا النعيم العظيم الأبديّ يوم القيامة، والذي لا يكون إلا بعد الإيمان.

فانظر كيف جاء ردُّ القرآن الكريم على شبهة كفار أهل مكة جامعا بين إقناع العقل وتحريك العاطفة وزلزلتها، فمن لَكَ بهذا الكلام الواحد الذي يجيء من الحقيقة البرهانية الصارمة بما يرضي حتى أولائك الفلاسفة المتعمِّقين، ومن المتعة والإثارة بما يرضي حتى هؤلاء الشعراء المرحين ؟.

لا يَقْدر على ذلك إلا " الله رب العالمين فهو القادر على أن يخاطب العقل والقلب معا بلسان واحد، وأن يمزج الحق والجمال معا يلتقيان ولا يبغيان، وأن يُخرج من بينهما شرابا خالصا سائغا للشاربين." [3]

الميزة الرابعة: خطاب العامة وخطاب الخاصة.

وهاتان غايتان أخريان متباعدتان في كلام الناس مجتمعتان في الأداء القرآني، فلو أنك خاطبت خاصَّة الناس من علماء ومثقفين بالواضح المكشوف الذي تخاطب به العامة البسطاء لنزلت بهم إلى مستوى لا يرضونه

---

1) التفسير المنير، د وهبة الزحيلي، 10|441.

2) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20|144.

3) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص118.

لأنفسهم في الخطاب، ولو أنك خاطبت عامّة الناس بأسلوب يغلب عليه طابع التلميح والإشارة والإيجاز لجئتهم من ذلك بما لا تطيقه عقولهم.

" فلا غنى لك إلاّ أن تخاطب كل قوم بما يفهمون ويطيقون إن أردت أن تعطي كلتا الطائفتين حظّها من البيان، فأمّا أنك تأتي بجملة واحدة وتلقي بها إلى العلماء والجهلاء، وإلى الأذكياء والأغبياء، فيراها كل منهم مُقدَّرة على مقياس عقله، وعلى وفق حاجته فذلك ما لا تجده على أتَمِّه إلاّ في القرآن الكريم، فهو قرآن واحد يراه البلغاء أوْفَى كلام بلطائف التعبير، ويراه العامة أحسن كلام وأقربه إلى عقولهم لا يلتوي على أفهامهم ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان وراء وضع اللغة فهو متعة العامة والخاصة على السواء، مُيسَّر لكل من أراد." [1]

انظر معي مثلا إلى قوله تعالى: (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [القصص:85].

لو أنك طلبت من أي شخص عامّي أن يفسِّر، ويشرح لك معنى هذه الآية، تجده وببساطة وبعد أن يطّلع على سبب نزولها يقول لك: إن الخطاب موجَّه من الله- عزَّ وجلّ- إلى نبيه محمد- صلى الله عليه وسلم- واعدًا إيَّاه بأنه هو الذي أنزل عليه القرآن، وبأنه هو الذي سيعيده إلى بلده مكة بعد أن أُخرج منها خائفا، كما أمره أن يقول للمشركين إن الله تعالى أعلم بالمهتدي، ومن هو ضال عن الطريق المستقيم.

ألا ترى أن معنى الآية نزل على قَدْر عقل هذا العامي ولم يَلْتَوِ عليه فَهْمها ولم يحتَجْ إلى ترجمان، ولكنك لو طلبت من عالم خبير بفنون اللغة وأسرار البلاغة أن يفسِّر لك الآية نفسها فإنك تجده يأتيك بلطائف التعبير ودقائق البيان ما الله به عليم.

يقول صاحب التحرير والتنوير في تفسير هذه الآية: " ابتداء الكلام للتنويه بشأن محمد- صلى الله عليه وسلم- وتثبيت فؤاده ووعده بحسن العاقبة في الدنيا والآخرة، وإنّ إنكار أهل الضلالة رسالته لا يضير لأن الله أعلم أنه على الهدى وأنهم على ضلال مبين... وافتتاح الكلام بحرف التأكيد[إنّ] للاهتمام به.

وجيء بالمسند إليه موصول دون اسمه تعالى العَلَم لِمَا في الصلة من الإيماء إلى وجه بناء الخبر، وأنه خبر الكرامة والتأييد، أي الذي أعطاك القرآن ما كان إلا مُقدِّرا نصرك وكرامتك، لأن إعطاء القرآن شيء لا نظير له فهو دليل على كمال عناية الله بالْمُعْطَى وفيه إيماء إلى تعظيم شأن الرسول- صلى الله عليه وسلم-.

والردُّ: إرجاع شيء إلى حاله ومكانه، والمعاد: اسم مكان العوْد أي الأول كما يقتضيه حرف الانتهاء [إلى] والتنكير في معاد للتعظيم كما يقتضيه مقام الوعد والبشارة.

والمعاد يجوز أن يكون مستعملا في معنى آخِرِ أحوال الشيء وقراره الذي لا انتقال منه تشبيها بالمكان العائد إليه

---

1) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، ص113.

بعد أن صدَر منه أو كناية عن الآخرة فيكون المراد به الحياة الآخرة... ويجوز أن يراد بالمعاد معناه المشهور القريب من الحقيقة وهو ما يعود إليه المرء إن غاب عنه، فيراد به بلده الذي كان به وهو مكة، وهذا الوجه يقتضي أنه كناية عن خروجه ثم عوده إليه لأن الردَّ يستلزم المفارقة.

[وعلى هذا] تكون جملة (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى) بالنسبة إلى الوجه الأول بمنزلة التفريع على جملة (لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) أي رادك إلى يوم المعاد [الآخرة] فمُظهِر المهتدي والضالين، فيكون علم الله تعالى لا يعتريه تلبيس وتكون هذه الكناية تعريضا بالمشركين أنهم الضالون، وأن النبي- صلى الله عليه وسلم- هو المهتدي، ولهذه النكتة عبَّر عن جانب المهتدي بالفعل (مَنْ جَاءَ) للإشارة إلى أن المهتدي هو الذي جاء بهدى كان معروفا من قبل كما يقتضيه:جاء بكذا، وعبَّر عن جانب الضالين بالجملة الإسمية المقتضية ثبات الضلال المشعر بأن الضلال هو أمرهُم القديم الراسخ فيهم مع إفادة حرف الضرفية [في] من انغماسهم في الضلال وإحاطته بهم، ويكون المعنى حينئذ على حدِّ قوله تعالى: (وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) بظهور أن المبلِّغ بهذا الكلام لايُفترض في حقِّه أن يكون هو الشقُّ الضال فيتعيَّن أن الضال من خالفه.

وبالنسبة للوجه الثاني تكون بمنزلة الموادعة والمشاركة وقطع المجادلة فالمعنى: عَدِّ عن إثبات هداك وضلالهم وكِلْهُم إلى يوم ردِّك إلى معادك يوم يتبيَّن أن الله نصرك وخذلهم، وعلى المعنيين فجملة (قُلْ رَبِّي) مستأنفة استئنافا بيانيا عن جملة (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ) جوابا لسؤال سائل يثيره أحد المعنيين، وفي تقديم جملة (إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ) على جملة (قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى) إعداد لصلاحية الجملة الثانية للمعنيين المذكورين فهذه من الدلالة على معاني الكلام بمواقفة وترتيب نظامه وتقديم الجمل عن مواضع وتأخيرها لتوفير المعاني." [1]

فانظر كيف استطاع هذا المفسِّر البلاغي أن يولِّد من الآية الكريمة المعاني الكثيرة واللطائف الطريفة، ولو وُكِّل النظر في هذه الآية إلى عالم بلاغي آخر لجاء بما هو جديد.

هذه أربع ميزات للأداء القرآني في سورة القصص حاولت تجليتها دعما للقول بتفرُّد هذا الأداء التعبيري العالي وتميُّزه وسموّه، على أنها ليست كل الميزات التي يتَّسم بها أسلوب القرآن، فهناك ميزات يتجلَّى بعضها فندركه، ويخفى البعض الآخر فنحسُّ جلاله وروعته، ونرى أثره في العقل والقلب، كما أن الآيات التي ضُربت مثلا- توضيحا لهذه المميزات- ليست وحدها المشتملة على أسرار الإعجاز في الأداء، بل السورة كلّها مَثَل رائع لتلك الخصائص، وإنما تعيَّن إختيار أمثلة للتدليل على ذلك.

---

1) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 20| 191، 192.

وهذا حال القرآن الكريم الذي أحكم آياته الحكيم الخبير وجعل أسلوب أدائه البديع مادة إعجازه، فاستعلى على طاقة البشر وثبت أنه من لدن العزيز الحميد الذي دعانا إلى تدبُّره والبحث عن كنوزه ونفائسه فقال تعالى: (أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) [الأنعام:].

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإعجاز في العرض القرآني

يمتاز القرآن الكريم عمَّا سواه من كلام البشر في كيفية عرضه للحقائق التي يقرِّرها، والقضايا التي يعالجها فلقد بلغ في طريقة عرضه وتقديمه لتلك الحقائق والقضايا شأنا لا يُطاول، مما يبعث على الإقرار بإعجازه وسموِّه على طاقة الإنسان، ولِتستْبين سبيلُ ذلك سأقدِّم في هذا البحث ثلاثة نماذج لإعجاز القرآن في طريقة العرْض تضمَّنتها سورة القصص ويتعلَّق الأمر بعرض مشاهد القيامة، وإثبات نبوَّة محمد- عليه الصلاة والسلام- وعرض مشاهد الغابرين.

أولا: في عرض مشاهد يوم القيامة:

لقد اعتنى القرآن الكريم بعرض مشاهد اليوم الآخر عناية بالغة، واهتمَّ بتقديم صوَر البعث والحساب، والنعيم والعذاب في شكل ينطق بالإعجاز" فلَمْ يَعُدْ ذلك العالم موصوفا فحسبْ بل عاد مصوَّرا محسوسا، وحيًّا متحرِّكا، وبارزا شاخصا، وعاش المسلمون في هذا العالم عيشة كاملة، رأوا مشاهده وتأثَّروا بها، وخفقت قلوبهم تارة واقشعرّت جلودهم تارة، وسرى في نفوسهم الفزع مرّة، وعاودهم الاطمئنان أخرى، ولفحهم من النار شواظ، ورفَّ إليهم من الجنة نسيم، ومن ثَمَّة باتوا يَعرِفون هذا العالم تمام المعرفة قبل اليوم الموعود، هذا العالم بسيطٌ كلّ البساطة، واضحٌ وضوح العقيدة الإسلامية، موتٌ وبعثٌ نعيمٌ وعذابٌ...

ولكن هذه الحقيقة البسيطة الواضحة تُعرض في صوَر شتَّى، وتُرتسم في عالم كامل حافل بالمشاهد، وتتراءى في عشرات من الأوضاع والأشكال، والسِّمات، وتؤلِّف بذلك ملامح فنيّة رائعة تتملاّها النفس، ويتابعها الخيال، ويستغرق فيها الحسُّ وتتراءى فيها الظلال." [1]

" وأيًّا كانت الأوضاع والأشكال فإن هناك سمة واحدة شاملة، إنها مشاهد حيَّة مُنتزعة من عالم الأحياء، لا ألوان مجرَّدة ولا خطوط جامدة، مشاهدٌ تقاس فيها الأبعاد والمسافات بالمشاعر والوجدانات، والخواطر والخلجات، وتُرسم المواقف وهي تتفاعل في نفوس آدمية حيَّة، أو في شخوص من الطبيعة تَخلع عليها الحياة ثم تفترق الشيَّات والسِّمات بعد ذلك في شتَّى المشاهد فلا تُخلُّ بهذه السمة الأصيلة الشاملة لجميع المشاهد." [2]

إن قوَّة التعبير في عرض مشاهد القيامة تجعل هذه المشاهد حاضرة اليوم تراها العين وتحسُّها النفس، ويصبح الفارق بين العالَميْن- الدنيا والآخرة- فارق قريب، بل لا يوجد فارق في بعض الأحيان، بل ربما صارت الآخرة هي الحاضرة بمشاهدها وأصبحت الدنيا ماضيا يتذكَّره المتذكِّرون.

إن المشاهد التي عبَّر عنها القرآن الكريم " تُعْنَى بتصوير مواقف الحساب، قبل النعيم والعذاب، وهنا نلتقي بألوان شتَّى من طرق العرض الكثيرة، وسماتٍ شتَّى للموقف المعروض، مرَّة يطول مشهد العرض والحساب حتى

---

1) مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار المعارف،القاهرة، ط:7، دت، ص37، 38.

2) المرجع نفسه، ص 38.

لنحسبه يدوم، ومرّة يُعرض سريعا خاطفا لا تكاد تتملاّه العيون، وهذا أو ذاك تقرّره الأصول الفنية، القائمة على أسس نفسية شعورية، وتحدِّده طبيعة الموقف، ويلتقي بالغرض الديني في النهاية فيؤدِّيه." [1]

"وتُعنى هذه المشاهد بتصوير الهول في يوم القيامة، ذلك الهول الذي يشمل الطبيعة كلّها ويغشى النفس الإنسانية ويهزها." [2]

ومما يتسلّق ذرى الكمال حتى يبلغ حدَّ الإعجاز في عرض مشاهد القيامة من لدن الحكيم الخبير، ما نلمسه في الآيات القرآنية وهي ترسم صوَر العذاب الأخروي، فنحسُّ من الإيقاع العام لها شدّة العذاب وغلظته، ويُخيَّل إلينا أننا نسمع هديره ودويَّه، وكذلك ما نلمسه في تلك الآيات- وهي تعرض مباهج ثواب المتّقين- من خلال الإيقاع الموسيقي الذي يملأ الصدر بهجة وغبطة فيُخيَّل إلينا أننا نشمُّ عبق الجنان وريحانها في كلام الحق جل جلاله.[3]

وهذه ثلاثة مشاهد من سورة القصص، تعرض صوَرا من صور العذاب النفسي يوم القيامة، ذلك اليوم الموعود المشهود يوم تبلى السرائر، ويوم يقوم الناس لرب العالمين.

المشهد الأول:

وفي هذا المشهد سؤال وتوبيخ للمشركين يوم القيامة عن اتخاذهم آلهة مزعومة، قال تعالى: (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (62) قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ (63) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)[القصص:62-64].

يا لها من فضيحة على رؤوس الخلائق ويا له من خزي يعقبه ندم وحسرة على ما فرَّط المشركون في جنب الله تعالى.

يقول صاحب الظلال: " والسؤال للتوبيخ، والتأنيب (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) والله يَعلم أن لا وجود اليوم لهؤلاء الشركاء، وأن شركاءهم لا يَعلمون عنهم شيئا ولا يستطيعون إليهم سبيلا، ولكنه الخزي والفضيحة على رؤوس الأشهاد.

ومن ثم لا يجيب المسؤولون عن السؤال، فليس المقصود به هو الجواب إنما يحاولون أن يتبرَّؤوا من جريرة إغوائهم لمن ورائهم وصدِّهم عن هدى الله، كما كان يفعل كبراء قريش مع الناس خلْفهم فيقولون (رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ).

---

1) مشاهد القيامة في القرآن،سيد قطب، ص 43.

2) المرجع نفسه، ص41.

3) انظر: المدخل إلى دراسة الإعجاز القرآني، د عبد المجيد عبد الحميد ناجي، ص 157.

ربنا إننا لم نغْوِهم قسرا، فما كان لنا من سلطان على قلوبهم، إنما هم وقعوا في الغواية عن رضى منهم واختيار، كما وقعنا نحن في الغواية دون إجبار (تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ) من جريمة إغوائهم (مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ) إنما كانوا يعبدون أصناما وأوثانا وخَلْقا من خَلْقك، و لم نجعل أنفسنا لهم آلهة، و لم يتوجَّهوا إلينا نحن بالعبادة.

[لكن هيهات أن يُقبل منهم هذا الاعتذار]، عندئذ يعود بهم إلى المخزاة التي حوَّلوا الحديث عنها، مخزاة الشركاء الذين اتخذوهم من دون الله (وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ).

ادْعُوهم ولا تهربوا من سيرتهم، ادعوهم لِيُلَبُّوكم وينقذوكم، ادْعُوهم فهذا يومهم وهذه فائدتهم، والبائسون يَعرِفون أن لا جدوى من دعائهم، ولكنهم يطيعون الأمر مقهورين (فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ) [يا لها من ضربة تقسم الظهر إذ تبرّأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا] و لم يكن منتظرٌ غير ذلك ولكنه الإذلال (وَرَأَوُا الْعَذَابَ) رأوه في هذا الحوار ورأوه ماثلا وراءه، فليس وراء هذا الموقف إلا العذاب، وهنا في هذه اللحظة التي يصل فيها المشهد إلى ذروته يُعرض عليهم الهدى الذي يرفضونه، وهو أمنيّة المتمنّي في ذلك الموقف المكروب، وهو بين أيديهم في الدنيا لو أنهم إليه يسارعون (لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ)." [1]

المشهد الثاني:

وهو امتداد للمشهد الأوَّل، كُرِّرت فيه جملة (يَوْمَ يُنَادِيهِمْ) لأن التكرار من مقتضيات مقام الموعظة للمؤمنين وفي الوقت نفسه هو توبيخ ثانٍ للمكذّبين بالرسل بعد انقضاء توبيخهم على الإشراك بالله (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (65) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ)[القصص: 65-66].

أي ماذا أجبتم المرسلين؟ هل صدّقتموهم أم كذّبتموهم؟ والجواب معروف سلفا، فقد كذّبوا رسل الله واستهزءوا بهم وبدعوتهم" ولكنّه السؤال الذي يُعرض على المجرم، الذي يَحار في الجواب زيادة عليه في الندم والحسرة، لذلك يواجهون السؤال بالذهول والصمت، ذهول الحائر وصمت المجرم النادم الذي لا يجد ما يقول."[2]

وقد جاءت صيغة المرسلين بالجمع مع أن كل أمة كذّبت رسولها الذي أُرسل إليها " والذي اقتضى صيغة الجمع أن جميع المكذبين إنما كذّبوا رسلهم بعلّة استحالة رسالة البشر إلى البشر، فهم إنما كذّبوا بجنس المرسلين، ولام الجنس إذا دخلت على (جميع) أبطلت منه معنى الجمعية." [3]

والتعبير بقوله (فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ) يلقي ظلال العمى على المشهد والحركة، ويشير إلى هول الموقف، وهول الجواب، فكأنّ الأنباء والأخبار عمياء لا تصل إليهم ولا تهتدي إلى طرُق أسماعهم وقلوبهم، فهي عمياء عنهم

---

1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 5|2706.

2) قبس من نور القرآن الكريم، محمد علي الصابوني، 9|240.

3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20|262.

وهُم عُميٌ عنها، وفي التعبير " استعارة تصريحية تبعيَّة، وقلْبٌ وتضمينٌ، استُعير العمى لعدم الاهتداء، فهُم لا يهتدون للأنباء، ثم قُلب للمبالغة فجُعل الأنباء لا تهتدي إليهم، وأصله فعموا عن الأنباء وضُمِّن معنى الخفاء فعدّي بـــ (على)." [1]

لقد أصابت القوم حيرة وذهول شديد، وخفيت عليهم الأنباء ولم يهتدوا إلى الجواب، فإنهم لما نودوا (أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ) في المشهد الأول " انبري رؤساؤهم فلفّقوا جوابا عدَلوا به عن جادَّة الاستفهام إلى إنكار أن يكونوا هم الذين سنُّوا لقومهم عبادة الأصنام [(قَالُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا)] فلما سُئلوا عن جواب دعوة الرسول- صلى الله عليه وسلم- عَيُوا عن الجواب فلم يجدوا مغالطة لأنهم لم يكونوا مسبوقين من سلفهم بتكذيب الرسول فإن الرسول- صلى الله عليه وسلم- بعث إليهم في نفسهم." [2]

لقد أفحم سؤالُ الله عزَّ وجلَّ- (مَاذَا أَجَبْتُمْ الْمُرْسَلِينَ)- المشركين، فخفيت عليهم الأنباء (فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ) أي لا يسأل بعضهم بعضا لاستخراج الآراء، وذلك من شدة البهْت والبغْت على الجميع أنهم لا متنصَّل لهم من هذا السؤال فوجموا.

المشهد الثالث:

وهو مشهد سريع من مشاهد القيامة يسأل الله- عزَّ وجلَّ- فيه المشركين سؤال استنكار عمّا زعموه من آلهة باطلة ويَقفهم وجها لوجه أمام أباطيلهم الكاذبة، حيث تتهاوى جميعا في هذا الموقف العصيب (وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (74) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) [القصص: 74-75].

وتصوير يوم النداء وما فيه من سؤال عن الشركاء المزعومين قد سبق في المشهد الأوّل لكنه يعاد هنا مرّة ثانية لتوكيده وتثبيته" والقصد من تأكيد هذا النداء مرة ثانية التنبيه على أنه لا شيء أجْلبَ لغضب الله تعالى من الإشراك به، كما أنه لا شيء أدعي لمرضاته من توحيده تعالى." [3]

ويترتَّب على هذا النداء التوبيخي التقريعي زيادة غمِّ المشركين وفرْط حزنهم وألَمِهم، ويتأكّد ذلك بإشهاد كل نبيٍّ على أمته (وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا).

" وهو نبيّها الذي يشهد بما أجابته واستقبلت به رسالته، والنزع حركة شديدة، والمقصود إقامته وإبرازه وإفراده من بينهم ليَشهده قومه جميعا وليُشهِد قومه." [4]

---

1) التفسير المنير ، وهبة الزحيلي، 10/ 508.
2) المرجع نفسه، 523/10.
3) المرجع نفسه، 525/10.
4) في ظلال القرآن، سيد قطب 2709/5.

وفي مواجهة المشركين لهذا الشاهد يطلب الله- عزَّ وجلَّ- منهم المجيء ببرهانهم وحُججهم على ما كانوا يعتقدون في الحياة الدنيا وما فعلوا فيها، ولكن هيهات أن يكون لهم ذلك فهم لا يملكون الدليل ولا سبيل لهم يومئذ للمكابرة (فَعَلِمُوا أَنَّ الحَقَّ لله) فلا إله غيره ولا رب سواه، ولا شريك له في ملكه وسلطانه (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

" والضلال: أصله عدم الاهتداء إلى الطريق، واستعير هنا لعدم حضور الشيء في البال ولعدم حضوره في المحضر من استعمال اللفظ في مجازيه.

و(عَنْهُمْ) متعلّق بلفظ (ضَلَّ) والمراد: ضل عن عقولهم وعن مقامهم، مُثّلوا بالمقصود للسائر في طريق يُخطئ الطريق فلا يبلغ المكان المقصود.

وعلق بالضلال ضمير ذواتهم يشمل ضلال فيفيد أنهم لم يجدوا حجّة يرجون بها زعمهم إلهية الأصنام، و لم يجدوا الأصنام حاضرة للشفاعة فيهم فوجِموا عن الجواب وأيقنوا بالمؤاخذة." [1]

فأي تعبير-بعْدُ- يرقى إلى هذا التعبير عن أهوال ذلك اليوم، وأي تصوير يسمو إلى تصوير القرآن لمشاهده وتشخيصه لأحداثه ؟ ألا إنه الإعجاز الذي ينقلب عقل الجاحد دونه خاسئا وهو حسير.

ثانيا: إثبات نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم-.

سورة القصص من السور المكية التي تهتم بأصول العقيدة الإسلامية، من توحيد لله- عزَّ وجلَّ-، وأمر النبوة والرسالة، وقضية البعث والنشور، وسائر أركان العقيدة.

وقضية العقيدة وحقائقها العظيمة هي القضية الجوهرية في هذه السورة، ولذلك استُنفرتْ كلُّ الأساليب والأغراض الأخرى في السورة- من قصص وحوار ووعد ووعيد وترغيب وترهيب- لخدمة هذه القضية وبيانها.

ولعل أهمَّ ما عرضته السورة من حقائق العقيدة: إثبات نبوَّة محمد- صلى الله عليه وسلم- وأنه رسول رب العالمين وهي القضية التي أنكرها مشركو مكة وحاولوا نفيها وإبطالها بكل ما أوتوا من قوَّة.

لكن التعبير القرآني بفضل قوّة أدائه وشمول برهانه أثبت لهم صحة نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم- وأقام عليهم الحجة، وأفحم المعاندين منهم فلم يملكوا إلا الإقرار أو الفرار من ذلك.

وقد حَوَت سورة القصص العديد من الأدلة العقلية الواضحة على صحة نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم- ومن ذلك قوله تعالى- بعد أن قصَّ على نبيه الكريم قصة موسى عليه السلام مع فرعون-:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) [القصص: 43].

لقد جاءت هذه الآية مباشرة بعد نهاية قصة موسى- عليه السلام- وفرعون كتخلُّصٍ حسن من قصة بعثة

---

1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20| 173.

موسى- عليه السلام- إلى تأييد بعثة محمد- صلى الله عليه وسلم-، وهي كذلك تحمل في طيّاتها جوابا شافيا لمشركي مكة الذين حاولوا إبطال رسالته عليه السلام بحجّة أنه لو كان رسولا حقّا لأُرسل إلى الأجيال التي كانت قبلهم.

يقول صاحب التحرير والتنوير معلقا عل هذه الآية: "... فقد كان المشركون يقولون مثل ذلك يريدون إفحام الرسول- صلى الله عليه وسلم- بأنه لو كان الله أرسله حقّا لكان أُرسل إلى الأجيال من قبله، ولَمَّا كان الله يترك الأجيال التي قبلهم بدون رسالة رسول ثم يرسل إلى الجيل الأخير فكان قوله:(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى) إتماما لتنظير رسالة محمد- صلى الله عليه وسلم- برسالة موسى- عليه السلام- في أنها جاءت بعد فترة طويلة لا رسالة فيها، مع الإشارة إلى أن سبْقَ إرسال الرسل إلى الأمم شيء واقع بشهادة التواتر، وأنه قد ترتَّب على تكذيب الأمم رسلهم إهلاك القرون الأولى فلم يكن ذلك موجبا لاستمرار إرسال الرسل متعاقبين بل كانوا يجيئون في أزمنة متفرِّقة، فإذا كان المشركون يحاولون بقولهم (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) إبطال رسالة محمد- صلى الله عليه وسلم- بعلّة تأخر زمانها سُفسطة ووَهْما فإن دليلهم مقدوح فيه بقادح القلْب بأن الرسل قد جاءوا إلى الأمم من قبلُ ثم جاء موسى- عليه السلام- بعد فترة من الرسل، وقد كان المشركون لَمَّا بهرهم أمر الإسلام لاذوا باليهود يسترشدوهم في طُرُق المجادلة الدينية فكان المشركون يخلطون ما يُلقّنهم اليهود من المغالطات بما استقر في نفوسهم من تضليل أئمة الشرك فيأتون بكلام يلعن بعضه بعضا، فمرّة يقولون: (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) وهو من مجادلات الأميِّين، ومرّة يقولون (لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى) وهو من تلقين اليهود، ومرّة يقولون: (مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ) فكان القرآن يدمغ باطلهم بحجة الحق بإلزامهم تناقض مقالاتهم.

وهذه الآية من ذلك، فهي حجّة بتنظير رسالة محمد برسالة موسى- عليهما السلام- والمقصود منها ذكر القرون الأولى." [1]

بعد أن دحض الله- عزّ وجلّ- وأبطل شبهة المشركين الأولى حوْل رسالة محمد- صلى الله عليه وسلم- ها هو يقرع أسماعهم بأدلة وبراهين جديدة تزيل الشك وتمحو الريب لمن كان له قلب وعقل سليم.

قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (44) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (45) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ.) [القصص: 44-47].

---

1) المرجع السابق، 20|128.

بعد أن قصّ الله تعالى قصة موسى- عليه السلام- مع فرعون وقومه وما تضمّنته من غرائب الأحداث والعبر، وأوحى سبحانه لنبيه الكريم بجميع تلك الأخبار" ذكّره بإنعامه عليه بذلك، وبما خصّه من المغيبات التي لا يعلمها لا هو ولا قومه، وأبان الحاجة إلى رسالته، لئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل، وكلّ ذلك برهان على أن القرآن وحيٌ من عند الله، وعلى نبوّة محمد- صلى الله عليه وسلم- حيث أخبر بالغيوب الماضية وهو رجل أميٌّ لا يقرأ شيئا من الكتب." (1)

إن الآيات السابقة تحمل من الأدلة العقلية والمؤيّدات الربانية الواضحة على صدق وصحة نبوة محمد-صلى الله عليه وسلم- ما يزيل ويدحض كل شبهة تثار حول هذه القضية، وقد جاءت هذه الأدلة على النحو التالي:

الدليل الأول:

قوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ).

إن محمدا- صلى الله عليه وسلم- كان غائبا و لم يكن حاضرا بجانب الجبل الغربي حين كلّم الله- عزّ وجلّ موسى عليه السلام وأوحى إليه بأ ر لرسالة، وأعطاه الألواح وألزمه العهد، و لم يكن عليه الصلاة والسلام من الشاهدين لهذه الحادثة. فأنّى له بمعرفة تفاصيل هذه الأخبار؟ أيكُون اطّلع عليها في كتب أهل الكتاب من اليهود؟.

والجواب كلا والله ما اطّلع عليها لأنه كان رجلا أميّا لا يقرأ ولا يكتب، و لم يتّصل باليهود أصلا وأهل مكة يعرفون ذلك جيدا. فمن أين له ذلك إذن ؟.

يقول صاحب التحرير والتنوير:" وجيء في الاستدلال[على صحة نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم] بطريقة المذهب الكلامي حيث بُني الاستدلال على انتفاء كون النبي موجودا في المكان الذي قضى الله فيه أمر الوحي إلى موسى- عليه السلام- لِينتقل منه إلى أن مثله ما كان يَعلم ذلك إلا عن المشاهدة لأن طريق العلم بغير المشاهدة له مفقود منه ومن قومه إذ لم يكونوا أهل معرفة بأخبار الرسل، كما كان أهل الكتاب، فلَمّا انتفى طريق العلم المتعارف لأمثاله تعيّن أن طريق علمه هو إخبار الله إياه بخبر موسى." (2)

الدليل الثاني:

قوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) [القصص:45]

وهذا دليل ثانٍ ساقه المولى- عزّ وجلّ- لمشركي مكة، فالنبي- صلى الله عيه وسلم- لم يكن مقيما في أهل مدين حتى يَعلم من أخبار قوم شعيب- عليه السلام- ما يَعلم ثم يقصّها على أهل مكة، فلَمّا انتفى عدم إقامته

---

1) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ، 479/10.

2) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20|130.

بين القوم، عُلِم بالالتزام أن علمه بأخبارهم كان عن طريق الوحي، لذلك جاءت الفاصلة قوله تعالى: (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ).

" وعَدل أن يُقال: ولكنا أوحينا بذلك إلى قوله: (وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ) لأن المقصد الأهمّ هو إثبات وقوع الرسالة من الله للردّ على المشركين في قولهم وقول أمثالهم (مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ) وتُعْلم رسالة محمد- صلى الله عليه وسلم- بدلالة الالتزام مع ما يأتي من قوله (وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا).

فالاحتجاج والتحدّي في هذه الآية والآية التي قبلها تحدٌّ بما عَلمه النبي- صلى الله عليه وسلم- من خبر القصة الماضية." [1]

الدليل الثالث:

قوله تعالى: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (46) [القصص: 46].

وهذا دليل ثالث سيق لإثبات نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم- فالنبي عليه السلام لم يكن حاضرا كذلك لَمّا نادى[2] الله عزّ وجلّ موسى- عليه السلام- بجانب الطور ليُحَضِّر نفسه لميقات ربّه بعد أربعين ليلة، ولكنّ الله عزّ وجلّ هو الذي أخبر نبيّه تفاصيل القصة ليحدِّث بها الناس، وهذا كلّه رحمة بأهل مكة حتى يؤمنوا ويذعنوا لله رب العالمين.

يقول سيد قطب: " كذلك صوَّر القرآن موقف المناداة والمناجاة من جانب الطور بدقّة وعمق (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا) وما سمع رسول الله- صلى الله عليه وسلم- النداء وما سجّل في وقته تفصيلاته، ولكنها رحمة الله بقومه هؤلاء. أن قصّ عليه تلك الأنباء الدالة على صدقه- صلى الله عليه وسلم- فيما يدعوهم إليه، لينذر هؤلاء القوم الذين لم يأتهم نذير من قبله، فقد كانت الرسالات في بني إسرائيل من حولهم، ولم يرسل إليهم رسول منذ أبيهم إسماعيل (لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ).

فهي رحمة الله بالقوم، وهي حجّته كذلك عليهم كي لا يعتذروا بأنهم أُخذوا على غرّة، وأنهم لم يُنذروا قبل أخذهم بالعذاب وما هم فيه من جاهلية وشرك ومعصية يستوجب العذاب، فأراد الله أن يقطع حجّتهم وأن يعذر إليهم، وأن يَقِفَهم أمام أنفسهم مجرّدين من كل عائق يعوقهم على الإيمان." [3]

---

1) المرجع السابق، 133/20.

2) يقول صاحب التحرير والتنوير: " النداء المقصود في هذه هو نداء الله لموسى لميقات ربه بعد أربعين ليلة و إنزال الألواح، وقد كان بجانب الطور وهو نفس المكان الذي نودي فيه موسى- عليه السلام- أوّل مرّة أثناء رجوعه من ديار مدين وعليه فالنداء في هذه الآية في قوله (إِذْ نَادَيْنَا) غير النداء في قوله في الآية 30 :(فلما أتاها نودي من شاطئ الواد الأيمن)" انظر التحرير و التنوير، 133/20.

3) في ظلال القرآن،2698/5.

فانظر كيف ساق القرآن الكريم هذه البراهين الدالة على صدق نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم- للمشركين وطوَّقهم بها فلم يَمْلكوا إلا أن يصدقوا بنبوته عليه السلام صراحة أو في أنفسهم (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ)[النمل:14].

وأكثر ما يثير الانتباه والغرابة في عمليّة عرض وإثبات نبوة محمد-صلى الله عليه وسلم- " تلك الحيوية الدافقة المؤثرة الموحية- مع دقّة البراهين والتقرير والتحدّي الحاسم- وهي تمنح هذه الحقيقة حيوية وإيقاعا وروعة وجمالا، لا يتسامى إليه المنهج البشري في العرض ولا الأسلوب البشري في التعبير، ثم هي تُعرض في دقّة عجيبة وتحديد حاسم، ومع ذلك لا تجور الدقّة على الحيوية والجمال، ولا يجور التحديد على الإيقاع والروعة." (1)

ثالثا: في عرض مشاهد الغابرين.

قال الباقلاني: " والوجه الآخر [من وجوه إعجاز القرآن] ما عليه القرآن من قصص الأولين، وسِيَر الماضين، وأحداث المتقدمين، وذِكْر ما شَجَرَ بينهم، وكان في أعصارهم مما لا يجوز حصول علمه إلا لمن كثر لقاؤه لأهل السِّيَر ودرسه لها وعنايته بها ومجالسته لأهلها، وكان ممن يتلو الكتب ويستخرجها، مع العلم بأن النبي- صلى الله عيه وسلم- لم يكن يتلو كتابا ولا يخطّه بيمينه، وأنه لم يكن ممن يُعرف بدراسة الكتب ومجالسة أهل السِّيَر والأخذ عنهم ولا لقي إلا من لاقوه، ولا عرف إلاّ من عرفوه، وأنهم يعرفون دأبه وديدنه، ومنشأه وتصرّفه في حال إقامته بينهم... فدلّ ذلك على أن المخبر له عن هذه الأمور هو الله- سبحانه وتعالى- علاّم الغيوب فهذا وجه الإعجاز في القرآن." (2)

لقد عَرضت سورة القصص مشهدَيْن لهلاك الأمم الغابرة، فالمشهد الأول هو هلاك فرعون وقومه، وفرعون تكبّر وطغى بسلطانه وجاهه، والمشهد الثاني كان مشهد هلاك قارون الذي طغى وتكبّر بماله وعلمه.

لقد كان من أهداف عرض هذين المشهدين إثبات حقيقة الوحي" فأنباء هذه الأمم من الغيب ما كان يَعلمه النبي، وما كان معلوما لقومه." (3)

بيد أن ما أريد التركيز عليه هنا هو إعجاز القرآن وبلاغته في تلك المشاهد، وبيان تميُّز وتفرُّد التعبير القرآني في تقديمه تلك النهايات المؤسفة.

" إن التعبير القرآني يُحْيي المشهد، فكأنما هو واقعةٌ وحاضرةٌ لا حكاية ماضية." (4)

---

1) مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، دار النشر، القاهرة، ط:4، 1414هـ- 1993م، ص68.
2) تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، للباقلاني، ص168، 169.
3) في ظلال القرآن، سيد قطب، 4|1870.
4) المرجع نفسه، 4|1871.

ففي قصة موسى- عليه السلام والطاغية فرعون يُرسم المشهد بطريقة مفاجئة وسريعة (وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (40) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (41) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)[القصص: 39، 40].

لقد نقلنا التعبير إلى مسرح الأحداث مباشرة نقلة عجيبة، وكأنما استُحضر المشهد الغابر فإذا هو حاضر مجسّم ماثل أمامنا نتابع سَيْر أحداثه ومواقفه.

لقد بلغ فرعون درجة كبيرة من التكبر في الأرض حتى وصلت به الجرأة أن طمع في الوصول إلى مترلة الربوبية وصول الغالب أو القرين، وظنّ أن الله- عزّ وجلّ- لن يقدر عليه ولن يعيده إليه يوم القيامة، فجاء الردّ من الإله الحق والقادر على كل شيء (فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ).

" وهكذا في اختصار حاسم، أخْذٌ شديد ونبْذٌ في اليمِّ، نبْذٌ كما تحذف الحصاة، أو كما يُرمى بالحجر، اليمُّ الذي أُلقي في مثله موسى- عليه السلام- الطفل الرضيع فكان مأمنا وملجأ، وهو ذاته الذي ينبذ فيه فرعون الجبّار وجنوده فإذا هو مخافة ومهلكة." (1)

فانظر يا محمد- عليه السلام- وآمُرْ قومك أن ينظروا في حال وعاقبة الظالمين ويعتبروا بسوء عاقبتهم لأجل ظلمهم أنفسهم بالكفر، وظلمهم الرسول بالاستكبار على سماع دعوته.

ويواصل القرآن الكريم عرض المشهد، وفي لمحه يجتاز الحياة الدنيا، ويقف بفرعون وجنوده في مشهد عجيب وهُم يَدْعون إلى النّار، ويقودون إليها الأتباع والأنصار (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ)." فيا بئساها دعوة، ويا بئساها إمامة." (2)

ويُختم المشهد باللعنات تطارد القوم في الحياة الدنيا وبالتقبيح الذي ينتظرهم يوم القيامة (وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ) [القصص:43].

" وهكذا اتصل عذابهم في الدنيا بالغرق والدمار بعذاب الآخرة باللعنة والتقبيح والفضيحة والتشنيع والاستقرار في دركات السعير، وهذا مصير كل فاجر متطاول على الله وعلى عباده." (3)

وفي مشهد آخر من مشاهد إهلاك الظالمين والمتجبِّرين تعرضه لنا سورة القصص، وتصوِّر لنا في لمحة خاطفة كيف خسف الله- عزّ وجلّ- الأرض بقارون الذي تكبّر بماله وعلمه حيث " ابتلعته الأرض، وابتلعت ملكه

---

1) المرجع السابق، 5| 2695.
2) المرجع نفسه، 5| 2695.
3) قبس من نور القرآن ، محمد علي الصابوني، 247/9، 248.

ودوره وقصوره وذهبت به وبنعمته، وحطّمت غروره، وكبريائه تحطيما وهوى في بطن الأرض التي تبتخر على ظهرها واستطال عُجْبا وكبرا، فكان ذلك جزءا وفاقا." (1)

قال الله تعالى مصوِّرا نهاية قارون المخزية: (فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ)[القصص:81].

لقد عرضت سورة القصص مشهدين عظيمين من مشاهد إهلاك الظالمين والمتجبِّرين، ونصرة المؤمنين المستضعفين وهي معانٍ كانت القلّة المؤمنة المستضعفة في مكة بحاجة إليها لتكُون لها دعما في الثبات والمضيِّ في طريق دعوتها.

يقول سيد قطب: " لقد بغى فرعون على بني إسرائيل واستطال بجبروت الحكم والسلطان، ولقد بغى قارون عليهم واستطال بجبروت العلم والمال، وكانت النهاية واحدة، هذا خُسف به وبداره وذلك أخذه اليمّ هو وجنوده، ولم تكن هناك قوّة تعارضها من قوى الأرض الظاهرة، إنما تدخّلت يد القدرة سافرة وضعت حدّا للبغي والفساد حينما عجز الناس عن الوقوف للبغي والفساد." (1)

وهكذا نرى عمليّات عرض المشاهد وتقديم الحقائق تتمّ بأساليب وكيفيات راقية تتناسق فيما بينها لخدمة أغراض القرآن " فالتصوير القرآني حين ينتهي من تناسق الألوان والأجزاء في الصورة أو المشهد... لا ينتهي عند هذه الأفاق في تناسق الإخراج، إن هناك خطْوة وراء هذا كلّه ضروريّة للتناسق وضروريّة لتأثير المشهد وللكمال الفني فيه، تلك هي المدّة المقرّرة لبقاء المشهد معروضا على الأنظار في الخيال، والتناسق القرآني يَلْحظه ويؤدّيه أرفع أداء، بعض المشاهد يمرّ سريعا خاطفا يكاد يخطف البصر لسرعته ويكاد الخيال نفسه لا يلاحقه، وبعض المشاهد يطول ويطول، حتى يُخيَّل للمرء في بعض الأحيان أنه لن يزول، وبعض المشاهد الطويلة الحافلة بالحركة وبعضها شاخص لا يريم، وكلّ أولائك يتمّ تحقيقا لغرض خاص في المشهد، يتّسق مع الغرض العام للقرآن، ويتمُّ به التناسق في الإخراج أبدع التمام." (2)

---

1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 5|2674.

2) التصوير الفني، سيد قطب، ص 107.

أولا: التأليف الصوتي للقرآن الكريم.

إن أوّل مايلاقيك ويستدعي انتباهك من أسلوب القرآن الكريم، وأنت تقرأ أو تسمع له خاصيّة تأليفه الصوتي في شكله ونغماته.

دعْ قارئا مجوِّدا يقرأ عليك جزء من القرآن ويرتّله حقّ ترتيله، وخُذ أنت مكان قصيّا بحيث لا تسمع جرس حروفه، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها، ومدّاتها، وغُنّاتها، واتصالاتها وسكتاتها، ثم ألقي سمعك إلى هذه المجموعة الصوتية، وقد جُرِّدت تجريدا وأرسلت ساذجة في الهواء، ستجد نفسك أمام لحن غريب عجيب، ترتاح إليه نفسك ولا تجده ولن تجده في أي كلام آخر ولو جُرِّد هذا التجريد، وجوِّد هذا التجويد.

إنك" ستجد اتساقا وائتلافا يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، وستجد شيئا آخر لا تجده في الموسيقى ولا في الشعر، ذلك أنك تسمع القصيدة من الشعر فإذا هي تتّحد الأوزان فيها بيتا بيتا، وشطرا شطرا، وتسمع القطعة الموسيقية فإذا هي تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبا متقاربا، فلا يلبث سمعك أن يملّها، وطبعك أن يملّها إذا أعيدت وكرِّرت عليك بتوقيع واحد، بينما أنت من القرآن أبدا في لحن متنوِّع متجدِّد، تنتقل فيه بين أسباب وأوتاد وفواصل على أوضاع مختلفة يأخذ منها كل وتْرٍ من أوتار قلبك بنصيب سواء، فلا يعروك منه على كثرة ترداده ملالة ولا سأما، بل لا تفتأ تطلب منه المزيد."(1)

إن هذا الجمال التوقيعي للقرآن الكريم لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن حتى الذين لا يعرِفون لغة العرب، فكيف بالعرب أنفسهم ؟.

وإذا أنت اقتربت من القارئ قليلا وطرق سمعك جواهر حروفه خارجة من مخارجها صحيحة فاجأتْك وأخذتك لذّة أخرى في نَظْم تلك الحروف، ورصفها وترتيب أوضاعها فيما بينها فتسمع إلى الحروف فهذا يصفّر وذاك ينقر وثالث يجهر، ورابع يهمس، وخامس يقلقل، وآخر يُحبس عنده النفس وهكذا " فترى الجمال اللغوي ماثلا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة لا كركرة ولا ثرثرة ولا رخاوة ولا معاضلة، ولا تناكر ولا تنافر، وهكذا ترى كلاما ليس بالحضري الفاتر، ولا البدوي الخشن بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها برقّة الحاضرة وملاستها... فإذا مزيج منها كأنما هو عصارة اللغتين وسلالتها، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل عندها تلتقي أذواقهم وعليها تأتلف قلوبهم." (2)

من هذه الخاصية الأخيرة والتي قبلها تتألّف القشرة السطحية للجمال القرآني وهو غلاف صوتي يأسِر الأسماع

---

1)النبأ العظيم، محمد عبد الله درّاز، ص102.

2) المرجع نفسه، ص104.

ويفتن القلوب، وهو أمر عجيب، والأعجب من ذلك أن هذا الغلاف الصوتي للقرآن شأنه شأن الأصداف وما تحويه من اللآلئ النفيسة " فإذا أنت لم يُلْهِك جمال الغطاء كما تحته من الكنز الدفين، و لم تحجبك بهجة الأستار عمّا وراءها من السرّ المصون، بل إذا فَلَيْت القشرة عن لُبّها، وكشفت الصدفة عن دُرّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي تجلّى لك ما هو أبهى وأبهر، ولقيَك منه ما هو أرْوع وأبدع." (1)

ثانيا: سحر القرآن وتأثيره في القلوب.

يُعدُّ تأثير القرآن العظيم في النفوس وسلطانه على القلوب وجها بارزا من وجوه إعجازه ودليلا ساطعا على عظمة مُنْزِله سبحانه وتعالى.

قال أبو سليمان الخطابي:" قلتُ في إعجاز القرآن وجها ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذّ من آحادهم وذلك صنيعه في القلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلاما غير القرآن- منظوما ولا منثورا- إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في الحال، ومن الروعة والمهابة في أخرى، ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور." (2)

لماذا يا ترى وصف المشركون من العرب القرآن الكريم بأنه سحر ؟.

" لا جرم أن نعتهم له بهذه الصفة إنما يعبِّر عن الجانب التأثيري له، فهو يعمل في نفوسهم عمل السحر." (3)

حتى إن أحد زعمائهم لم يجد أنسب من ذلك الوصف فقال بعد أن فكّر وقدّر: (فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ)[المدثر: 24].(4)

فأين مَكْمن هذا السحر الذي تحدّث عنه الوليد بن المغيرة بليغ العرب بعد أن فكّر وقدّر ؟.

" لا بد أن السحر الذي عناه كان كامنا في مظهر آخر غير التشريع والغيبيات والعلوم الكونية، لا بدّ أنه كامن في صميم النسق القرآني ذاته، لا في الموضوع الذي يتحدّث عنه وحده- وإن لم نغفل ما في طبيعة العقيدة الإسلامية من قوّة وجاذبية- فهذه الخصائص إنما تتجلّى من خلال التعبير المؤثّر المعبِّر المصوِّر." (5)

ولا شك أن يكون للكلام سِحره، وللقول نَفثه في عُقَد القلوب، فكم من شعر تدفّق حكمة في قصائد الشعراء وكم من بيان جرى فتنة من أفواه البلغاء، وقد قال المصطفى- عليه الصلاة السلام- (وَإِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا).(6)

---

1) النبأ العظيم، محمد عبد الله درّاز، ص106.

2) بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن رسائل في الإعجاز)، ص70.

3) واقعية المنهج القرآني، توفيق محمد سبع، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1393هـ- 1973م، ص425.

4) انظر تفسير ابن كثير، 4| 158.

5) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص19.

6) رواه الترميذي في سننه تحت رقم (2035)، باب ما جاء إن من البيان لسحرا، دار الفكر، بيروت، 1414هـ- 1994م ، 3| 414.

فإذا كان يوجد من كلام الخَلْق ما يعلو ببلاغته، وبيانه حتى يهتك حُجب الأفئدة ويطّلع عليها، فكيف بكلام الخالق- جلّ جلاله- ؟.

لقد سَحر القرآن الكريم العرب، وبهرهم وسلب عقولهم وأفئدتهم بنظمه وبيانه، منذ الوهلة الأولى لنزوله عليهم إلى أن اكتملت سُوَره" وكان الإعجاز هو روحه الخفيّة، فتسري في قارئه، فينبعث فيه الإقرار النفسي بأنه كتاب إلهي." (1)

ولولا أن القرآن الكريم مَلَكَ كنوز الفصاحة، وحاز أسرار البلاغة، لانْتَهى أمره إلى أكثر ما ينتهي إليه أمر كلّ كتاب على وجه الأرض، ولكنه أتى العرب من جهة لا قِبل لهم بها، ولا حيلة لهم معها وهي ما يُشبه أساليب الاستهواء في عِلم النفس، حتى استبدَّ بهم واستولى على إرادتهم، فكانوا ينتهون إليه في هروبهم منه، يخشعون له وهم يصُدّون عنه، لقد أخذ عليهم بفصاحته جوانب النفس العربية وجهاتها، وأوثق أسْرهم ببراعة أساليبه وقوّة إحكامه وما كان سعيُهم لنقض دعوته ورفضها، واللغو فيها وتواصيهم بعدم السماع له إلاّ عنادا، ومكابرة ما كان لها أن تتجاوز حناجرهم، لأن اللسان وحده هو الذي يستطيع أن يتبرّأ من الشعور ويكابر فيه."(2)

إن هذا التأثير الخارق والنجاح الباهر يدركه كل قارئ للقرآن وكلّ مستمع له، عالم بأساليب العربية وخبير بفنون التعبير وتقنياته فيها " والذين زاولوا فنّ التعبير الذين لهم بصر بالأداء الفني، يدركون أكثر من غيرهم مدى ما في الأداء القرآني من إعجاز... إن الأداء القرآني يمتاز ويتميّز عن الأداء البشري، إن له سلطانا على القلوب ليس للأداء البشري، حتى ليبلغ أن يؤثّر بتلاوته المجرّدة على الذين لا يعرفون من العربية حرفا." (3)

"إن تأثير القرآن ونفاذه يستحيل أن تتحصّن دونه القلوب، فإنه لو أنزل على صمُّ الجبال لفلقها وشقّها، بما يودعه فيها من هيبة الله وجلاله." (4)

فقد قال الله- عزّ وجلّ- فيه: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:21].

قال صاحب التحرير والتنوير:" والمعنى لو كان المخاطب بالقرآن جبلا، أو كان الجبل يفهم الخطاب لتأثّر بخطاب القرآن تأثّرا ناشئا من خشية الله." (5)

---

1) الإعجاز الفني في القرآن، عمر سلامي، ص52.
2) من إعجاز القرآن والبلاغة النبوية –بتصرف–، ص112، 113.
3) في ظلال القرآن، سيد قطب، 3|1786.
4) بيانات المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عتر، ص385.
5) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 28|116.

ثالثا:تأثير القرآن في نفوس أوليائه وأعدائه.

لم يقتصر تأثير القرآن الكريم على الذين صدّقوه وآمنوا به من أهل مكة ، بل شمل العرب الذين تلقّوْه، مؤمنهم وكافرهم، وقد ثبت أن هيبة القرآن وروعته جلبت إليه أسماع الذين كفروا به وتولوا عنه مدبرين، حتى صغت إليه أفئدتهم فرضوه، ولانت له قلوب كثير من جبّاريهم وطواغيتهم فأحبّوه، فلقد صدر منهم الاعتراف القسري بأنه الكلام الذي يعلو ولا يعلى عليه، ألم يقل زعيمهم الوليد بن المغيرة المخزومي: "والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجناة..." [1]

أليس في كلام الوليد هذا آية على القوّة والحلاوة التي تستولي على النفوس فتأسرها وعلى القلوب فتسحرها.

وليس ببعيد من ذلك ما حكاه القرآن الكريم عن تواصي المشركين بعدم السماع للقرآن، فهم ينهوْن عنه ويناوْن عنه، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[فصلت:26].

" فإن قولهم هذا ليَنِمُّ عن الذعر الذي كان يضطرب في نفوسهم من تأثير القرآن فيهم وفي أتباعهم، وهم يرون هؤلاء الأتباع يسحرون بين عشيّة وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوها محمد- صلى الله عليه وسلم- أو أحد أتباعه السابقين فتنقاد إليهم النفوس، وتهوى إليهم أفئدتهم... ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم هذه المقالة، وهم في نجوة من سحر القرآن، فلولا أنهم أحسّوا في أعماقهم هزّة روّعتهم، ما أمروا أتباعهم هذا الأمر وما أشاعوا في قومهم هذا التحذير الذي هو أدلّ من كل شيء على عمق التأثير." [2]

إذا بلغ التأثير القرآني في نفوس المكذّبين بآيات الله الصادفين عنها هذا المبلغ، فكيف يكون حال المؤمنين به، الذين شهدوا لربهم بالوحدانية، ولنبيهم بالرسالة ؟.

لا ريب أن تأثير القرآن الكريم في نفوس المؤمنين كان أقوى وأشدّ " وإذا تجاوزنا النفر القليل الذين كانت شخصية محمد- صلى الله عليه وسلم- وحدها هي داعيتهم إلى الإيمان في أوّل الأمر كزوجه خديجة، وصديقه أبي بكر، وابن عمه علي، ومولاه زيد وأمثالهم فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم أو أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا أوائل الدعوة." [3]

لقد وصف الله- عزّ وجلّ- القرآن الكريم ومدى تأثيره في قلوب المؤمنين الذين أخبتوا إلى ربهم أبلغ وصفا فقال جلا ثناؤه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾[الزمر:23].

---

1) سيرة ابن هشام،1 | 313، 314.

2) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، ص144.

3) المرجع نفسه، ص11.

ومن هنا نعلم أن القرآن الكريم كتاب تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، لِمَا في آياته الكثيرة من موعظة توجل منها القلوب وتلين " وهو وصفُ كمالٍ لأنه من آثار قوّة تأثير كلامه في النفوس... و قد اقتضى قوله تعالى (تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) أن القرآن يشتمل على معانٍ تقشعر منها الجلود، وهي المعاني الموسومة بالجزالة التي تثير في النفوس روعة وجلالة ورهبة تبعث على امتثال السامعين له." (1)

والمؤمن لا تزال روعة وجلال وهيبة القرآن الكريم توليه انجذابا له، وتُكسبه رقّة وهشاشة لميل قلبه إليه وتصديقه به " وإنما يبعث هذا الميل في القلوب، ما في القرآن من معاني الرحمة، وذلك في الآيات الموصوفة معانيها بالسهولة." (2)

وها هنا موطن العجب للمتأمِّل؟ وهو كيفية جمع التعبير القرآني بين التأثيرين المتضادين فمرّة يرهب ومرّة يرغب وهذا " ليكون المسلمون في معاملة ربهم جارين على ما يقتضيه جلاله وما يقتضيه حلمه ورحمته." (3)

رابعا: نماذج وصوَر للتأثير القرآني من خلال سورة القصص.

بعد العرض الذي قدّمته حول تأثير القرآن الكريم في نفوس أوليائه وأعدائه، أريد الآن تقديم نماذج حيّة، وصوَرا رائعة من سورة القصص محاولا كشف جوانب - ولو يسيرة- من عوالم التأثير فيها وما تَسْكبه في نفس القارئ من جمال وما تتركه من روائع الترهيب والترغيب.

إن بالحق تقتنع العقول وبالموعظة توجل وتخشع القلوب، وبالذكرى يستيقظ الضمير، وهنا يبلغ التأثير مداه الأقصى فيحقق غرضه الأسمى، ولنشرع الآن في فتح النوافذ أمام روائع ذلك التأثير النافذ.

1- حسن الابتداء وبراعة الاستهلال.

قال المولى تبارك وتعالى مبتدئا سورة القصص: (طَسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (2) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (3)) [القصص:1-3].

لقد افتتح الله- عزّ وجلّ- سورة القصص بالحروف المقطّعة، وفي ذلك براعة استهلال وحسن ابتداء لا نظير لها. قال صاحب الصناعتين: " وإذا كان الابتداء حسنا بديعا، ومليحا رشيقا كان داعيةً للاستماع لِمَا يجيء بعده من الكلام، ولهذا يقول الله- عزّ وجلّ-: (الم، وحم، وطس، وطسم، وكهيعص) فيقرع أسماعهم بشيء بديع ليس لهم بمثله عهد، ليكُون ذلك داعية لهم إلى الاستماع لِمَا بعده." (4)

---

1) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 388/22.
2) المرجع نفسه، 389/22 .
3) المرجع نفسه، 390/22.
4) الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص 437.

وكيف للمرء- يفتح المصحف الشريف على هذه السورة – أن لا تهزّه منها روعة الحروف في تقطّعها وسكناتها وسكناتها، وهو يواجه بقلبه جلال الوحي وهو يُسْكب في عقله وروحه، فيروي ظمأه "ولا تنفكُّ هذه الفواتح من عوامل الاستغراب، ولا يَخلُق الاستغراب إلا الاهتمام، ولا يثير الاهتمام إلا التنبيه، ولن ينبِّه الناس ويقرع أسماعهم صوتٌ أحلى وقعا من هذه الحروف المقطّعة." (1)

ولقد ذكر الله تبارك وتعالى بعد هذا الافتتاح الحسَن أن ذلك الكتاب مبين لكلّ شيء، جليل القدر، قد نُظم نظما رصينا محكما، فلا تعارض فيه ولا تناقض يتلوه سبحانه- عزّ وجلّ-بالحق على عباده المؤمنين.

"وهذه التلاوة المباشرة من الله تُلقي ظلال العناية والاهتمام بالمؤمنين، وتُشعرهم بقيمتهم العظيمة ومنزلتهم العالية الرفيعة، وكيف ؟ والله ذو الجلال يتلو على رسوله الكتاب من أجلهم، ولهم بصفتهم هذه التي تؤهّلهم لتلك العناية الكريمة، (لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)." (2)

إن روعة هذا الابتداء هي التي تذكي الشرارة في شعور المتلقّي، وتجعل جميع طاقات عقله وإحساسات وجدانه في استنفار وتأهب قصوى، واستعداد لسماع الخطاب وتدبُّر الآيات،" ومُهِّد لنبأ موسى وفرعون بقوله (نَتْلُو عَلَيْكَ) للتشويق لهذا النبأ لِمَا فيه من شتَّ العبر بعظيم تصرُّف الله في خلقه." (3)

2- صورة لشمول العلم الإلهي، ونفوذ حكمه تبهر العقول.

وذلك في قوله- عزّ وجلّ-: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (68) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (69) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) [القصص: 68-70].

في هذه الآيات عرضٌ لحقائق عظيمة تبهر العقول.

فأما قوله تعالى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ) فتعرض " الحقيقة التي كثيرا ما ينساها الناس، أو ينسون بعض جوانبها، إن الله يخلق ما يشاء لا يملك أحد أن يقترح عليه شيئا ولا أن يزيد أو ينقص في خلقه شيئا ولا أن يعدِّل أو يبدِّل في خلقه شيئا، وإنما هو الذي يختار من خلقه ما يشاء ومن يشاء لِما يريد من الوظائف والأعمال والتكاليف والمقامات، ولا يملك أحد أن يقترح عليه شخصا ولا حادثا ولا حركة ولا قولا ولا فعلا... ما كان لهم الخيرة لا في شأن أنفسهم ولا في شأن غيرهم، ومردُّ الأمر كلّه إلى الله تعالى في الصغير والكبير." (4)

---

1) مباحث في علوم القرآن، صبحي صالح، ص 246.

2) في ظلال القرآن،سيد قطب، 5/2676.

3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20/64.

4) في ظلال القرآن، سيد قطب، 5/2707.

فانظر إلى عظمة المولى تبارك وتعالى وأنه سبحانه المنفرد بالخلق والاختيار دون منازع ولا معقّب لذلك، وجاء باسم (وَرَبُّكَ) الدال على ذلك فـ(سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) " ولهذا نزَّه نفسه في منازعة أحد في سلطانه، فقال (سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي تنزيها لله وتقديسا وتعاليا عن إشراك المشركين، وعن أن ينازعه أحد في اختياره وخلقه من الأصنام والأنداد التي لا تخلق ولا تختار شيئا." [1]

ثم بيَّن الله- عزّ وجلّ- بعد ذلك أن اختياره هذا مبنيٌ على عِلم، علمٌ يكشف السرّ والإعلان فقال: (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ)[القصص: 69].

وهذه حقيقة أخرى يعرضها الله تعالى بعد عرضه الحقيقة الأولى وهي أنه يَعلم ما تخفيه صدور الخلق وما تنطوي عليه ضمائرهم وسرائرهم، كما يَعلم ما يبديه الظاهر منهم فالأمر عنده سيّان، وفي هذا عظمة وجلال وهيبة لا تكون إلاّ لمن خلق هذه النفوس وعَلِم سرّها وجهرها.

وجملة (وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ) "عطف على (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ) أي هو خالقهم ومركّبهم على النظام الذي تصدر عنه الأفعال والاعتقادات فيكُونون مستعدِّين لقبول الخير والشر، وتغليب أحدهما على الآخر اعتقادا وعملا، وهو يعلم ما تخفيه صدورهم أي نفوسهم وما يعلنونه من أقوالهم وأفعالهم، فضمير (صُدُورِهِمْ) عائد إلى (مَا) من قوله (يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ) باعتبار معناها، أي ما تكنّ صدور المخلوقات وما يعلنون، وحيث أُجْريت عليهم ضمائر العقلاء، فقد تعيَّن أن المقصود البشر من المخلوقات، وهم المقصود من العموم في (مَا يَشَاءُ) فبحسب ما يَعلم منهم يختارهم ويجازيهم فحصل بهذا إيماء إلى علّة الاختيار وإلى الوعد والوعيد، وهذا منتهى الإيجاز.

وفي إحضار الجلالة بعنوان (وَرَبُّكَ) إيماء أن مما تكنّه صدورهم [أي مشركي مكة] بغض محمد- صلى الله عليه وسلم-." [2]

وبعد عرض الحقيقتين العظيمتين السابقتين التي يظهر أثرهما في الحياة الدنيا، تأتي حقيقة ثالثة أوسع من الحقيقتين الأوليين، تشمل الحياة الدنيا والآخرة، تشهد على عظمة الخالق وحكمته وقدرته.

فقد قال تعالى: (وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)[القصص: 70].

لقد عرضت الحقيقتين السابقتين الدلائل على قدرة الله- عزّ وجلّ- وشمول علمه، وهذه من صفات الربوبية، وجاءت الحقيقة الثالثة لتأكّد أن من كانت صفاته كذلك هو الإله الذي يستحقُّ العبادة وحده دون سواه

---

1) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، 10|516.

2) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20|164.

" وفيه تنبيه على أنه إذا كان قادرا على كل الممْكنات، عالما بكل المعلومات، منزّها عن النقائص والآفات لذا كان هو المستحقّ للعبادة وحده." (1)

كما أنه تعالى مستحقّ للحمد في الدارين- الأولى والآخرة- (لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ) المحمود على جميع ما يفعله في الدنيا والآخرة، لأنه بعدله وحكمته يمنح النعم ويفيض الخير على مخلوقاته في الدنيا " فإن قلتَ الحمد في الدنيا ظاهر فما الحمد في الآخرة، قلتُ: هو قولهم (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)[فاطر:34]، (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ)[الزمر:74]،(وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) [الزمر:75]، والتحميد هناك على وجه اللّذة لا الكُلفة وفي الحديث (يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّقْدِيسَ) مسلم 2835." (2)

وقد تم ختم الله- عزّ وجلّ- الآية بقوله (لَهُ الْحُكْمُ وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ).

" وقوله: (وَلَهُ الْحُكْمُ) اللام فيه أيضا للمُلْك، والتقديم للاختصاص أيضا، والحكم: القضاء وهو تعيين نفعٍ أو ضرٍ للغير، وحذف المتعلّق بالحكم لدلالة قوله (فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ) عليه. أي له الحكم في الدارين والاختصاص مستعمل في حقيقته ومجازه لأن الحُكْم في الدنيا يثبت لغير الله على المجاز، وأما الحكم في الآخرة مقصور على الله، وفي هذا إبطال لتصرُّف آلهة المشركين فيما يزعمون من تصرّفاتها، وإبطال لشفاعتها التي يزعمونها في قولهم (هَؤُلاَءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ الله) أي في الآخرة إن كان ما زعمتم من الشفاعة، وأما جملة (وإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) فمسوقة مساق التخصيص بعد التعميم، فبعد أن أُثبت لله كلّ الحمد وكلّ الْحُكْم، أي أنكم ترجعون إليه في الآخرة فتمجّدونه ويجري عليكم حكمه والمقصود بهذا إلزامهم بإثبات البعث." (3)

فانظر كيف عَرضت هذه الحقائق الثلاثة عظمة وجبروت الخالق في الدارين فمن بقي له شيء بعد ذلك فليطْلبه.

3- جولة في مشاهد الكون الفسيح.

كثيرا ما يذكّر الله- عزّ وجلّ- الناس في القرآن الكريم بنعمه عليهم فيما خلق وسخّر لهم في هذا الكون الفسيح، ومن ذلك قوله تعالى في سورة القصص: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (71) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ)[القصص:71،72].

---

1) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، 516/10- بتصرف يسير-.

2) الكشاف، الزمخشري، 3| 434.

3) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20| 168.

لقد جاءت هاتان الآيتان لتنبِّه الغافلين إلى ظاهرتين كونيتين عظيمتين، ظاهرة الليل وظاهرة النهار، وهما من الآيات الباهرة، ناطقتين بوحدانية المولى- تبارك وتعالى-، ولكن الناس تعوَّدوا أن يروا الشمس تشرق كلَ يوم، والنهار يقبل ويدبر فأفقدهم إلْفُهُم لهذه الظاهرة روعة الإبداع والجمال في مشاهد الكون الفسيح.

" والناس لطول ما اعتادوا من كرِّ الجديدين ينسون جدَّتهما المتكررة التي لا تَبلى، ولا يروعهم مطلع الشمس ولا مغيبها إلا قليلا، ولا يهزُّهم طلوع النهار وإدبار الليل إلاّ نادرا، ولا يتدبرون ما في تواليها من رحمة بهم وإنقاذ من البلى والدمار أو التعطيل والبوار، أو الملل والهمود.

والقرآن الكريم يوقدهم من همود الإلْف والعادة، ويلفتهم إلى تملّي الكون من حولهم ومشاهده العظيمة، وذلك حين يُخيِّل إليهم استمرار الليل أبدا والنهار أبدا، وحين يخيفهم من عواقب هذا وذاك، وما يشعر الإنسان بقيمة الشيء إلا حين يفقده أو يخاف عليه الفقدان." (1)

والآيتين السابقتين جاءتا كدليل على وحدانية المولى- تبارك وتعالى- ببديع صنعه، وفي ضمن هذا الاستدلال إدماج الامتنان على الناس والتعريض بكفر المشركين من أهل مكة.

"ومن أبدعِ الاستدلال أن اختير للاستدلال على وحدانية الله هذا الصنع العجيب المتكرِّر كل يوم مرّتين والذي يستوي في إدراكه كل مميِّز... وكان الاستدلال بتعاقب الضياء والظلمة على الناس أقوى وأوضح من الاستدلال بتكوين أحدهما لو كان دائما، لأن قدرة خالق الضدين وجاعل أحدهما ينسخ الآخر كلّ يوم أظهر منها لو لم يخلق إلا أقواهما وأنفعهما، ولأن النعمة بتعاقبها دوما أشدّ من الإنعام بأفضلهما وأنفعهما، لأنه لو كان دائما لكان مسؤوما ولحصلت فيه طائفة من المنافع، وفُقدت منافع ضدّه، فالتنقُّل في النعم مرغوب فيه ولو كان تنقّلا إلى ما هو دون، وسيق إليهم هذا الاستدلال [أي مشركي مكة] بأسلوب تلقين الرسول- صلى الله عليه وسلم- أن يقوله لهم اهتماما بهذا التذكير لهذا الاستدلال ولاشتماله على ضدّين متعاقبين، حتى لو كانت عقولهم قاصرة عن إدراك دلالة أحد الضدّين لكان في الضدّ الآخر تنبيه لهم، ولو قصروا عن حكمة كلّ منهما كان في تعاقبهما ما يكفي للاستدلال." (2)

لقد جيء في الآيتين بحرف الشرط (إنْ) لفرض حال الواقع المعيش فقال في الآية الأولى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[القصص:71].

---

1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 5| 2708.

2) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20| 168، 169.

" والسرْمد: الدائم المتصل من السَّرد وهو المتابعة، ومنه قولهم في الأشهر الحرم: ثلاثة سرْدٌ وواحد فرد." [1]

والمعنى أخبروني أيها الناس لو جعل الله عليكم الليل دائما مستمرا بلا انقطاع من هو الإله القادر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غير الله تعالى ؟.

" إن الناس يشتاقون إلى الصبح، حين يطول عليهم الليل قليلا في الشتاء، ويحنُّون إلى ضياء الشمس حين يختفي عنهم فترة وراء السحاب، فكيف لهم لو فقدوا الضياء ودام عليهم الليل سرمدا إلى يوم القيامة ؟ وهذا على فرض أنهم ظلُّوا أحياء ولكن الحياة المستحيلة لو لم يطلع عليهم النهار!!." [2]

وجاء في الآية الثانية فرضُ عكس الحالة الأولى فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[القصص:72].

أي أخبروني أيضا أيها الناس لو أن الله- عزّ وجلّ- جعل عليكم النهار دائما مستمرا بلا انقطاع إلى قيام الساعة من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليل تستريحون فيه من تعب ونصب الحياة غيره تعالى ؟.

" كيف يكون حال الناس لو أن النهار استمرَّ إلى يوم القيامة، ألا تحرقهم الشمس بلهبها الدائم وسعيرها الذي لا يطاق ؟ والحياة كلُّها معرَّضة للهلاك والدمار، لو دام عليهم النهار." [3]

والملاحظ أنه تعالى ختم آية فرض سرمدية الليل بقوله ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لمناسبته له، ففي سكون الليل وظلامه، يكون إعمال السمع أفيد، ففيه يدرك الإنسان ما لا يدركه بالبصر من منافع وفوائد، ثم قرن قوله ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ بالنهار لمناسبته له ففي ضوء النهار يكون إعمال البصر أوقع، ففيه يدرك الإنسان بعينه من المنافع والفوائد، والعظات ما لا يدركه السمع أثناء الضجّة والحركة، وعلى هذا كان التذييل بما هو أليق بكل من الليل والنهار." [4]

ولهذا نبَّه سبحانه وتعالى في الآية التي بعدهما بفضله ورحمته على العباد فقال ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[القصص:73].

فالليل سكينة وقرار، والنهار عمل وجدٌّ، وكلّ شيء عنده بمقدار " وقد سلك في قوله ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ طريقة اللّف والنشر المعكوس فيعود ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾ إلى الليل، ويعود ﴿وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ إلى النهار، والتقدير لتبتغوا من فضله فيه، فحذف الضمير وجاره إيجازا اعتمادا على المقابلة." [5]

---

1) الكشاف، الزمخشري، 3| 433.

2) قبس من نور القرآن الكريم، محمد علي الصابوني، 9| 242.

3) المرجع نفسه،9| 243.

4) التفسير المنير، وهبة الزحيلي ، 10| 524.

5) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، 20| 171.

4- صورة من فضل الله وكرمه على عباده.

إن من فضل الله تعالى على عباده يوم القيامة أنه لا يجزي على السيئة إلا مثلها، ويجزي على الحسنة بعشر أمثالها إلى سبع مائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة والله يضاعف لمن يشاء فقد فقال تعالى في سورة القصص: (مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [القصص:84].

" وفي اختيار فعل (جَاءَ) في الموضعين هنا إشارة إلى أن المراد من حضَر بالحسنة ومن حضَر بالسيئة يوم العرض على الحساب، ففيه إشارة إلى أن العبرة بخاتمة الأمر وهي مسألة الموافاة، وأما اختيار فعل (عَمِلُوا) في قوله (الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ) فلما فيه من التنبيه على أن عملهم هو علّة جزاءهم زيادة في التنبيه على عدل الله تعالى.

ومعنى (فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا) أن كل حسنة تحتوي على خير لا محالة يصل إلى نفس المحسن أو إلى غيره، فالجائي بالحسنة خيرٌ أفضل مما في حسنته من الخير أو فلَهُ من الله إحسان عليها خير من الإحسان الذي في الحسنة قال تعالى في آية أخرى (فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا)." (1)

ولَمّا ذكر المولى تبارك وتعالى جزاء الإحسان، أعقبه بضدّ ذلك مع مقابلته فضله على المحسن بعدله مع المسيء على عادة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب فقال: (وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) [القصص:84].

" أي من أتى بالفعلة القبيحة المنكرة شرعا وعقلا وعرفا صحيحا مقبولا، فلا يُجزى عليها إلا مثلها رحمة وعدلا، ووضع الظاهر وهو السيئات موضع الضمير أي (عَمِلُوهَا) تهجينا لحالهم، بتكرير إسناد السيئة لهم." (2)

فانظر إلى رحمة الله تعالى بعباده يَسْتر العاصين منهم في الحياة الدنيا ويرحمهم يوم القيامة بأن يجازيهم على السيّئة بمثلها ولا يزيد، بل قد يغفر، ويجازي المحسنين منهم الحسنة بعشر أمثالها ويزيد، فتبارك الله أرحم الراحمين.

---

1) المرجع السابق، 20| 191.

2) التفسير المنير، وهبة الزحيلي، 10| 551.

الخاتمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الخاتمـــة

لقد كنت أسمع كثيرا مقولة إن القرآن الكريم معجزٌ وإنه أعلى الكلام، وإنه لا يُمكن مجاراته أو مداناته وأن الخلْق جميعا لو اجتمعوا على أن يقولوا مثله ما استطاعوا، وقد قرأت في بعض كتب البلاغة والإعجاز مثل هذا القول، وكنت حقيقة بنظري القاصر أرى أن في هذا القول شيئا من الغلوِّ والمبالغة، دَفَع القائلين به حماسُهم الديني ومكانة القرآن في قلوبهم، وكنت أسمع كثيرا من التعليلات التي يستدلُّ بها أصحابها على سموِّ هذا التعبير كارتباط الآيات ببعضها، وارتباط فواتح السور بخواتيمها، واختيار الألفاظ دون مرادفاتها ونحو ذلك، فكنت أحسُّ أن في ذلك شيئا من التكلُّف، وكنت أقول في نفسي إنه لو كان التعبير غير ذلك لعلَّلُوه كذلك فإن الإنسان لا يعدم تعليلا لما يريد، إلا أنه وبمرور الزمن وبعد إعدادي لرسالة الماجستير في الإعجاز البياني للقرآن الكريم واطّلاعي على عدد غير قليل من كتب التفسير والبلاغة والبيان اتّضح لي خطأ هذا الإعتقاد، وتبيّن لي وبالدليل القاطع والحجّة المقنعة أن التعبير القرآني حقّا معجزٌ بحروفه ومفرداته وعباراته وأساليبه، وكنت كلّما أنعمت النظر والتدقيق والموازنة في بحثي ازدادت هذه الفكرة وضوحا وازددت يقينا وبصيرة، وانتهى بي الحال إلى حقيقة لا مراء فيها وهي أن هذا القرآن معجز وأنه لا يُمكن أن يكون من كلام البشر، وأن الإنس والجن أوَّلهم وآخرهم لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا.

هذه أوّل نتيجة وأهمّ نتيجة أصل إليها في خاتمة هذا البحث، وهناك نتائج أخرى يمكن إجمالها فيما يلي:

1- علوُّ منزلة القرآن البلاغية، وسموُّه في درجات الفصاحة والبيان إلى الحد الذي أعجز العرب وغيرهم، فكان الدليل على صدق الرسالة الخاتمة، وأنه من لدن الحكيم الخبير، وهذا ما يجعل معرفة إعجاز القرآن ضرورية لأنه الدليل على صدق الرسالة وصحة النبوة.

2- الإعجاز البياني للقرآن الكريم أبرز وجوه الإعجاز وأهمّها لأنه شامل لكلّ سوَر القرآن حتى القصار منها، وقد تجلّت هذه الأهمية في سورة القصص التي كانت لبنة من لبنات بناء صرح التحدّي والإعجاز.

3- تميُّزُ الأداء القرآني عن طرائق البشر في الأداء التعبيري، وتفرُّده بخصائص التعبير المعجز، واستحواذه على جمال التقديم وروعة الإخراج وفنيّة التصوير جعل منه تحفة فنيّة خالدة تتأثّر بها النفوس وتطرب لها الأفئدة، وهو ما تشهد به آيات سورة القصص التي بلغت القمّة في روعة العرض والأداء والتأثير.

4- إن ما تضمّنته سورة القصص من روائع الإعجاز ولطائف التعبير حقيق بالتأمّل والتدبّر، فإن من يقف عند مظاهر هذا الإعجاز يدرك أن القرآن الكريم وحيٌ، ما كان يفترى من دون الله، وبذلك يتحقّق هدف من أسمى أهداف القرآن حين يستشعر المرء في نفسه عظمة المولى سبحانه وقدرته وسعة علمه وفضله، فيكون من المخبتين الذين قال فيهم رب العزّة: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (54)﴾[الحج: 54].

5-إن التعبير القرآني يظلّ جاريا على نسق واحد من السموّ في جمال اللفظ، وعمق المعنى ودقّة التركيب ورقة الصياغة، رغم تنقّله بين موضوعات مختلفة من التشريع والقصص والمواعظ والوعد والوعيد، وتلك حقيقة شاقّة، بل لقد ظلّت مستحيلة على مدى الزمن على فحول وفرسان الفصاحة والبيان.

6- إن القرآن الكريم يُخرج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارات، وبأساليب مختلفة تفصيلا وإجمالا، وتصريف الكلام في ذلك حتى يتجلّى إعجازه وتستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللّحاق بشأوه.

7- هذه سورة القصص جزء من القرآن الكريم، هذا القرآن الذي سَحر بنسقه المتميِّز القلوب وأسَرها. فقد أغنى بفواصله المتقاربة والمتماثلة في الوزن عن التفاعيل، وبتقفيته عن القوافي، ورأينا كيف تمّ للقرآن من الإعجاز البياني بدْءً من الحرف وصولا إلى الفاصلة ومرورا بالمفردة، وحاولت في عرض بعض أساليبه – المحاورة، التفنن، الالتفات- أن أبيِّن كيف كان نسيجا وحده في بلاغته وسحر بيانه.

ذلك هو القرآن الكريم، إن نطق لم ينطق إلاّ بالحقّ، وإن عَلّم لم يُعلّم إلاّ الهدى والرشاد، وإن صوَّر لم يصوِّر إلاّ أجمل لوحات الحياة، وإن رُتِّل ترتيلا لم يُسمع بَعده لحنٌ في الوجود.

ذلك هو كتاب الله الذي (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) [فصلت: 42].

وإني أرجو أن يكون هذا البحث على تواضعه، بذرة لشجرة طيبة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها. وأن يكون باكورة دراسات أخرى تبحث في مظاهر الإعجاز البياني للقرآن الكريم خدمة لكتاب الله العزيز.

وأخيرا أقف بباب أكرم من سُئل وأجود من أعطى وأرأف من ملك فأدعوه سبحانه بأسمائه الحسنى وباسمه الأعظم أن يرزقني الإخلاص في النية والسداد في القول والعمل، وأن ينفع ببحثي هذا إنه وليّ ذلك والقادر عليه والحمد لله رب العالمين.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفهـــارس العامـــــة

فهـــرس الآيـــــــات
فهـــرس الأحاديـــــث
فهـــرس الأشعـــــار
مصـادر البحث و مراجعه
فهـــرس الماضيـــــع

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

اسم السورة	رأس الآيـــــة	رقمـــها	الصفحـــة
البقرة	(وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ...	26	36
	(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ...	30	66
	(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى...	260	67-66
المائدة	(وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا...	38	59
	(قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا...	22	97
الأنعام	(الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...	82	02
	(إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ...	95	36
	(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا...	34	49
	(وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا...	115	54
	(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...	12	67
	(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ...	18	67
	(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا...	76	69
	(إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي...	79	69
الأعراف	(فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ...	176	90
التوبة	(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ...	38	33
هود	(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ...	45	67
	(قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ..	46	67
	(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ...	120	86

جامعة الإمام عبد الرحمن للعلوم الإسلامية

يوسف	(فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ..	96	26
	(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ...	15	39
	(إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ...	04	39
	(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ...	110	49
	(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ...	03	88-82
النحل	(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ...	01	49
	(بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا...	44	01
	(ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي...	69	52
الإسراء	(قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا...	42	68
	(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ...	81	48
	(وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ...	83	62
الكهف	(وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ...	23	25
	(إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ...	24	25
	(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ...	34	65
	(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ...	37	65
	(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ...	71	48
	(فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ...	74	48
	(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ...	105	02
مريم	(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ...	05	38
	(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ...	27	48
	(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا...	88	48
	(لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا...	89	48
	(تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ...	90	48

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

	(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى...	09	96
طـــه	(إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا...	10	96
	(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى...	11	96
	(إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ...	12	96
	(أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى...	13	96
	(اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى...	24	50
	(قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي...	25	50
	(وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي...	26	50
	(وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي...	27	50
	(يَفْقَهُوا قَوْلِي...	28	50
الحـــج	(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...	03	36
	(كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ...	04	36
المؤمنون	(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ...	12	59
	(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ...	13	59
	(ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا...	14	59
	(فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا...	27	48
الفرقان	(إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا...	12	30
	(فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا...	52	22
الشعراء	(وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ...	18	16
	(فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا...	44	51
	(وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ	192	19
	(نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ	193	19
	(عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ	194	19
	(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ	195	19

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

النمـــل	(وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ...	06	43
	(إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا...	07	43
	(فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ..	08	50-43
	(يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ	09	43-27
	(وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا...	10	43-27
	(إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ...	11	43
	(وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ...	12	43
	(فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً...	13	43
	(وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا...	14	132-43
	(وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ...	22	46
	(قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ...	39	46
	(قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ..	40	46
	(إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ...	80	62
القصـــص	(طسم (1) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ	02-01	139-90-20
	(نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى...	03	139-90-85
	(إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ...	04	111-108-91-58-37
	(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا...	05	91
	(وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ...	06	91
	(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ...	07	44-106-62-29
	(وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي...	09	106-104-38
	(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ...	10	45-35
	(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا...	13	102-97-93-35
	(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا...	14	93-39
	(وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ ...	15	36-26
	(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ...	16	107-28
	(قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ...	17	28
	(فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...	18	34-31

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القصص	(فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي...	19	26
	(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ...	20	60
	(وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى...	22	39-24
	(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً...	23	62-93-41
	(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ...	24	41
	(فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ...	25	45-31
	(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ...	26	113
	(قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ...	27	114-93
	(قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا...	29	92-46-42
	(فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ...	30	102-92-42-27
	(فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ...	31	116-58-93-31-27
	(وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ...	32	43
	(اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ...	33	102-61-45-43
	(قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا...	34	45
	(وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي...	35	29
	(قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ...	39	133-92
	(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ...	40	133-107-86-60
	(فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ...	41	92-86
	(وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...	42	87-34
	(وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ...	43	128-87
	(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ...	44	85-66
	(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا...	46	131-103
	(وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ...	47	129
	(وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ...	48	61
	(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ...	53	103
	(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُو...		

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

القصص	(وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ...	54	103
	(أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا...	56	61
	(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ...	57	119
	(وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ...	58	120 -119
	(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ...	59	105-104-36
	(وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى...	60	121-105-40
	(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ...	62	125 - 40
	(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ...	63	40
	(قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ...	64	125-41
	(وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ...	65	126
	(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ	66	126
	(فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ...	67	60
	(فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَى...	68	140
	(وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ...	69	141
	(وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ	70	141-140-112
	(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ...	71	143-142-107-58
	(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا...	72	144-142-59
	(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا...	73	144
	(وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ...	74	127 - 105
	(وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ...	75	127 - 105
	(وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا...	76	72 -61
	(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ...	77	72-61
	(وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ...	78	72-118
	(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي...	79	72
	(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ...	80	72
	(وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ...	81	103-94-87-73-61
	(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ...	82	94-80-73

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشورى	(فمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...	36	40
الذاريات	(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ...	29	38
الحديد	(لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا...	23	80-74
المجادلة	(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...	01	65
الحشر	(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ...	20	38
	(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ...	21	137
الملك	(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ	07	30
نوح	(لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا...	20	52
	(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...	21	52
المدثر	(فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ...	24	136
النازعات	(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى	34	48
عبس	(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ	33	48
	(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ	34	48
التكوير	(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ	07	38
الأعلى	(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى	18	095
	(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى	19	95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الشورى	(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...	36	40
الذاريات	(فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ...	29	38
الحديد	(لِكَيْ لَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا...	23	80-74
المجادلة	(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا...	01	65
الحشر	(لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ...	20	38
	(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ...	21	137
الملك	(إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ	07	30
نوح	(لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا...	20	52
	(قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي...	21	52
المدثر	(فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ...	24	136
النازعات	(فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى	34	48
عبس	(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ	33	48
	(يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ	34	48
التكوير	(وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ	07	38
الأعلى	(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى	18	095
	(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى	19	95

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفجـــر	(وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ	10	96
	(الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ	11	96
	(فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ	12	96
	(فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ	13	96

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديـــــث

متن الحديـــث	راويـــــه	الصفحة
(قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ مَا الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ...	عدي بن حاتم	02
(إِنَّه لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ...	أبو هريـــــرة	02
(الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَ اللهُ...	البراء بن عازب	02
(أَنَّ الْحَارِثَ بَنَ عُثْمَانَ بَنْ عَامَرَ بَنَ نُوفَلَ بَنَ عَبْدَ...	عبد الله بن العباس	119
(وَإِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا		136

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهـرس الأشعـــار

البيـــــت	قائلـــــه	الصفحـــة
أثنى عليّ بما علمت فإنني ... بك ت المدح و السلب لمّا استفتح السُّورا	شهاب الدين المقدسي	19
والأمْرُ شَرْطُ النِّدا التعليلُ والقَسَمُ الـــدُّ ... عا حروف التهجّي استفهمْ الخَبَـــرا	شهاب الدين المقدسي	19
وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْـــــــــرٌ ... وَ لَيْس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْـــــــرُ		30
إذا ما علتْ منّا ذؤابة شـــــــــارب ... تَمَشَّتْ بِهِ مَشْيَ المُقَيَّ في الوَحْـــلِ	مسلم بن الوليد	63
لايصلح النفس إذا كانت مُصرَّفـــــــةً ... إلاَّ التنقُّلُ من حَالٍ إلى حـــــــالِ	غير معروف	101
كرمٌ متى أمدحْهُ أمدحْهُ والـــــــورَى ... معي و متى لُمْتُه لُمْتُه وَحْـــــــدي	أبو تمـــــام	29

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم

01- أثر القرآن في تطور النقد العربي إلى أواخر القرن الرابع الهجري، محمد زغلول سلام، دار المعارف، ط:3

02- أسلوب المحاورة في القرآن الكريم، عبد الحليم حفني، الهيئه المصرية العامة للكتاب، ط:2، 1985م

03- الإتقان في علوم القرآن، جلال عبد الرحمان السيوطي، دار المعرفة بيروت، لبنان

04- الإعجاز الفني في القرآن، عمر سلامي، مؤسسة عبد الكريم تونس، 1980

05- إعجاز القرآن، محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسةالكتب الثقافية،ط:1 1411هـ- 1991م

06- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1421هـ- 2000م

07- أعلام الموقعين عن رب العالمين، شمس الدين بن أبي بكر، ابن القيم الجوزية، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:1، 1422هـ- 2001م

08- الإعجاز اللغوي في قصص نوح- عليه السلام- في القرآن، د عودة الله منيع القيسي، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ط:1، 1422هـ- 2002م

09- أهداف القصةن في القرآن الكريم، منصور الرفاعي عيد،دار العرفان للطباعة، القاهرة، ط:1

10- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، مراجعة بهيج الغزاوي، دار إحياء العلوم، بيروت، 1988م

11- بحوث منهجية في علوم القرآنن موسى إبراهيم الإبراهيم، دار عمار، ط:2، 1416هـ- 1996م

12- البديع، أبي العباس عبد الله بن المعتز، تحقيق عبد المنعم خفاجي، دار الجيل بيروت

13- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت

14- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت لبنان

15- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخن فتحي أحمد عامر، منشأة المعارف الإسكندرية، مصر

16- البلاغة تطور وتاريخ، شوقي ضيف، دار المعارفن القاهرة، مصر، ط:8، 1990م

17- البنية السردية في القصص القرآني، طول محمد، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر

18- بحوث في قصص القرآن، السيد عبد الحافظ عبد ربه، دار الكتب اللبناني، بيروت، لبنان، ط:1، 1972م

19- البيان والتبيين، عمرو بن محبوب الكناني المعروف بالجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر،بيروت، لبنان، ط: 4

20- بيانات المعجزة الخالدة، حسن ضياء الدين عترن دار النصر، سوريا، ط:1، 1395هـ- 1975م

21- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس
22- التصويرالفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت لبنان، ط:13، 1413هـ- 1993
23- تفسير القرىن العظيم، عماد أبو الفدا إسماعيل بن كثير الدمشقي، دار الأندلس، بيروتن لبنان
24- تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، دار الفكر،ط:2، 1403هـ- 1983م
25- التفسير الكبير، محمد فخر الدين الرازي، دار الفكر،بيروت، لبنان، ط:1، 1425هـ- 2005م
26- التفسير البياني للقرآن، عائشة عبد الرحمان، دار المعارف القاهرة، ط:6، 1397هـ- 1977م
27- التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، ط:2، 1396هـ- 1976م
28- التفسير الوسيطللقرآن الكريم، محمد سيد طنطاوي، مطبعة السعادة، 1397هـ- 1977م
29- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط:2، 1990م
30- تفسير النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله النسفي، دار الفكر
31- التفسير القيم، شمس الدين بن أبي بكر، ابن القيم الجوزية، بيروت، دار الفكر
32- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة الزحيلي، دار الفكرن دمشق،ط:2، 1424هـ- 2003م
33- التعبير القرآني، فاضل صالح السامرائي، دار عمار الأردن، ط:2، 1422هـ-2002م
34- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان ط:1، 1407هـ- 1987م
35- ثلاث رسائل في الإعجازالقرآن، (الخطابي، الرماني، الجرجاني)، تحقيق أحمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط:3
36- الجدل في القرآن، محمد تومي، شركة الشهاب، الجزائر
37- جماليات المفردة القرآن في كتب الإعجاز والتفسير، أحمد ياسوف، دار المكتبي، ط:1، 1415هـ- 1994م
38- الخصائص، ابي الفتح عثمان بن الجني، تحقيق محمد علي النجار، ط:2، دار الهدى، بيروت
39- خطوات التفسير البياني للقرآن الكريم، محمد رجب البيومي، 1391هـ- 1971م
40- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تعليق محمود شاكر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط:2، 1410هـ- 1989م
41- روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني، أبي الفضل شهاب الدين الآلوسي، دار احياء التراث العربي، لبنان
42- السنن الكبرى، أبي عبد الرحمان أحمد بن شعيب النسائي، تقديم بن عبد المحسن التركي، إشراف شعيب الأرناؤوط، تخريج الأحاديث حسن عبد المنعم، مؤسسة الرسالة، بيروت
43- سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مكتبة الصفا، القاهرة، ط:1، 1424هـ- 2003م
44- صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، لبنان، ط:4، 1402هـ- 1981م
45- في ظلال القرآن، سيد قطب، بيروت لبنان، ط:11، 1405هـ- 1985م
46- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، دار الفكر للكتاب العربي، بيروت، 1983م

47- قبس من نور القرآن، محمد علي الصابوني، دار السلام، ط:1، 1418هـ- 1997م
48- الكشاف عن الحقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود جار الله الزمخشري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:2، 1421هـ- 2001م
49- لسان العرب، أبي الفضل جمال الدين محمد بن منظور، دار الصادر، بيروت
50- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر، عمان، الأردن، ط:3، 1423هـ- 2003م
51- مشاهد القيامة في القرآن، سيد قطب، دار المعرف، ط:7
52- من أسرار التعبير في القرآن، (حروف القرآن)، عبد الفتاح لاشين، مكتبة عكاظ، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1403هـ- 1983م
53- من أسرار التعبير في القرآن، (صفاء الكلمة)، عبد الفتاح لاشين، مكتبة عكاظ، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1403هـ- 1983م
54- من أسرار التعبير في القرآن، (الفاصلة القرآنية)، دار المريخ للنشر، الرياض، 1402هـ- 1982م
55- من أسرار البلاغة في القرآن الكريم، محمد سيد شيخون، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، مصر، 1404هـ- 1984
56- مباحث في علوم القرآن، الصبحي الصالح، دار الملايين، بيروت لبنان، ط:18، 1990م
57- معترك الأقران في إعجاز القرآن، جلال الدين السيوطي، تحقيق محمد علي بجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة، 1970م
58- المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت
59- المعجزة الكبرى القرآن، محمد أبو زهرة، دار الفكرالعربي
60- مع الأنبياء في القرآن، عفيف عبد الفتاح طبارة، ذار الملايين، بيروت، لبنان، ط:7، 1989م
61- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، تقديم وتحقيق أحمد صرفي، وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الرياض، ط:2
62- مقومات التصور الإسلامي، سيد قطب، ذار النشر، القاهرة، ط:4، 1414هـ- 1993م
63- منهج القصة في القرآن، محمد شديد، شركة مكتبة عكاظ للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط:1، 1404هـ- 1984م
64- النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز، دار العلم، الكويت، ط:7، 1413هـ- 1993م
65- نقد الشعر، أبو الفرج قدامة بن جعفر، تحقيق كمال مصطفى، مكتبة الخانجي، ط:3
66- واقعية المنهج القرآني، توفيق محمد سبع، المكتبة العصرية، بيروت لبنان، 1393هـ- 1973م

01- الفاصلة بين ملائمة اللفظ ومراعاة المعنى، د أحمد مختار عمر، مجلة الدراسات القرآنية، العدد:1، نشر مركز الدراسات الإسلامية بكلية الدراسات الشرقية والإفريقية، لندن 1999م

02- الالتفات، د تيجاني بوربقة، مجلة الزيتونة، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، القصبة، تونس، العدد: 3 1414هـ- 1994م

03- المدخل إلى دراسة الإعجاز القرآني، د عبد المجيد ناجي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، الجماهيرية الليبية العدد 13، 1966

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

المقدمة.....أ- ز

المدخل.....1

الدراسات البيانية النشأة والتطور.....1

المرحلة الأولى.....1

المرحلة الثانية.....3

المرحلة الثالثة.....5

المرحلة الرابعة.....9

المرحلة الخامسة.....11

بين يدي السورة.....15

التسمية.....15

مكّيها ومدنيها.....15

علاقتها بما قبلها.....15

ترتيب نزولها وعدد آياتها.....16

مناسبة فاتحة السورة بخاتمتها.....16

قطاعات السورة ومحاورها الرئيسة.....16

الفصل الأول.....18

المبحث الأول الإعجاز في الحروف.....19

أولا: ما يتعلق بالحروف المقطعة في أوائل السوَر.....19

1- أصناف الافتتاح في القرآن الكريم.....19

2- قول أهل العلم في الحروف المقطعة.....20

3- علاقة الأحرف المقطعة بالإعجاز.....22

ثانيا: مظاهر إعجاز الحروف في سورة القصص.....24

1- حذف حلف في موطن وذكره في موطن آخر.....24

2- زيادة حرف مراعاة لمقتضى الحال.....26

3- الحروف المتماثلة.....28

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- صفات الحروف وعلاقتها بالمعنى.....30
المبحث الثاني: الإعجاز في المفردة.....32
أولا: أهمية المفردة وعناية القرآن بها.....32
ثانيا: خصائص المفردة القرآنية في سورة القصص.....33
1- الإيحاء والتصوير.....33
2- بنية الكلمة في التعبير القرآني.....35
3- الدقة المتناهية والإحكام البالغ في اختيار المفردة.....37
4- التكرار والحذف.....40
ثالثا: مقارنة بين مفردات قصة موسى –عليه السلام–في سورتي القصص والنمل.....42
المبحث الثالث: الإعجاز في الفواصل.....55
أولا: جمال الفاصلة ودورها في التأثير النفسي.....55
ثانيا: القيمة المعنوية للفاصلة وعلاقتها بمن قبلها.....56
1- التمكين.....58
2- التوشيح.....60
3- التصدير.....61
4- الإيغال.....61
الفصل الثاني.....64
المبحث الأول: أسلوب المحاورة في سورة القصص.....65
أولا: المحاورة في القرآن الكريم مفهومها وخصائصها.....65
1- مفهوم المحاورة.....65
2- القرآن الكريم والحوار.....66
3- خصائص أسلوب المحاورة في القرآن الكريم.....67
ثانيا:في جناية الغرور.....72
1- موضوع المحاورة.....73
2- أطراف المحاورة.....73
3- النتيجة والأثر.....79

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4- العبرة.....81
المبحث الثاني: أسلوب القصة في سورة القصص.....82
أولا: أنواع القص القرآنية في سورة القصص.....82
ثانيا: أغراض القصة القرآنية في سورة القصص.....84
1- إثبات الوحي والرسالة.....84
2- تثبيت قلب الرسول – صلى الله عليه وسلم- على الحق وتسليته.....86
3- الإنذار والإعتبار.....86
4- بيان إعجاز القرآن.....87
5- تربية النفوس.....88
ثالثا: خصائص ومميزات القصة القرآنية في سورة القصص.....89
1- الخصائص الفنية للقصة القرآنية.....90
أ- تنوع طريقة العرض.....90
ب- تنوع طريقة المفاجأة.....91
جـ- ترك الفجوات.....92
د- خاصية التصوير الفني.....93
2- آثار خضوع القصة القرآنية للغرض الديني.....95
أ- التكرار.....95
ب- الإيجاز.....98
د- بث العبر والعظات.....99
المبحث الثالث: أسلوب الالتفات.....100
أولا: مفهوم الالتفات وفوائده.....100
1- مفهوم الالتفات.....100
2- شروطه.....101
3- فوائده.....101
ثانيا: أقسام الالتفات وضروبه.....102
1- الانتقال من التكلم إلى الغيبة.....102
2- الانتقال من الخطاب إلى الغيبة.....104

3- الانتقال من الغيبة إلى التكلم.....104
4- الانتقال من الغيبة إلى الخطاب.....105
ثالثا: ما يقرب من الالتفات.....106
1- الانتقال من خطاب الواحد إلى خطاب الجمع.....106
2- الانتقال في الكلام من زمن غلى زمن آخر.....106
أ- الانتقال من الماضي إلى الأمر.....106
ب- الانتقال من المستقبل إلى الماضي.....107
جـ- الانتقال من الماضي إلى المضارع.....108
الفصل الثالث.....109
المبحث الأول: الإعجاز في الأداء القرآني.....110
أولا: تنوع طرائق الأداء التعبيري واستيفاء القرآن الكريم لها.....110
ثانيا: خصائص ومميزات الأداء التعبيري في سورة القصص.....111
الميزة الأولى: القصد في اللفظ والوفاء بحق المعنى.....111
الميزة الثانية: البيان والإجمال.....113
الميزة الثالثة: إقناع العقل وإمتاع العاطفة.....118
الميزة الرابعة: خطاب العامة وخطاب الخاصة.....120
المبحث الثاني: الإعجاز في العرض القرآني.....124
أولا: في عرض مشاهد يوم القيامة.....124
ثانيا: إثبات نبوة محمد- صلى الله عليه وسلم-.....128
ثالثا: في عرض مشاهد الغابرين.....132
المبحث الثالث: الإعجاز في سحر القرآن وتأثيره.....135
أولا: التأليف الصوتي للقرآن.....135
ثانيا: سحر القرآن وتأثيره في القلوب.....136
ثالثا: تأثير القرآن في نفوس أوليائه وأعدائه.....138
رابعا: نماذج وصور للتأثير القرآني من خلال سورة القصص.....139
1- حسن الابتداء وبراعة الاستهلال.....139
2- صورة لشمول العلم الإلهي ونفوذ حكمه تبهر العقول.....140
3- جولة في مشاهد الكون الفسيح.....142
4- صورة لفضل الله وكرمه على العباد.....145

الخاتمة.....146
الفهارس العامة.....149
فهرس الآيات.....150
فهرس الأحاديث.....159
فهرس الأشعار.....160
قائمة الصادر والمراجع.....161
فهرس المواضيع.....164

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية